منهاج العابدين للشيخ الامام العارف بالله
تعالى زين الدين حجة الاسلام أبي
حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي
الطوسي قدس الله روحه
ونور ضريحه ونفعنا
والمسلمين بعلومه
آمين
(وبهامشه الكتاب المسمى بداية الهداية للمؤلف أيضا)

(فهرسة منهاج العابدين لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي)

صحيفة

٦ العقبة الاولى وهى عقبة العلم
١٠ العقبة الثانية وهى عقبة التوبة
١٣ فصل ثم اعلم يقينا ان هذه العقبة عقبة صعبة أمرها مهم الخ
١٤ فصل وجملة الامر انك اذا ابتدأت الخ
١٥ العقبة الثالثة وهى عقبة العوائق
١٥ أحدها الدنيا وما فيها
١٧ العائق الثانى الخلق
٢٣ العائق الثالث الشيطان
٢٧ العائق الرابع النفس
٣٢ الفصل الاول (أى من فصول الاعضاء الخمسة) فصل العين
٣٣ الفصل الثانى الاذن
٣٤ الفصل الثالث اللسان
٣٥ الفصل الرابع القلب
٤٢ الفصل الخامس فى البطن وحفظه
٤٧ فصل فعليك أيها الرجل ببذل المجهود الخ
٥٠ فصل ثم راع هذه الاعضاء الاربعة التى هى الاصول الخ
٥٢ فصل وجملة الامر انك اذا نظرت بعقلك الخ
٥٣ العقبة الرابعة وهى عقبة العوارض
٥٣ أحدها الرزق ومطالبة النفس بذلك الخ
٥٨ العارض الثانى الاخطار وارادتها وقصودها
٦١ العارض الثالث القضاء ووروده أنواعه
٦٢ العارض الرابع الشدائد والمصائب
٦٤ فصل فعليك بقطع هذه العقبة الشديدة الخ
٦٦ فصل ثم اعلم بعد هذه الجملة أنى مجرد ذلك نسكا الخ
٧٠ فصل وبالجملة اذا علمت يقينا أن الله هو المتكفل بضمان رزقك الخ
٧٢ العقبة الخامسة وهى عقبة البواعث
٧٤ فصل فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة الخ
٨١ فصل وجملة الامر انك اذا تذكرت سعة رحمة الله تعالى الخ
٨٢ العقبة السادسة وهى عقبة القوادح
٨٧ فصل فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة الخ
٩٠ فصل وعلى وجه آخر ان الملك العظيم الخ

صحيفة

٩٠ فصل ثم أقول بعد هذه الجملة تيقظ من رقدتك الخ

٩٥ فصل وجملة الامر انك اذا أحسنت النظر فرأيت قدر طاعة الله تعالى

٩٦ العقبة السابعة وهي عقبة الجد والشكر

٩٨ فصل فعليك أيها الرجل ببذل المجهود في قطع هذه العقبة اليسيرة

١٠٣ فصل وجملة الامر أنك اذا أحسنت النظر في منن الله تعالى الخ

١٠٥ فصل ثم اعلم ما هو التحقيق في هذا الباب الخ

(تمت)

(فهرسة بداية الهداية المرقوم بهامش هذا الكتاب)

صحيفة

٩ القسم الاول فى الطاعات
١١ فصل فى آداب الاستيقاظ من النوم
١٢ باب آداب دخول الخلاء
١٤ آداب الوضوء
١٩ آداب الغسل
٢٠ آداب التيمم
٢١ آداب الخروج الى المسجد
٢٢ آداب دخول المسجد
٣٠ آداب ما بعد طلوع الشمس الى الزوال
٣٦ آداب الاستعداد لسائر الصلوات
٤٠ آداب النوم
٤٤ آداب الصلاة
٥٠ آداب الامامة والقدوة
٥٣ آداب الجمعة
٥٧ آداب الصيام
٥٩ القسم الثانى القول فى اجتناب المعاصى
٧٤ القول فى معاصى القلب
٨٦ القول فى آداب الصحبة والمعاشرة مع الخالق سبحانه وتعالى ومع الخلق

تمت

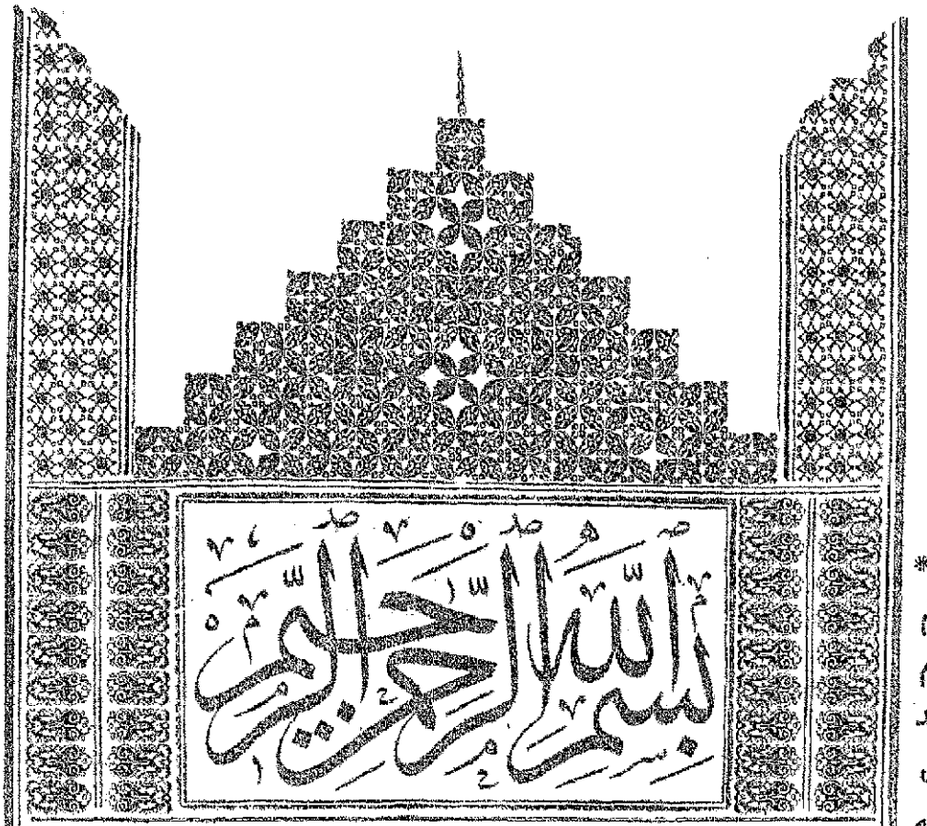

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه الصالح الزاهد عبد الملك بن عبد الله غفر الله له أملى على شيخي الاجل الامام الزاهد السعيد الموفق حجة الاسلام زين الدين شرف الامة ابو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي قدس الله روحه ورفع الله في الجنة درجته هذا الكتاب المختصر وهو آخر كتاب صنفه ولم يستكمله منه الاخوص أصحابه وهو (الحمد لله) الملك الحكيم الجواد الكريم العزيز الرحيم الذي خلق الانسان في أحسن تقويم وفطر السموات والارض بقدرته ودبر الامور في الدارين بحكمته وما خلق الجن والانس الا لعبادته فالطريق اليه واضح للقاصدين والدليل عليه لائح للناظرين ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو اعلم بالمهتدين والصلاة على سيد المرسلين وعلى آله الابرار الطيبين الطاهرين وسلم وعظم الى يوم الدين اعلموا اخواني أسعدكم الله وايانا بمرضاته ان العبادة ثمرة العلم وفائدة العمر وحاصل العبيد الاقوياء وبضاعة الاولياء وطريق الاتقياء وقسمة الاعزة ومقصد ذوي الهمة وشعار الكرام وحرفة الرجال واختيار أولي الابصار وهي سبيل السعادة ومنهاج الجنة قال الله تعالى وأنار بكم فاعبدون وقال تعالى ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ثم انا نظرنا فيها وتأملنا طريقها من مباديها الى مقاصدها التي هي امانيها سالكيها فاذا هي طريق وعر وسبيل صعب كثيرة العقبات شديدة المشقات بعيدة المسافات عظيمة الآفات كثيرة العوائق والموانع خفية المهالك والمقاطع غزيرة الاعداء والقطاع عزيزة الاشياع والاتباع وهكذا يجب ان تكون لانها طريق الجنة فصير هذا تصديقا لما قاله صلى الله عليه وسلم ألا وان الجنة حفت بالمكاره وان النار حفت بالشهوات وقال صلى الله عليه وسلم ألا وان الجنة حزن بربوة ألا وان

النار

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال الشيخ الامام العالم العلامة حجة الاسلام وبركة الانام أبو حامد محمد ابن محمد بن محمد الغزالي الطوسي قدس الله روحه ونور ضريحه آمين * الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه من بعده (أما بعد) فاعلم أيها الحريص المقبل على اقتباس العلم المظهر من نفسه صدق الرغبة وفرط التعطش اليه انك ان كنت تقصد بطلب العلم المنافسة والمباهاة والتقدم على الاقران واستمالة وجوه الناس اليك وجمع حطام الدنيا فانت ساع في هدم دينك واهلاك نفسك وبيع آخرتك بدنياك فصفقتك خاسرة وتجارتك بائرة ومعاملتك مقلوبة

الناس سهل بسهوة ثم مع ذلك كله فان العبد ضعيف والزمان صعب والدين متراجع والفراغ قليل والشغل كثير والعمر قصير وفي العمل تقصير والناقد بصير والاجل قريب والسفر بعيد والطاعة هي الزاد فلا بد منها وهي فائتة فلا مرد لها فمن ظفر بها فقد فاز وسعد أبد الآبدين ودهر الداهرين ومن فاته ذلك فقد خسر مع الخاسرين وهلك مع الهالكين فصار هذا الخطب اذا والله معضلا والخطر عظيما فلذلك عزمن يقصد هذا الطريق وقل ثم عزمن القاصدين من يسلكه ثم عزمن السالكين من يصل الى المقصود ويظفر بالمطلوب وهم الاعزة الذين اصطفاهم الله عز وجل لمعرفته ومحبته وسددهم بتوفيقه وعصمته ثم أوصلهم بفضله الى رضوانه وجنته فنسأله جل ذكره أن يجعلكم وايانا من أولئك الفائزين برحمته نعم ولما وجدنا هذه الطريق بهذه الصفة نظرنا فأنعمنا النظر في كيفية قطعها وما يحتاج اليه العبد من الاهبة والعدة والآلة والحيلة من علم وعمل عسى أن يقطعها بحسن توفيق الله في سلامة ولا ينقطع في عقباتها المهلكة فيهلك مع الهالكين والعياذ بالله فصنفنا في قطع هذه الطريق وسلوكها كتابا كاحياء علوم الدين والقربة الى الله تعالى وغير ذلك احتوت على دقائق من العلوم اعتاصت على أفهام العامة فقد حوا فيها وخاضوا فيما لم يحسنوه ومنها فأي كلام أفصح من كلام رب العالمين وقد قالوا فيه انه أساطير الاولين ألم تسمع الى قول زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين

انى لاكتم من علمي جواهره * كيلا يرى ذا الله ذو جهل فيفتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن * الى الحسين ووصى قبله الحسنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به * لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي * يرون أقبح ما يأتونه حسنا

واقتضت الحال عند ذوي الدين الذين هم أشرف خلق الله تعالى النظر الى كافة خلق الله تعالى بعين الرحمة وترك المماراة فابتهلت الى من بيده الخلق والامر أن يوفقني لتصنيف كتاب يقع عليه الاجماع ويحصل بقراءته الانتفاع فأجابني الى ذلك الذي يجيب المضطر اذا دعاه وأطلعني بفضله على اسرار ذلك وألهمني فيه ترتيبا عجيبا لم أذكر في المصنفات التي تقدمت في اسرار معاملات الدين وهو الذي أنا له واصف فأقول وبالله التوفيق ان أول ما يتشبه العبد للعبادة ويتجرد لسلوك طريقها بخطرة سماوية من الله وتوفيق خاص الهي وهو المعنى بقوله سبحانه وتعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وأشار اليه صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه فقال ان النور اذا دخل القلب انفسح وانشرح فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها فقال التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزول الموت فاذا خطر بقلب العبد أول كل شئ الى أجدني منعما بضروب من النعم علي كالحياة والقدرة والعقل والنطق وسائر المعاني الشريفة واللذات مع ما يصرف عني من ضروب المضار والآفات وان لهذه النعم منعما يطالبني بشكره وخدمته فان غفلت عن ذلك فيزيل عني نعمته ويذيقني بأسه ونقمته وقد بعث الي رسولا أيده بالمعجزات الخارقة للعادات الخارجة عن مقدور البشر وأخبرني بأن لي ربا جل ذكره قادرا عليما سميدا متكلما يأمر وينهى قادرا

وشريك لك في خسرانك وهو كقاتع سيف من قاطع طريق كما قال صلى الله عليه وسلم من أعان على معصية ولو بشطر كلمة كان شريكا له فيها وان كانت نيتك وقصدك بينك وبين الله تعالى من طلب العلم الهداية دون مجرد الرواية فأبشر فان الملائكة تبسط لك أجنحتها اذا مشيت وحيتان البحر تستغفر لك اذا سهيت ولكن ينبغي لك ان تعلم قبل كل شئ ان الهداية التي هي ثمرة العلم لها بداية ونهاية وظاهر وباطن ولا وصول الى نهايتها الا بعد احكام بدايتها ولا عثور على باطنها الا بعد الوقوف على ظاهرها وها أنا مشير عليك ببداية الهداية لتجرب بها نفسك وتتمحن بها قلبك فان صادفت قلبك اليها مائلا ونفسك بها مطاوعة ولها قابلة فدونك التطلع الى النهايات والتغلغل في بحار العلوم وان صادفت قلبك عند مواجهتك اياها

على ان يعاقب ان عصيته ويثيب ان أطعته عالما بأسراري وما يختلج في افكاري وقد وعد وأوعد وأمر بالتزام قوانين الشرع فيقع في قلبه أنه ممكن اذ لا استحالة لذلك في العقل بأول البديهة فيخاف على نفسه عند ذلك ويفزع فهذا خاطر الفزع الذي ينبه العبد ويلزمه الحجة ويقطع عنه المعذرة ويزعجه الى النظر والاستدلال فيهتاج العبد عند ذلك ويقلق وينظر في طريق الخلاص وحصول الامان له عما وقع بقلبه أو سمع بأذنه فلم يجد فيه سبيلا سوى النظر بعقله في الدلائل والاستدلال بالصنعة على الصانع ليحصل له علم اليقين بما هو مغيب ويعلم ان له ربا كلفه وأمره ونهاه (فهذه أول عقبة) استقبلته في طريق العبادة وهي عقبة العلم والمعرفة ليكون من الامر على بصيرة فيأخذ في قطعها من غير بد بحسن النظر في الدلائل ووفور التأمل والتعلم والسؤال من علماء الآخرة أدلاء الطريق سرج الامة وقادة الائمة والاستفادة منهم واستمداد الدعاء الصالح منهم للتوفيق والاعانة الى ان يقطعها بتوفيق الله سبحانه فيحصل له علم اليقين بالغيب وهو ان له الها واحدا لا شريك له هو الذي خلقه وانعم عليه بكل هذه النعم وانه كلفه شكره وامره بخدمته وطاعته بظاهره وباطنه وحذره الكفر وضروب المعاصي وحكم له بالثواب الخالد ان أطاعه وبالعقاب الخالد ان عصاه وولى عنه فعند ذلك تبعثه هذه المعرفة واليقين بالغيب على التشمير للخدمة والاقبال على العبادة لهذا السيد المنعم الذي طلبه فوجده وعرفه بعد ما جهله ولكنه لا يدري كيف يعبده وماذا يلزمه في خدمته بظاهره وباطنه فبعد حصول هذه المعرفة بالله سبحانه وتعالى جهد حتى يتعلم ما يلزمه من الفرائض الشرعية ظاهرا وباطنا فلما استكمل العلم والمعرفة بالفرائض انبعث لما خذ في العبادة ويشتغل بها فنظر فاذا هو صاحب جنايات وذنوب وهذا حال الاكثر من الناس فيقول كيف أقبل على العبادة وأنا مصر على المعصية متلطخ بها فيجب علي أولا ان اتوب اليه ليغفر لي ذنوبي ويخلصني من أسرها ويطهرني من اقذارها فأصلح للخدمة وبساط القربة فتستقبله ههنا (عقبة التوبة) فيحتاج لاجالة الى قطعها ليصل الى ما هو المقصود منها فيأخذ في ذلك بأفاضة التوبة بحقوقها وشرائطها الى ان يقطعها فلما ان حصلت له التوبة الصادقة وفرغ من هذه العقبة حن الى العبادة ليأخذ فيها فنظر فاذا حوله عوائق محدقة به كل واحد منها يعوقه عما قصد من العبادة بضرب من التعويق فتأمل فاذا هي أربعة الدنيا والخلق والشيطان والنفس فاحتاج لاجالة الى دفع هذه العوائق وازاحتها عنه والا فلا يتأتى له مراده من العبادة فاستقبلته ههنا (عقبة العوائق) فيحتاج الى قطعها بأربعة أمور التجرد عن الدنيا والتفرد عن الخلق والمحاربة مع الشيطان والقهر للنفس فأما النفس فأشدها اذ لا يمكنه التجرد عنها ولا ان يقهرها مرة ويقمعها كالشيطان اذ هي المطية والآلة ولا مطمع أيضا في موافقتها على ما يقصده العبد من العبادة والاقبال عليها اذ هي مجبولة على ضد الخير كالهوى واتباعها له فاحتاج اذا الى ان يلجمها بلجام التقوى لتبقى له فلا تنقطع وتنقاد له فلا تطغى فيستعملها في المصالح والمراشد ويمنعها من المهالك والمفاسد فيأخذ اذا في قطع هذه العقبة ويستعين بالله جل ذكره على ذلك فلما فرغ من قطعها رجع الى قصد العبادة فاذا عوارض تعترضه فتشغله عن الاقبال على مقصوده من العبادة وتصده عن التفرغ لذلك كما ينبغي فتأمل فاذا هي أربعة الرزق تطالبه النفس به وتقول لا بد لي من رزق ولوام وقد تجردت عن الدنيا

بها موفيا بالعمل بمقتضاها عما علا فاعلم ان نفسك المائلة الى طلب العلم هي النفس الامارة بالسوء وقد انتهضت مطيعة للشيطان اللعين ليدليك بجبل غروره فيستدرجك بمكيدته الى غمرة الهلاك وقصده ان يروح عليك الشرف في معرض الخير حتى يلقيك بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وعند ذلك يتلو عليك الشيطان فضل العلم ودرجة العلماء وما ورد فيه من الآثار والاخبار ويلهيك عن قوله صلى الله عليه وسلم من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعدا وعن قوله صلى الله عليه وسلم

وتفردت أيضا من الخلق فمن اين يكون قوامي ورزقي والثاني الاخطار من كل شئ يخافه او يرجوه أو يريده او يكرهه ولا يدري صلاحه في ذلك أو فساده فان عواقب الامور مبهمة فيشتغل قلبه بها فانه ربما وقع في فساد اريد هلكة والثالث الشدائد والمصائب فنصب عليه من كل جانب لا سيما وقد انتصب لمخالفة الخلق ومحاربة الشيطان ومعاداة النفس فكم من غصة يتجرعها وكم من شدة تستقبله وكم من هم وحزن يعترضه وكم من مصيبة تتلقاه والرابع أنواع القضاء من الله سبحانه وتعالى بالحلو والمر ترد عليه حالا فحالا والنفس تسارع الى السخط وتبادر الى الفتنة فاستقبلته ههنا (عقبة العوارض الاربعة) فاحتاج الى قطعها بأربعة أشياء التوكل على الله سبحانه وتعالى في موضع الرزق والتفويض اليه جل وعز في موضع الخطر والصبر عند نزول الشدائد والرضا عند نزول القضاء فأخذ في قطع هذه العقبة باذن الله تعالى وحسن تأييده فلما فرغ من قطعها وعاد الى قصد العبادة نظر فاذا النفس فاترة ضعيفة كسلى لا تنشط ولا تنبعث لخير كما يحق وينبغي وانما ميلها أبدا الى غفلة ودعة وراحة وبطالة بل الى شر وفضول وبلية وجهالة فاحتاج معها ههنا الى سائق يسوقها الى الخير والطاعة وينشطها له وزاجر يزجرها عن الشر والمعصية ويفترها عنه وهما الرجاء والخوف فالرجاء في عظيم ثواب الله سبحانه وحسن ما وعد من أنواع الكرامة وتذكر ذلك سائق يسوقها فيبعثها على الطاعة ويحركها لذلك وينشطها والخوف من أليم عقاب الله عز وجل وصعوبة ما أوعد من أنواع العقوبة والاهانة زاجر يزجرها عن المعصية ويجنبها ويفترها عن ذلك (فهذه عقبة البواعث) استقبلته ههنا فاحتاج الى قطعها بهذين المذكورين فاخذ فيها بحسن توفيق الله عز وجل فقطعها فلما فرغ منها رجع الى الاقبال على العبادة فلم يرعاقها ولا شاغلا ووجدها عنادا وداعيا فنشط في العبادة فأقامها وعاقها بتمام الشوق والرغبة فأدامها فنظر فاذا الله تعالى قد ولهذه العبادة العظيمة التي احتفل فيها كل ذلك آفتان عظيمتان وهما الرياء والعجب تارة يراقي بطاعته الناس فيفسدها وأخرى يمنع عن ذلك ويلوم نفسه فيعجب بنفسه فيحبط العبادة عليه ويثقلها وينغصها فاستقبلته ههنا (عقبة القوادح) فاحتاج الى قطعها بالاخلاص وذكر المنة وشهود البسملة فما يعمل من خير فأخذ في قطع هذه العقبة باذن الله سبحانه وتعالى بجد واحتياط ويقظ يحسن عصمة الجبار تعالى وتأييده فلما فرغ من هذه كلها حصلت له العبادة كما يحق وينبغي وسلمت من كل آفة ولكنه نظر فاذا هو غريق في بحور من الله تعالى وأياديه من كثرة ما أنعم الله عليه من امداد التوفيق والعصمة وأنواع التأييد والحراسة والكرامة وخاف أن يكون منه اغفال للشكر فيقع في الكفران فيحط من تلك المرتبة الرفيعة التي هي مرتبة الخدم الخالصين لله عز وجل وتزول عنه تلك النعم الكريمة من ضروب ألطاف الله تعالى وحسن نظره اليه فاستقبلته ههنا (عقبة الحمد والشكر) فأخذ فيها فقطعها بما أمكنه من كثرة الحمد والشكر على كثير نعمه فلما فرغ من قطع هذه العقبة ونزل فاذا هو بمقصوده ومبتغاه بين يديه فلم يسر الا قليلا حتى وقع في سهل الفضل وصحراء الشوق وعرصات المحبة ثم يقع في رياض الرضوان وبساتين الانس الى بساط الانبساط ومرتبة التقريب ومجلس المناجاة ونيل المطلع والكرامات فهو يتنعم في هذه الحالات ويتقلب في طيبها أيام بقائه وبقية عمره يشخص في الدنيا وقلبه في العقبى ينتظر البريد يوما فيوما حتى يحل

أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وكان صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع وعن قوله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم قالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه فالله يا مسكين أن تذعن لتزويره فيدلك بجميل غروره فويل للجاهل حيث لم يتعلم مرة واحدة وويل للعالم حيث لم يعمل بما علم ألف مرة واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال رجل طلب العلم ليخذه زادا الى المعاد ولم يقصد به الا وجه الله والدار الآخرة فهذا من الفائزين ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة وشاربه الغر

والجاه والمال وهو عالم بذلك مستشعر في قلبه وكاكة حاله وخسة مقصده فهذا من المخاطرين فان عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة وبقي أمره في خطر المشيئة وان وفق للتوبة قبل حلول الاجل وأضاف الى العلم العمل وتدارك ما فرط فيه من اخلال التحقق بالفائزين فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان فاتخذ علمه ذريعة الى التكاثر بالمال والتفاخر بالجاه والتعزز بكثرة الاتباع يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضي من الدنيا وطره وهو مع ذلك يضمر في نفسه انه عند الله بمكان لاتساعه بسمة العلم وترسمه برسومهم في الزي والتنطق مع تكالبه على الدنيا ظاهرا وباطنا فهذا من الهالكين ومن الحمقى المغرورين اذ الرجاء

خلق كلهم ويستقذر الدنيا ويحن الى الموت ويشتاق الى الملأ الأعلى فاذا هو برسل رب العالمين اليه يردون عليه بالروح والريحان والبشرى والرضوان من عند رب راض غير غضبان فينقلونه في طيبة النفس وقيام البشر والانس من هذه الدار الفانية المفتنة الى الحضرة الالهية ومستقر رياض الجنة فيرى لنفسه الضعيفة الفقيرة نعيما مقيما وملكا كبيرا عظيما ويلقى هنالك من سيده الرحيم المتفضل الكريم جل ذكره من اللطف به والعطف والترحيب والتقريب والانعام والاكرام ما لا يحيط به وصف الواصفين ونعت الناعتين فهو كل يوم في زيادة الى أبد الآبدين فيالها من سعادة عظيمة ويالها من دولة عالية ويالله من عبد مسعود وامرئ مغبوط وشأن محمود وطوبى له وحسن مآب نسأل الله البر الرحيم سبحانه وتعالى أن يمن علينا وعليكم بهذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة وما ذلك على الله بعزيز وأن لا يجعلنا من الذين لا نصيب لهم من هذا الامر الا وصف وسماع وعلم وتمن بلا انتفاع وأن لا يجعل ما تعلمناه من العلم حجة علينا يوم القيامة وأن يوفقنا جميعا للعمل بذلك والقيام به كما يحب ويرضى انه أرحم الراحمين وأكرم الاكرمين وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم وشرف وكرم (فهذا) هو الترتيب الذي ألهمني مولاي في طريق العبادة (فاعلم الآن) بتوفيق الله أن الحاصل من الجملة سبع عقبات الاولى عقبة العلم الثانية عقبة التوبة الثالثة عقبة العوائق الرابعة عقبة العوارض الخامسة عقبة البواعث السادسة عقبة القوادح السابعة عقبة الجد والشكر وبتمامها يتم كتاب منهاج العابدين الى الجنة ونحن الآن نتبع هذه العقبات بشرح موجز اللفظ مشتمل على النكت المقصودة من هذا الشان كل منها في باب مفرد ان شاء الله عز وجل والله سبحانه ولي التوفيق والتسديد منه ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(العقبة الاولى وهي عقبة العلم)

(فأقول) وبالله التوفيق يا طالب الخلاص والعبادة عليك أولا وفقك الله بالعلم فانه القطب وعليه المدار واعلم أن العلم والعبادة جوهران لا جلهما كان كل ما ترى وتسمع من تصنيف المصنفين وتعليم المعلمين ووعظ الواعظين ونظر الناظرين بل لاجلهما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل بل لاجلهما خلقت السموات والارض وما فيهن من الخلق وتأمل آيتين في كتاب الله عز وجل احداهما قوله جل ذكره الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العلم لاسيما علم التوحيد والآية الثانية قوله جل من قائل وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العبادة ولزوم الاقبال عليها فأعظم بأمرين هما المقصود من خلق الدارين حقق للعبد أن لا يشتغل الا بهما ولا يتعب الا لهما ولا ينظر الا فيهما واعلم أن ما سواهما من الامور باطل لا خير فيه ولغو لا حاصل له فاذا علمت ذلك فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين وأفضلهما ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمتي وقال صلى الله عليه وسلم نظرة الى العالم أحب الى من عبادة سنة صيامها وقيامها وقال صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال هم علماء أمتي فبان لك أن العلم أشرف جوهرا من العبادة

ولكن لابد للعبد من العبادة مع العلم والا كان علمه هباء منثورا فان العلم بمنزلة الشجرة والعبادة بمنزلة ثمرة من ثمراتها فالشرف للشجرة اذ هي الاصل لكن الانتفاع انما يحصل بثمرتها فاذا لابد للعبد من أن يكون له من كلا الامرين حظ ونصيب ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله اطلبوا هذا العلم طلبا لا يضر بالعبادة واطلبوا هذه العبادة طلبا لا يضر بالعلم ولما استقر أنه لابد للعبد منهما جميعا فالعلم أولى بالتقديم لامحالة لانه الاصل والدليل ولذلك قال صلى الله عليه وسلم العلم امام العمل والعمل تابعه وانما صار العلم أصلا متبوعا يلزمك تقديمه على العبادة لامرين أحدهما لتحصل لك العبادة وتسلم فانك أولا يجب عليك أن تعرف المعبود ثم تعبده وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته وما يجب له وما يستحيل في نعته فربما تعتقد فيه وفي صفاته شيأ والعياذ بالله مما يخالف الحق فتكون عبادتك هباء منثورا وقد شرحنا ما في ذلك من الخطر العظيم في بيان معنى سوء الخاتمة من كتاب الخوف من جملة كتب احياء علوم الدين ثم يجب عليك أن تعلم ما يلزمك فعله من الواجبات الشرعية على ما أمرت به لتفعل ذلك وما يلزمك تركه من المناهي لتترك ذلك والا فكيف تقوم بطاعات لا تعرفها ما هي وكيف هي وكيف يجب أن تفعل ام كيف تجتنب معاصي لا تعلم أنها معاص حتى لا توقع نفسك فيها فالعبادات الشرعية كالطهارة والصلاة والصوم وغيرها يجب أن تعلمها بأحكامها وشرائطها حتى تقيمها فربما أنت مقيم على شئ سنين وأزمانا مما يفسد عليك طهارتك وصلواتك ويخرجهما عن كونهما واقعتين على وفاق السنة وأنت لا تشعر بذلك وربما يعترض للشخص ولا تجد من تسأله عن ذلك وأنت ما تعلمته ثم مدار هذا الشان أيضا على العبادات الباطنة التي هي مساعي القلب يجب أن تعلمها من التوكل والتفويض والرضا والصبر والنية والاخلاص وغير ذلك مما سيأتي ذكره ان شاء الله تعالى ويجب أن تعلم مناهيها التي هي اضدادها هذه الامور كالسخط والامل والرياء والكبر لتجتنب ذلك فان هذه فرائض ونص الله تعالى على الامر بها والنهي عن اضدادها في كتابه العزيز وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون واصبروا وما صبرك الا بالله وقوله وتبتل اليه تبتيلا أي اخلص اليه اخلاصا ونحو ذلك من الآيات كما نص على الامر بالصلاة والصوم فمالك أقبلت على الصلاة والصوم وتركت هذه الفرائض والامر بها من رب واحد في كتاب واحد بل غفلت عنها فلا تعرف شيأ منها أفتوى من أصبح بعاجل حظه مشغوفا حتى صيره المعروف منكرا والمنكر معروفا ومن أهمل العلوم التي سماها الله في كتابه نورا وحكمة وهدى وأقبل على ما به يكتسب الحرام ويكون مصيدة للطعام اما تخاف أيها المسترشد أن تكون مضيعا لشئ من هذه الواجبات بل لاكثرها وتشتغل بصلاة التطوع وصوم النفل فتكون في لا شئ وربما أنت مصر على معصية من هذه المعاصي التي تستوجب بها النار وتترك مباطن طعام أو شراب أو نوم تبتغي به قربة الى الله عز وجل فتكون في لا شئ وأشد من ذلك كله أنك تكون في أسر الامل والامل معصية محضة فتظنه نية خير بل هو الفرق بينهما وتشاركهما في بعض الوجوه وكذلك تكون في جزع وسخط فتظنه تضرعا وابتهالا الى الله عز وجل وتكون في رياء محض وتحسبه حمد الله سبحانه وتعالى أو دعوة للناس الى غير فتأخذ تعد على الله سبحانه المعاصي بالطاعات

منقطع عن توبته لظنه انه من المحسنين وهو غافل عن قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون وهو ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فقيل وما هو يا رسول الله فقال علماء السوء وهذا لان الدجال غايته الاضلال ومثل هذا العالم وان صرف الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله فهو داع لهم اليها بأعماله وأحواله ولسان الحال أفصح من لسان المقال وطباع الناس الى المشاهدة في الاعمال أميل منها الى المتابعة في الاقوال فما أفسده هذا الغرور وبأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله اذ لا يستجري الجاهل على الرغبة في الدنيا الا باستجراء العالم فقد صار عالم سببا لجرأة عباد الله على معاصيه وذلك العالم مدلة مع ذلك

وتحتسب الثواب العظيم فى مواضع العقوبات فتكون فى غرور عظيم وغفلة قبيحة فهذه والله مصيبة قاطعة للعاملين من غير علم ثم مع ذلك كله فان الاعمال الظاهرة علائق من المساعى الباطنة تصلحها وتفسدها كالاخلاص والرياء والعجب وذكر المنة وغيره فمن لم يعرف هذه المساعى الباطنة ووجوه تأثيرها فى العبادات الظاهرة وكيفية الاحتراس منها وحفظ العمل عنها فقلما يسلم له عمل الظاهر أيضا فتفوته طاعات الظاهر والباطن ولا يبقى بيده الا الشقاء والكدر وهذا هو الخسران المبين ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفة العلم ان نوما على علم خير من صلاة على جهل فان العامل بغير علم يفسد أكثر مما يصلح وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العلم انه يلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء والمعنى والعلم عند الله سبحانه أن احدى شقوتيه ان لا يتعلم العلم ثم يشقى ويتعب فى العبادة على خبط فما يكون له من ذلك الا العناء والعياذ بالله من علم وعمل لا ينفع ولهذا عظمت عناية العلماء الزهاد العاملين رضى الله عنهم بالعلم خاصة من بين سائر الناس فان مدار أمر العبودية وملاك العبادة والخدمة لله رب العالمين على العلم وهكذا يكون نظر أولى الابصار وأهل التأييد والتوفيق فاذا تبين لك بهذه الجملة أن الطاعة لا تحصل للعبد ولا تسلم له الا بالعلم فيلزم اذا تقديمه فى شأن العبادة (وأما الخصلة الثانية) التى توجب تقديم العلم فهى أن العلم النافع يثمر خشية الله تعالى ومهابته قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وذلك ان من لم يعرفه حق معرفته لم يهبه حق مهابته ولم يعظمه حق تعظيمه ومن هنا فبالعلم يعرفه ويعظمه ويهابه فصار العلم يثمر الطاعات كلها ويحجز عن المعصية كلها بتوفيق الله وليس وراء هذين مقصد للعبد فى عبادة الله سبحانه وتعالى فعليك بالعلم أرشدك الله يا سالك طريق الآخرة أول كل شئ والله ولى التوفيق بفضله ورحمته واعلم أن تفول قد ورد الخبر عن صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه انه قال طلب العلم فريضة على كل مسلم فالعلم الذى طلبه فرض لازم وما الحد الذى لابد للعبد من تحصيله فى أمر العبادة (فاعلم) أن العلوم التى طلبها فرض فى الجملة ثلاثة علم التوحيد وعلم السر أعنى به ما يتعلق بالقلب ومساعيه وعلم الشريعة (وأما) حد ما يجب من كل واحد منها فالذى يتعين فرضه من علم التوحيد مقدار ما تعرف به أصول الدين وهو أن تلك الهاء عالما قادرا مريدا حيا متكلما سميعا بصيرا واحدا لا شريك له متصفا بصفات الكمال منزها عن النقصان والزوال ودلالات الحدوث منفردا بالقدم عن كل محدث وأن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله الصادق فيما بلغه عن الله تعالى وتقدس وفيما ورد على لسانه من أمور الآخرة (ثم مسائل) فى شعائر السنة يجب معرفتها وبالجملة أن تبتدع فى دين الله سبحانه وتعالى ما لم يأت به كتاب ولا أثر فتكون مع الله سبحانه على أعظم خطر وجميع أدلة التوحيد موجود أصلها فى كتاب الله سبحانه وقد ذكرها نبيه وخيار رضى الله عنهم فى كتبهم التى صنفوها فى أصول الديانات وعلى الجملة كل ما لا تأمن الهلاك فى جهله فطلب علمه فرض لا يسوغ تركه فهذه هذه وبالله التوفيق (وأما الذى) يتعين فرضه من علم السر فمعرفة مراجعه ومشاهده حتى يحصل لك تعظيم الله تعالى والاخلاص له والنية وسلامة العمل وجميع ذلك يأتى فى كتابنا هذا ان شاء الله عز وجل (وأما) ما يتعين من علم الشريعة فكل ما يتعين عليك فرض فعله وجب عليك معرفته لتؤديه كالطهارة والصلاة والصوم وأما الحج والزكاة والجهاد

تمنه وترجيه وتدعوه الى أن يمن على الله بعمله وتخيل اليه نفسه انه خير من كثير من عباد الله فكن ايها الطالب من الفريق الاول واحذر أن تكون من الفريق الثانى فكم من مسوق عاجلا الاجل قبل التوبة فخسروا بالك ثم ايالك أن تكون من الفريق الثالث فهلاك هلاكا لا يرجى معه فلاحك ولا ينتظر صلاحك فان قلت فما بداية الهداية لأجرب بها نفسى فاعلم أن بدايتها ظاهرة التقوى وغايتها باطنة التقوى فلا عاقبة الا بالتقوى ولا هداية الا للمتقين والتقوى عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه فهما قسمان وها أنا أشير عليك بجملة مختصرة من ظاهر علم التقوى فى القسمين جميعا

فان تعين عليك فرضه وجب عليك علمه لتؤديه والا فلا فهذا احد ما يلزم العبد تحصيله من العلم لاستحالة تعين فرضه بحيث لا بدلك من ذلك (فان قلت) فهل يفترض على أن أتعلم من علم التوحيد ما أنقض به جميع ملل الكفر وألزمهم بحجة الاسلام وانقض به جميع البدع وألزمهم بحجة السنة (فاعلم) أن هذا فرض على الكفاية وانما يتعين عليك ما تصحح به اعتقادك في أصول الدين لا غير وكذلك لا يتعين عليك معرفة فروع علم التوحيد ودقائقه والاتيان على جميع مسائله (نعم) ان وردت عليك شبهة في أصول الدين تخاف أن تقدح في اعتقادك فيتعين عليك حل تلك الشبهة بما أمكن من الكلام المقنع وايا ك والمماراة والمجادلة فانها داء محض لا دواء له فاحترز منه جهدك فان من ارتد اما لم يفلح الا أن يتعمده الله تعالى برحمته ولطفه (ثم اعلم) أنه اذا كان في كل قطر داع من دعاة أهل السنة يحل الشبه ويرد على أهل البدع ويستقل بهذا العلم ويصفي قلوب أهل الحق عن وساوس المبتدعة فقد سقط الفرض عمن سواه وكذلك لا يلزمك من معرفة دقائق علم السر وجميع شرح عجائب القلب الا ما يفسد عليك عبادتك فيجب عليك معرفته لتجتنبه وما يلزمك فعله كالاخلاص والحمد والشكر والتوكل ونحو ذلك فيلزمك معرفته لتؤديه (وأما) ما سواه فلا وكذلك لا يلزمك معرفة سائر أبواب الفقه من البيوع والاجارات والنكاح والطلاق والجنايات انما كل ذلك فرض على الكفاية (فان قلت) هذا القدر من علم التوحيد هل يحصل بنظر الانسان من غير معلم (فاعلم) أن الاستاذ فاتح ومسهل والتحصيل معه أسهل وأروح والله تعالى يفضل ويمن على من يشاء من عباده فيكون هو معلمهم سبحانه وتعالى (ثم اعلم) ان هذه العقبة التي هي عقبة العلم عقبة كؤود ولكن بها ينال المطلوب والمقصود نفعها كثير وقطعها شديد وخطرها عظيم كم من عدل عنها فضل وكم من سلكها فزل وكم من نائه فيها تحير وكم من حسير منقطع وكم من سالك قطعها في مدة يسيرة وآخر متردد فيها سبعين سنة والامر كله بيد الله عز وجل أما نفعه فعلى ما ذكرنا من شدة الحاجة للعبد اليه وبناء أمر العبادة كله عليه لا سيما علم التوحيد وعلم السر (فلقد روى) أن الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام فقال يا داود تعلم العلم النافع فقال الهي وما العلم النافع فقال أن تعرف جلالي وعظمتي وكبريائي وكمال قدرتي على كل شيء فان هذا الذي يقربك الي (وعن علي كرم الله وجهه) أنه قال ما يسرني ان لومت طفلا وأدخلت الجنة ولم أكبر فأعرف ربي فان أعلم الناس بالله أشدهم خشية وأكثرهم عبادة وأحسنهم في الله سبحانه وتعالى نصيحة (وأما) شدتها فابذل نفسك في الاخلاص في طلب العلم وليكن الطلب طلب دراية لا طلب رواية (واعلم) ان الخطر عظيم فمن طلب العلم ليصرف به وجوه الناس اليه ويحالس به الامراء ويباهي به النظراء ويتصيد به الحطام فتجارته بائرة وصفقته خاسرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب العلم ليفاخر العلماء أو ليماري به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس اليه أدخله الله النار (قال) أبو يزيد البسطامي رحمه الله عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد علي من العلم وخطره وايا ك ان يزين لك الشيطان فيقول لك اذا كان قد ورد هذا الخطر العظيم في العلم فتركه أولى فلا تظنن ذلك (فلقد روى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اطلعت ليلة المعراج على النار فرأيت أكثر أهلها الفقراء فقالوا يا رسول الله من المال قال لا بل من العلم فمن لا يتعلم العلم لا يتأتى له احكام العبادات والقيام بحقوقها كما

(القسم الاول في الطاعات)

اعلم ان أوامر الله تعالى فرائض ونوافل فالفرض رأس المال وهو أصل التجارة وبه تحصل النجاة والنفل هو الربح وبه الفوز في الدرجات قال صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى ما تقرب الي المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ولا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه فصل أيها الطالب الى القيام بأوامر الله تعالى الا بمراقبة قلبك وجوارحك في لحظاتك وأنفاسك من حين تصبح الى حين تمسي فاعلم أن الله تعالى مطلع على ضميرك ومنصرف على ظاهرك وباطنك ومحيط بجميع

ينبغي ولو ان رجلا عبد الله سبحانه عبادة ملائكة السموات بغير علم كان من الخاسرين فشمر في طلب العلم بالبحث والتلقين والتدريس واجتنب الكسل والملال والافات في خطر الضلال والعياذ بالله عز وجل (ثم جملة الامر) أنك اذا نظرت في دلائل صنع الله عز وجل وأمعنت النظر علمت أن لك ولنا الها قادرا عالما حيا مريدا سميعا بصيرا متكلما منزها عن حدوث الكلام والعلم والارادة مقدسا عن كل نقص وآفة لا يوصف بصفات المحدثين ولا يجوز عليه ما يجوز على المخلوقين ولا يشبه شيأ من خلقه ولا يشبهه شئ ولا تتضمنه الاماكن والجهات ولا تحله الحوادث والآفات (ونظرت) في معجزات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وآياته وأعلام نبوته علمت أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمينه على وحيه وما كان السلف الصالح يعتقدونه من أن الله تعالى يرى في الآخرة وأنه موجود وليس في جهة محدودة وأن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق وليس بحروف مقطعة ولا أصوات اذ لو كان كذلك لكان من جملة المخلوقات وأنه لا يكون في الملك والملكوت قلة خاطر ولا فلتة ناظر الا بقضاء الله تعالى وقدره وارادته ومشيئته فيه الخير والشر والنفع والضر والايمان والكفر وأنه لا واجب على الله تعالى لاحد من خلقه فان أثابه فبفضله ومن عاقبه فبعدله وما ورد على لسان صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه من أمور الآخرة كالحشر والنشر وعذاب القبر وسؤال منكر ونكير والميزان والصراط فهذه أصول ديع السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين على اعتقادها والتمسك بها ووقع عليها الاجماع قبل تنوع البدع وظهور الاهواء نعوذ بالله من الابتداع في الدين واتباع الهوى بغير دليل (ثم نظرت) في أعمال القلب والجوارح الباطنة والمناهي التي تأتي في هذا الكتاب ليحصل لك علمه ثم تعرف جملة ما تحتاج الى استعماله كالطهارة والصلاة والصوم ونحوه (فاذا قد أديت) فرض الله تعالى عليك الذي تعبدك به في باب العلم وقد صرت من علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم الراسخين في العلم فان عملت بعلمك وأقبلت على عمارة معادك كنت عبدا عالما عاملا لله تعالى على بصيرة غير جاهل ولا مقلد ولا غافل فلك الشرف العظيم ولعلمك القيمة الكبيرة والثواب الجزيل وكنت قد قطعت هذه العقبة وخلفتها وراءك وقضيت حقها باذن الله تعالى والله سبحانه مسؤل أن يعمدك وايانا بحسن توفيقه وتيسيره انه أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(العقبة الثانية وهي عقبة التوبة)

(ثم عليك) يا طالب العبادة وفقك الله بالتوبة وذلك لامرين (أحدهما) ليحصل لك توفيق الطاعة فان ثوب الذنوب يورث الحرمان ويعقب الخذلان وان قيد الذنوب يمنع عن المشي الى طاعة الله عز وجل والمسارعة الى خدمته لان ثقل الذنوب يمنع من الخفة للخيرات والنشاط في الطاعات وان الاصرار على الذنوب مما يسود القلوب فتجدها في ظلمة وقساوة لا خلوص فيها ولا صفاوة ولا لذة ولا حلاوة وان لم يرحم الله فستجرها صاحبها الى الكفر والشقاوة فيا عجبا كيف يوفق للطاعة من هو في شؤم وقسوة وكيف يدعى الى الخدمة من هو مصر على المعصية ومقيم على الجفوة وكيف يقرب للمناجاة من هو متلطخ بالاقذار والنجاسات فني الخبر عن الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا كذب العبد تنحى عنه الملكان من نتن ما يخرج من فيه فكيف

لحظاتك وخطراتك وخطواتك وسائر سكناتك وحركاتك وانك في مخالفتك وخلواتك متردد بين يديه فلا يسكن في الملك والملكوت ساكن ولا يتحرك متحرك الا وجبار السموات والارض مطلع عليه يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ويعلم السر وأخفى فتأدب أيها المسكين ظاهرا وباطنا بين يدي الله تعالى تأدب العبد الذليل المذنب في حضرة الملك الجبار القهار واجتهد أن لا يراك مولاك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ولن تقدر على ذلك الا بأن توزع أوقاتك وترتب أورادك من صباحك الى مساءك فاصغ الى ما يلقى اليك من أوامر الله تعالى عليك من حين تستيقظ من منامك الى وقت رجوعك الى مضجعك

يصلح هذا اللسان لذكر الله عز وجل فلا جرم لا يكاد يجد المصر على العصيان توفيقا ولا تخف اركانه لعبادة الله تعالى فان اتفق فيكد لا حلاوة معه ولا صفوة وكل ذلك لشؤم الذنوب وترك التوبة (واعلم) صدق من قال اذا لم تقو على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك مكبول قد كبلتك خطيئتك فهذه هذه (والثاني) من الامرين انما تلزمك التوبة لتقبل منك عبادتك فان رب الدين لا يقبل الهدية وذلك أن التوبة عن المعاصي وارضاء الخصوم فرض لازم وعامة العبادة التي تقصدها نفل فكيف يقبل منك تبرعك والدين عليك حال لم تقضه وكيف تترك لاجله الحلال والمباح وأنت مصر على فعل المحظور والحرام وكيف تناجيه وتدعوه وتثني عليه وهو والعياذ بالله عليك غضبان فهذا ظاهر حال العصاة المصرين على المعصية والله المستعان (فان قلت) فما معنى التوبة النصوح وما حدها وما ينبغي للعبد أن يفعله حتى يخرج من الذنوب كلها (فأقول) أما التوبة فانها هي من مساوئ القلب وهي عند التحصيل في قول العلماء رضي الله عنهم تنزيه القلب عن الذنب (قال شيخنا رحمه الله) في حد التوبة انه ترك اختيار ذنب سبق مثله عنه منزلة لا صورة تعظيما لله تعالى وحذرا من سخطه فلها اذن أربعة شرائط (احداها) ترك اختيار الذنب وهو ان يوطن قلبه ويجرد عزمه على انه لا يعود الى الذنب البتة فأما ان ترك الذنب وفي نفسه انه ربما يعود اليه أو لا يعزم على ذلك بل يتردد فانه ربما يقع له العود فانه ممتنع عن الذنب غير تائب منه (والثانية) أن يتوب من ذنب قد سبق عنه مثله اذ لو لم يسبق عنه مثله لكان مقيما غير تائب ألا ترى انه يصح القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان متقيا عن الكفر ولا يصح القول بانه كان تائبا عن الكفر اذ لم يسبق عنه كفر بحال وأن عمر بن الخطاب رضي عنه كان تائبا عن الكفر لما سبق عنه ذلك (والثالثة) أن الذي سبق عنه يكون مثل الذي يترك اختياره في المنزلة والدرجة لا في الصورة الا ترى أن الشيخ الهرم الفاني الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق اذا أراد ان يتوب عن ذلك تعكنه التوبة لاستحالة اذ لم يغلق عنه بابها ولا يمكنه ترك اختيار الزنا وقطع الطريق اذ هو لا يقدر الساعة على فعل ذلك فلا يقدر على ترك اختياره فلا يصح وصفه بأنه تارك له ممتنع عنه وهو عاجز عنه غير ممكن منه لكنه يقدر على فعل ما هو مثل الزنا وقطع الطريق في المنزلة والدرجة كالكذب والقذف والغيبة والنميمة اذ جميع ذلك معاص وان كان الاثم يتفاوت في كل واحدة بقدرها لكن جميع هذه المعاصي الفرعية كلها بمنزلة واحدة وهي دون منزلة البدعة ومنزلة البدعة دون منزلة الكفر فلذلك تصح منه التوبة عن الزنا وقطع الطريق وسائر ما مضى من الذنوب التي هو عاجز عن امثالها اليوم في الصورة (والرابعة) أن يكون ترك اختياره لذلك تعظيما لله عز وجل وحذرا من سخطه وأليم عقابه مجردا لا لرغبة دنيوية أو رهبة من الناس أو طلب ثناء أو صيت أو جاه أو ضعف في النفس أو فقر أو غير ذلك فهذه شرائط التوبة وأركانها فاذا حصلت واستكملت فهي توبة حقيقية صادقة (وأما) مقدمات التوبة فثلاث (احداها) ذكر غائلة قبح الذنوب (والثانية) ذكر شدة عقوبة الله عز وجل وأليم سخطه وغضبه الذي لا طاقة للتائب به (والثالثة) ذكر ضعفك وقلة حيلتك في ذلك فان من لا يحتمل حر شمس ولا لطمة شرطي ولا قرص نملة كيف يحتمل حر نار جهنم وضرب مقامع الزبانية ولدغ حيات كاعناق البخت وعقارب كالبغال خلقت من النار في دار الغضب والبوار نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه وعذابه فاذا

(فصل في آداب الاستيقاظ من النوم)

فاذا استيقظت من النوم فاجتهد ان تستيقظ قبل طلوع الفجر وليكن أول ما يجري على قلبك ولسانك ذكر الله تعالى فقل عند ذلك الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله رب العالمين أصبحنا على فطرة الاسلام وعلى كلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين اللهم انا نسألك ان تبعثنا في هذا اليوم الى كل خير وأعوذ بك أن أجترح فيه سوأ أو أجره الى مسلم اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت واليك النشور نسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما فيه فاذا لبست ثيابك فانو به امتثال أوامر الله تعالى في ستر عورتك واحذر أن يكون قصدك من لباسك مراآة الخلق فتضر

واظبت على هذه الاذكار وعاودتها آناء الليل والنهار فانها تحملك على التوبة النصوح من الذنوب والله الموفق بفضله (فان قيل) اليس قد قال النبي صلى الله عليه وسلم الندم توبة ولم يذكر معه شيأ مما ذكرتم من شرائطها وشددتم شيأ يقال له اعلم أولا ان الندم غير مقدور للعبد ألا ترى أنه تقع المدامة عن أمور في قلبه وهو يريد أن لا يكون ذلك والتوبة مقدورة للعبد مأمور بها ثم انا قد علمنا أنه لو ندم على الذنوب لمذاهب بذلك جاهه بين الناس وماله في النفقة فيها فان ذلك لا يكون توبة بلا ريب فعلمت بذلك ان في الخبر معنى لم تفهمه من ظاهره وهو أن الندم لتعظيم الله سبحانه وخوف عقابه هما يبعث على التوبة النصوح فان ذلك من صفات التائبين وحالهم فانه اذا ذكر الاذكار الثلاثة التي هي مقدمات التوبة ندم وحملته الندامة على ترك اختيار الذنوب وتبقى ندامته في قلبه في المستقبل فتحمله على الابتهال والتضرع فلما كان ذلك من أسباب التوبة وصفات التائب سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم التوبة فافهم ذلك موفقا ان شاء الله تعالى (فان قلت) كيف يمكن الانسان ان يصير بحيث لا يقع منه ذنب البتة من صغير أو كبير كيف وأنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه الذين هم أشرف خلق الله سبحانه وتعالى قد اختلف فيهم أهل العلم هل نالوا هذه الدرجة أم لا (فاعلم) ان هذا أمر ممكن غير مستحيل ثم هو هين والله يختص برحمته من يشاء (ثم) من شرط التوبة أن لا يعود ذنبا فأما ان وقع منه بسهو أو خطا فهو معفو عنه بفضل الله تعالى وهذا هين على من وفقه الله تعالى (فان قلت) انما يمنعني من التوبة أني أعلم من نفسي أني أعود الى الذنب ولا اثبت على التوبة فلا فائدة في ذلك (فاعلم) ان هذا من غرور الشيطان ومن أين لك هذا العلم نعم أن تموت تائبا قبل ان تعود الى الذنب وأما الخوف من العود فعليك العزم والصدق في ذلك وعليه الاعتماد فان أتم ذلك المقصود من فضله وان لم يتم فقد غفرت ذنوبك السالفة كلها وتخاصمت منها وتطهرت وليس عليك الا هذا الذنب الذي أحدثته الآن وهذا هو الربح العظيم والفائدة العظيمة الكبيرة فلا يمنعك خوف العود عن التوبة فانك من التوبة أبدا بين احدى الحسنيين والله ولي التوفيق والهداية فهذه هذه (وأما) الخروج عن الذنوب والتخلص منها (فاعلم) ان الذنوب في الجملة ثلاثة أقسام (أحدها) ترك واجبات الله سبحانه وتعالى عليك من صلاة أو صوم أو زكاة أو كفارة أو غيرها فتقضي ما أمكنك منها (والثاني) ذنوب بينك وبين الله سبحانه وتعالى كشرب الخمر وضرب المزامير وأكل الربا ونحو ذلك فتندم على ذلك وتوطن قلبك على ترك العود الى مثلها أبدا (والثالث) ذنوب بينك وبين العباد وهذا أشكل وأصعب وهي أقسام قد تكون في المال وفي النفس وفي العرض وفي الحرمة وفي الدين (فما كان في المال) فيجب عليك أن ترده عليه ان امكنك فان عجزت عن ذلك لعدم وفقر فتستحل منه فان عجزت عن ذلك لغيبة الرجل أو موته وأمكن التصدق عنه فافعل وان لم يمكن فعليك بتكثير حسناتك والرجوع الى الله بالتضرع والابتهال ان يرضيه عنك يوم القيامة (واما ما كان في النفس) فتمكنه من القصاص أو أولياءه حتى يقتص منك أو يجعلك في حل فان عجزت فالرجوع الى الله سبحانه والابتهال اليه أن يرضيه عنك يوم القيامة (واما في العرض) فان اغتبته أو بهته أو شتمته فحقك أن تكذب نفسك بين يدي من قلت ذلك عنده وأن تستحل من صاحبه ان أمكنك هذا الا لمحض زيادة غيظ أو هيج فتنة في اظهار

(باب آداب دخول الخلاء)
فاذا قصدت بيت الماء لقضاء الحاجة تقدم في الدخول رجلك اليسرى وفي الخروج رجلك اليمنى ولا تستصحب شيأ عليه اسم الله تعالى ورسوله ولا تدخل خاتم الرأس ولا خاتما في القدمين وقل عند الدخول بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث الخبث الشيطان الرجيم وعند الخروج غفرانك الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني وينبغي أن تعد النعل قبل قضاء الحاجة وأن لا تستنجي بالماء في موضع قضاء الحاجة وان تستبرئ من البول بالتنحنح والنتر ثلاثا وبامرار اليد اليسرى على أسفل القضيب وان كنت في الصحراء فابعد عن عيون

ذلك أو يجدد توبة فان خشيت ذلك فالرجوع الى الله سبحانه وتعالى ليرضيه عنك ويجعل له خير كثيرا في مقابلته والاستغفار الكثير لصاحبه (واما الحرمة) بان خنته في أهله أو ولده أو نحوه فلا وجه للاستحلال والاظهار لانه يولد فتنة وغيظا بل تتضرع الى الله سبحانه ليرضيه عنك ويجعل له خيرا كثيرا في مقابلته فان أمنت الفتنة والهيج وهو نادر فتستحل منه (وأما في الدين) بأن كفرته او بدعته أو ضللته فهو أصعب الامور فتحتاج الى تكذيب نفسك بين يدي من قلت له ذلك وأن تستحل من صاحبك ان أمكنك والا فالابتهال الى الله تعالى بجد والتقدم على ذلك ليرضيه عنك (وجملة الامر) فما أمكنك من ارضاء الخصوم عملت وما لم يمكنك رجعت الى الله سبحانه وتعالى بالتضرع والابتهال والتصدق ليرضيه عنك فيكون ذلك في مشيئة الله سبحانه يوم القيامة والرجاء منه بفضله العظيم واحسانه العميم أنه اذا علم الصدق من قلب العبد فانه يرضي خصماءه من خزانة فضله ولا حكم فاعلم هذه حقها راشدا فهذه هذه (فاذا أنت) عملت ما وصفناه وبرأت القلب عن اختيار مثلها في المستقبل فقد خرجت من الذنوب كلها وان حصلت منك تبرئة القلب ولم يحصل منك قضاء الفوائت وارضاء الخصوم فالتبعات لازمة وسائر الذنوب مغفورة ولهذا الباب شرح يطول فلا يحتمله هذا المختصر وانظر كتاب التوبة من كتاب احياء علوم الدين أولا وكتاب القربة الى الله تعالى ثانيا وكتاب الغاية القصوى ثالثا تجد فوائد كثيرة وشرحا جما والذي ذكرناه ههنا هو الاصل الذي لا بد منه وبالله التوفيق

(فصل)

ثم اعلم يقينا أن هذه العقبة عقبة صعبة أمرها مهم وضررها عظيم (فلقد بلغنا) عن الاستاذ أبي اسحق الاسفرايني رحمه الله وكان من الراسخين في العلم العاملين به أنه قال دعوت الله سبحانه ثلاثين سنة أن يرزقني توبة نصوحا ثم تعجبت في نفسي فقلت سبحان الله حاجة دعوت الله فيها ثلاثين سنة فما قضيت الى الآن فرأيت في المنام كأن قائلا يقول لي أتعجب من ذلك أتدري ماذا تسأل الله انما تسأل الله سبحانه أن يحبك أما سمعت قوله جل جلاله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين أفهذه حاجة هينة فانظر الى هؤلاء الائمة واهتمامهم وعواظبتهم على صلاح قلوبهم والتزود لمعادهم (وأما) الضرر المخوف في تأخير التوبة فان أول الذنب قسوة وآخره والعياذ بالله شؤم وشقوة فاياك أن تنسى أمر ابليس وبلعم بن باعورا اذ كان مبدأ أمرهما ذنبا وآخره كفرا فهل لكما مع الهالكين أبدا لا بد من فعليك رحمك الله بالتيقظ والجهد عسى أن تقلع من قلبك عرق هذا الاصرار وتخلص رقبتك من هذه الاوزار ولا تأمن قساوة القلب من الذنوب وتامل حالك فلقد قال بعض الصالحين ان سواد القلب من الذنوب وعلامة سواد القلب أن لا تجد للذنوب مفزعا ولا للطاعة موقعا ولا للموعظة منجعا ولا تستحقر شيأ من الذنوب فتصب نفسك تائبا وأنت مصر على الكائر (فلقد بلغنا) عن كهمس بن الحسن أنه قال اذنبت ذنبا فأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة قيل ما هو يا أبا عبد الله قال زارني أخ لي في الله فاشتريت له سمكا فأكل ثم قمت الى سانية جاري فاخذت منه قطعة طين فغسل بها يده فنافس نفسك وحاسبها وسارع الى التوبة وبادر فان الاجل مكتوم والدنيا غرور والنفس والشيطان عدوان وتضرع الى الله سبحانه وابتهل اليه واذكر حال أبينا آدم صلى الله عليه وسلم الذي خلقه الله

الناظرين واستقر بشئ ان وجدته ولا تكشف عورتك قبل الانتهاء الى موضع الجلوس ولا تستقبل القبلة ولا الشمس ولا القمر ولا تستدبرهما ولا تبل في مجاري الناس ولا تبل في الماء الراكد وتحت الشجرة المثمرة ولا في الجحر واحذر الارض الصلبة وهب الريح احترازا من الرشاش لقوله صلى الله عليه وسلم ان عامة عذاب القبر منه واتكئ في جلوسك على الرجل اليسرى ولا تبل قائما الا عن ضرورة واجمع في الاستنجاء بين استعمال الحجر والماء فاذا أردت الاقتصار على أحدهما فالماء أفضل وان اقتصرت على الحجر فعليك ان تستعمل ثلاثة أحجار طاهرة منشفة للعين تمسح بها محل النجو بحيث لا تنتقل النجاسة عن موضعها وكذلك تمسح القضيب في ثلاثة مواضع من حجر فان لم يحصل الانقاء بثلاثة فثم خمسة أو سبعة الى أن ينقى بالايتار فالايتار مستحب والانقاء واجب

تعالى بيده ونفخ فيه من روحه وحمله الى جنته على أعناق الملائكة لم يذنب الا ذنبا واحدا فنزل به ما نزل حتى روى أن الله تعالى قال له يا آدم أي جار كنت لك قال نعم الجار يا رب قال يا آدم اخرج من جواري وضع عن رأسك تاج كرامتي فانه لا يجاورني من عصاني حتى انه فيما روى بكى على ذنبه مائتي سنة حتى قبل الله توبته وغفر ذنبه الواحد هذا حاله مع نبيه وصفيه في ذنب واحد فكيف حال الغير في ذنوب لا تحصى وهذا تضرع التائب وابتهاله فكيف بالمصر المتعنت ولقد أحسن من قال

يخاف على نفسه من يتوب * فكيف ترى حال من لا يتوب

فان تبت ثم نقضت التوبة وعدت الى الذنب ثانيا فعد الى التوبة مبادرا وقل لنفسك لعلي أموت قبل أن أعود الى الذنب هذه المرة وكذلك ثالثا ورابعا وكما اتخذت الذنب والعود اليه حرفة فاتخذ التوبة أيضا والعود اليها حرفة ولا تكن في التوبة أعجز منك في الذنب ولا تيأس ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك فانه دلالة الخير أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم خياركم كل مفتن توابون أي كثير الابتلاء بالذنب كثير التوبة منه والرجوع الى الله جل جلاله بالندامة والاستغفار وتذكر قوله سبحانه ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما فهذه هذه وبالله التوفيق

(فصل)

وجملة الامر أنك اذا ابتدأت فبرأت قلبك عن الذنوب كلها بأن توطنه على ان لا تعود الى الذنب ابدا البتة الا ما كان منك في علم الله على وجه علم الله سبحانه وتعالى صدق عزمك من قلب نقي وترضي الخصوم بما أمكنك وتقضي الفوائت بما تقدر عليه وترجع في البواقي الى الله سبحانه وتعالى بالابتهال والتضرع ليكفيك ذلك ثم تذهب فتغتسل وتغسل ثيابك وتصلي أربع ركعات كما يجب وتضع وجهك على الارض في مكان خال لا يراك الا الله سبحانه وتعالى ثم تجعل التراب على رأسك وتفرغ وجهك الذي هو أعز اعضائك في التراب بدمع جار وقلب حزين وصوت عال وتذكر ذنوبك واحدا واحدا ما أمكنك وتلوم نفسك العاصية عليها وتوبخها وتقول أما تستحين بالنفس أما آن لك أن تتوبي أللك طاقة بعذاب الله سبحانه الك حاجة بسخط الله سبحانه وتذكر من هذا كثيرا وتبكي ثم ترفع يديك الى الرب الرحيم سبحانه وتقول (الهي) عبدك الآبق رجع اليك بابك عبدك العاصي رجع الى الصلح عبدك المذنب أتاك بالعذر فاعف عني بجودك وتفضل بفضلك وانظر الي برحمتك اللهم اغفر لي ما سلف من الذنوب واعصمني فيما بقي من الاجل فان الخير كله بيدك وأنت بالرؤف رحيم ثم تدعو دعاء الشدة وهو يجلي عظائم الامور يا منتهى همة المهمومين يا من اذا أراد أمرا فانما يقول له كن فيكون أحاطت بنا ذنوبنا أنت المذخور لها يا مذخورا لكل شدة كنت أذخر لهذه الساعة فتب علي انك أنت التواب الرحيم ثم أكثر من البكاء والتذلل والتضرع وقل يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا يسمع سمع يا من لا تغلطه كثرة المسائل يا من لا يبرمه الحاح الملحين أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك برحمتك يا أرحم الراحمين انك على كل شئ قدير ثم تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله ثم تستغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات وترجع الى طاعة الله جل جلاله فتكون قد تبت توبة نصوحا وقد

ولا تستنج الا باليد اليسرى وقل عند الفراغ من الاستنجاء اللهم طهر قلبي من النفاق وحصن فرجي من الفواحش وادلك يدلك بعد تمام الاستنجاء بالارض أو بحائط ثم اغسلها

(آداب الوضوء)

فاذا فرغت من الاستنجاء فلا تترك السواك فانه مطهرة للفم ومرضاة للرب ومسخطة للشيطان وصلاة بسواك أفضل من سبعين صلاة بلا سواك وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن أشق على امتي لأمرتهم بالسواك في كل صلاة وعنه صلى الله عليه وسلم أمرت بالسواك حتى خشيت أن يكتب علي * ثم اجلس للوضوء مستقبل القبلة على موضع مرتفع كي لا يصيبك الرشاش وقل بسم الله الرحمن الرحيم رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ثم اغسل يديك ثلاثا قبل أن تدخلهما الاناء وقل اللهم اني أسألك اليمن والبركة

خرجت من الذنوب طاهرا كيوم ولدتك أمك وأحبك الله سبحانه ولك من الاجر والثواب وعليك من البركة والرحمة مالا يحيط به وصف الواصفين وحصل لك الامن والخلاص ونجوت من غضبه وغصة المعاصي وبليتها في الدنيا والآخرة وكنت قد قطعت هذه العقبة باذن الله سبحانه وتعالى والله ولي الهداية بمنه وفضله

(العقبة الثالثة وهي عقبة العوائق)

ثم عليك يا طالب العبادة وفقك الله تعالى بدفع العوائق حتى تستقيم عبادتك وقد ذكرنا أن العوائق أربعة (أحدها) الدنيا وما فيها ودفعها انما هو بالتجرد عنها والزهد فيها وانما لك هذا التجرد والزهد لامرين أحدهما لتستقيم لك العبادة وتكثر فان الرغبة في الدنيا تشغلك أما ظاهرك فبالطلب وأما باطنك فبالارادة وحديث النفس وكلاهما يمنع العبادة فان النفس واحدة والقلب واحد فاذا اشتغل بشئ انقطع عن ضده وان مثل الدنيا والآخرة كمثل الضرتين ان أرضيت احداهما أسخطت الاخرى وانهما كالمشرق والمغرب بقدر ما تقبل الى أحدهما أعرضت عن الآخر أما شغلها في الظاهر فقد روينا عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال زاولت أن أجمع بين العبادة والتجارة فلم يجتمعا فأقبلت على العبادة وتركت التجارة (وعن عمر رضي الله عنه) انه قال لو كنا نجتمعتين لاحد غيري لاجتمعتا لي لما أعطاني الله سبحانه من القوة واللين فاذا كان الحديث كذلك فأضر بالفانية واختر السلامة والسلام (وأما) شغلها بالقلب وهو الباطن لمكان الارادة (فما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم) أنه قال من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى فبان لك أنه اذا اشتغل ظاهرك بالدنيا وباطنك بارادتها فلا تتيسر لك العبادة حقها وأما اذا زهدت فيها فقد تفرغت بظاهرك وباطنك تتيسر لك العبادة بل تعاونك أعضاؤك عليها (ولقد روي) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه انه قال ان العبد اذا زهد في الدنيا استنار قلبه بالحكمة وتعاونت أعضاؤه في العبادة فهذه هذه (والثاني) من الامرين أنه يكثر قيمة عملك ويعظم قدره وشرفه فلقد قال صلى الله عليه وسلم ركعتان من رجل عالم زاهد قلبه خير وأحب الى الله جل جلاله من عبادة المتعبدين الى آخر الدهر ايا سرمدا فاذا كانت العبادة تشرف وتكثر بذلك فحق لمن طلب العبادة أن يزهد في الدنيا ويتجرد عنها (فان قلت) فما معنى الزهد في الدنيا وما حقيقة ذلك (فاعلم) أن الزهد عند علمائنا رحمهم الله زهدان زهد مقدور للعبد وزهد غير مقدور فالذي هو مقدور ثلاثة أشياء ترك طلب المفقود من الدنيا وتفريق المجموع منها وترك ارادتها واختيارها (وأما) الزهد الذي هو غير مقدور للعبد فهو برودة الشئ على قلب الزاهد (ثم) الزهد الذي هو مقدور للعبد مقدمات للزهد الذي هو غير مقدور للعبد فاذا أتى به العبد بأن لا يطلب ما ليس عنده من الدنيا ويفرق ما عنده منها ويترك بالقلب ارادتها واختيارها لاجل الله وعظيم ثوابه تذكر لآفاتها أورثته تلك برودة الدنيا على قلبه وهذا عندي هو الزهد الحقيقي (ثم اعلم) أن أصعب الامور الثلاثة انما هو ترك الارادة بالقلب اذ كم من تارك لها بظاهره محب مريد لها بباطنه فهو في مكابدة ومقاساة شديدة من نفسه والشان كله في هذا ألم تسمع الى قوله سبحانه عز من قائل تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا علق الحكم بنفي الارادة دون

وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ثم انو رفع الحدث واستباحة الصلاة ولا ينبغي ان تعزب نيتك قبل غسل الوجه فلا يصح وضوءك ثم خذ غرفة لفيك وتمضمض بها ثلاثا وبالغ في رد الماء الى الغلصمة الا أن تكون صائما فترفق وقل اللهم أعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة * ثم خذ غرفة لانفك واستنشق بها ثلاثا واستنثر ما في الانف من رطوبة وقل في الاستنشاق اللهم أرحني رائحة الجنة وأنت عني راض وفي الاستنثار اللهم اني أعوذ بك من روائح النار وسوء الدار ثم خذ غرفة لوجهك فاغسل بها من مبتدأ تسطيح الجبهة الى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول ومن الاذن الى الاذن في العرض وأوصل الماء الى موضع التحذيف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو ما بين رأس الاذن الى زاوية الجبين أعني ما يقع منه في جبهة الوجه وأوصل الماء الى منابت الشعور

الطلب والفعل المراد وقوله سبحانه من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب وقوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء وقوله ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها الآية أما ترى الاشارة كلها الى الارادة فأمرها هو المهم اذن لكن العبد اذا واظب واستقام على الاولين أعني التفريق والترك فأمول من فضل الله سبحانه أن يوفقه لدفع هذه الارادة والاختيار عن قلبه فانه المفضل الكريم عز وجل (ثم الذي يبعث على الترك والتفريق) وبهون عليك ذلك ذكر آفات الدنيا وعيوبها وقد أكثر الناس القول في ذلك فمنه قول بعضهم تركت الدنيا لقلة غنائها وكثرة عنائها وسرعة فنائها وخسة شركائها (قال شيخي الامام رحمه الله) لكن يجيء من هذه رائحة الزغبة الفائحة لان من شكا فراق أحد أحب وصاله ومن ترك شيأ لمكان الشر كان فيه أحب لو انقرد به فالقول البالغ فيه ما قاله شيخنا رحمه الله تعالى ان الدنيا عدو الله عز وجل وأنت محبه ومن أحب أحدا أبغض عدوه (قال) ولانها في أصلها وسخة جيفة الا ترى أن آخرها الى القذر والفساد والتلاشي والاضمحلال والنفاد لكنها جيفة صمخت بطيب وطويت بزينة فاغتر بظاهرها الغافلون وزهد فيها العاقلون (فان قيل) فما حكم الزهد في الدنيا أهو فرض أم نفل (فاعلم) أن الزهد يقع عندنا في الحلال والحرام فهو في الحرام فرض وفي الحلال نفل ثم منزلة هذا الحرام لمستقيمي الطاعات بمنزلة الميتة المستقذرة لا يقدم عليها الا عند الضرورة بمقدار دفع الضرر (وأما) الزهد في الحلال فانما يكون في منزلة الابدال يكون عندهم الحلال بمنزلة الميتة لا يتناولون منها الا قدر الا بد منه والحرام عندهم بمنزلة النار لا يخطر ببالهم قصدتناولها بحال وهذا معنى البرودة على القلب بأن يقطع همته عنها ويستقذرها ويستنكرها جدا فلا يبقى لها في قلبه اختيار ولا ارادة (فان قلت) كيف يمكن أن تصير الدنيا في شهواتها ولذاتها العجيبة المطلوبة عند انسان بمنزلة النار وبمنزلة الجيفة المستقذرة المستحيلة والبغية بغيتنا والطبع طبعنا (فاعلم) أن من وفق التوفيق الخاص وعلم آفاتها وقذرها في أصلها فتصير عنده كذلك وانما يتعجب من هذا الراغبون العميان عن عيوب الدنيا وآفاتها المغترون بظاهرها وزينتها وسأضرب لك مثلا لذلك (فاعلم) أن هذا يمثل بانسان صنع خبيصا بشرائطه من السكر وغيره ثم طرح فيه قطعة سم قاتل وأبصر ذلك رجل ولم يبصره آخر ووضع الخبيص بين أيديهما مزينا مزخرفا فالرجل الذي أبصر ما جعل فيه من السم يكون زاهدا في ذلك الخبيص لا يخطر بباله أن يتناول منه بحال البتة ويكون ذلك عنده بمنزلة النار بل أصعب لمكان ما يعلم من آفاته فلا يغتر بظاهره وزينته (وأما) الرجل الآخر الذي لم يبصر ما جعل فيه اغتر بظاهره المزخرف وحرص عليه ولم يصبر عنه وأخذ يتعجب من صاحبه الزاهد فيه وربما يسفهه في ذلك فهذا مثل حرام الدنيا مع البصراء المستقيمين والجهال الراغبين فان لم يطرح فيه السم ولكن بصق فيه أو امتخط ثم ضمخه وزينه فالرجل الذي شاهد منه ذلك الفعل يكون مستقذرا لذلك الخبيص نافرا عنه لا يكاد يقدم عليه الا عند الضرورة وشدة الحاجة اليه والذي لم يشاهد ذلك فهو جاهل بما فيه مغتر بظاهره حريص عليه مكب متعجب فهذا مثل حلال الدنيا مع الفريقين أهل البصيرة والاستقامة وأهل الرغبة والغفلة وانما اختلف حال الرجلين مع تساويهما في الطبع والبغية لبصارة وعلم كان لاحدهما وجهل وعمى كان للآخر فلو علم

الاربعة الحاجبين والشاربين والاهداب والعذارين وهما ما يواري الاذنين من مبتدا اللحية ويجب ايصال الماء الى منابت الشعر من اللحية الخفيفة دون الكثيفة وقل عند غسل الوجه اللهم بيض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي بظلمائك يوم تسود وجوه أعدائك ولا تترك تخليل اللحية الكثيفة ثم اغسل يدك اليمنى ثم اليسرى مع المرفقين الى انصاف العضدين فان الحلية في الجنة تبلغ مواضع الوضوء وقل عند غسل اليمنى اللهم أعطني كتابي بيميني وحاسبني حسابا يسيرا وعند غسل الشمال اللهم اني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري * ثم استوعب رأسك بالمسح بان تبل يديك وتلصق رؤس أصابع يديك اليمنى باليسرى وتضعهما على مقدمة الرأس وتمرهما الى القفا ثم تردهما الى المقدمة فهذه مرة تفعل ذلك ثلاث مرات وكذلك في سائر الاعضاء

الراغب وابصر ما عليه الزاهد لكان زاهدا مثله ولو جهل الزاهد وعمى عما عمى عنه الراغب لكان راغبا مثله فعلمت بذلك أن هذا التمييز لكان البصائر دون الطبائع وهذا أصل مفيد وكلام بين سديد اعترف به من عقل وأنصف والله تعالى ولي الهداية والتوفيق بفضله (فان قيل) فلابد للناس من قدر من الدنيا ليكون قواما للناس فكيف نزهد فيها (فاعلم) أن الزهد في الفضول مما لا يحتاج اليه في قوام البنية فالمقصود القوام والقوة حتى تعبد الله سبحانه لا الاكل والشرب والتلذذ والله تعالى ان شاء أقامها بشيء وبسبب وان شاء تعالى أقامها بغير سبب كالملائكة عليهم السلام ثم ان كان بشيء ان شاء فبشيء حاصل عندك أو بطلبك وكسبك وان شاء بشيء غيره يسيبه لك من حيث لا تحتسب من غير طلب منك وكسب كما قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب فاذا لا تحتاج بحال الى طلب وارادة فان لم تقو على ذلك الزهد وطلبت وأردت فانو بذلك العدة والتقوى على عبادة الله سبحانه وتعالى دون الشهوة واللذة فانك اذا نويت ذلك كان الطلب والارادة منك خيرا وطلبا للآخرة بالحقيقة لا للدنيا ولا يقدح في زهدك وتجردك فاعلم هذه الجملة واشهد والله الموفق * (العائق الثاني الخلق) * ثم عليك وفقك الله وايانا لطاعته بالتفرد عن الخلق وذلك لامرين (أحدهما) انهم يشغلونك عن عبادة الله عز وجل على ما حكي عن بعضهم انه قال مررت بجماعة يتراءون وواحد جالس بعيدا منهم فأردت ان أكلمه فقال ذكر الله أشهى الي من كلامك فقلت أنت وحدك فقال معي ربي وملكاي فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له فقلت أين الطريق فأشار بيده نحو السماء وقام وتركني وقال أكثر خلقك عنك شاغل فالخلق اذا يشغلونك عن العبادة بل يمنعونك منها بل يوقعونك في الشر والهلاك على ما قال حاتم الاصم رحمه الله طلبت من هذا الخلق خمسة أشياء فلم أجدها طلبت منهم الطاعة والزهادة فلم يفعلوا فقلت أعينوني عليها ان لم تفعلوا فلم يفعلوا فقلت ارضوا عني ان فعلت فلم يفعلوا فقلت لا تمنعوني عنها اذا فعلوني فقلت لا تدعوني الى ما لا يرضى الله العظيم ولا تعادوني عليه ان لم أتابعكم فلم يفعلوا فتركتهم واشتغلت بخاصة نفسي (واعلم) أيها الاخ في الدين أن نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم وصف زمان الغربة وبين نعته ونعت أهله وأمر فيه بالتفرد وكان صلى الله عليه وسلم لاعمالة أعلم بالمصالح وانصح لنا منا لانفسنا فان وجدت زمانك على ما وصف وبين فامتثل أمره صلى الله عليه وسلم واقبل نصيحته ولا تشك في أنه صلى الله عليه وسلم كان أعرف بما يصلح لك في زمانك ولا تتعلل بالعلل الكاذبة ولا تخادع نفسك والا فأنت هالك ولا عذر لك والوصف الذي ذكرناه منها ما هو في الخبر المشهور عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما انه قال بينا نحن حول النبي صلى الله عليه وسلم اذ ذكر الفتنة فقال اذا رأيتم الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه قلت ما أصنع عند ذلك جعلني الله فداك قال الزم بيتك وأملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة وذكر في خبر آخر أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك أيام الهرج قيل وما أيام الهرج قال حين لا يأمن الرجل جليسه (وذكر) ابن مسعود رضي الله عنه في خبر آخر للحرث بن عميرة انه صلى الله عليه وسلم قال له ان يدفع عن عمرك فسيأتي عليك زمان كثير خطباؤه قليل علماؤه كثير سؤاله قليل معطوه الهوى فيه قائد العلم قال ومتى ذلك قال اذا أميتت الصلاة وقبلت الرشا وبيع

وقل اللهم غشني برحمتك وأنزل علي من بركاتك وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل الا ظلك اللهم حرم شعري وبشري على النار ثم تمسح أذنيك ظاهرهما وباطنهما بماء جديد وأدخل مسبحتيك في صماخي أذنيك وامسح ظاهر أذنيك بإبهاميك وقل اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم أسمعني منادي الجنة في الجنة مع الابرار ثم امسح رقبتك وقل اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والاغلال ثم أغسل رجلك اليمنى ثم اليسرى مع الكعبين وتخلل بخنصر اليسرى أصابع رجلك مبتدئا بخنصر اليمنى حتى تختم بخنصر اليسرى وتدخل الاصابع من أسفل وقل اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم مع أقدام عبادك الصالحين وكذلك تقول عند غسل اليسرى اللهم انى أعوذ بك (ان تزل قدمي على الصراط في النار يوم تزل أقدام

الدين بمرض يسير من الدنيا فالنجاء النجاء ويحك ثم النجاء (قلت) وجميع ماذكر في هذه الاخبار تراه بعينك في زمانك وأهله فانظر لنفسك (ثم) ان السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعوا على التحذير من زمانهم وأهله وآثروا العزلة وأمروا بذلك وتواصوا به ولاشك انهم كانوا أبصر وأنصح وان الزمان لم يصر بعدهم خيرا مما كان بل أشر منه وأمر وهو ماذكر عن يوسف بن اسباط انه قال سمعت الثوري يقول والله الذي لا اله الا هو لقد حلت العزلة في هذا الزمان (قلت) انا والله حلت في زماننا هذا وجبت وافترضت (وعن سفيان الثوري أيضا) انه كتب الى عباد الخواص رحمهما الله اما بعد فانك في زمان كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يتعوذون بالله من أن يدركوه فيما بلغنا ولهم من العلم مالبس لنا فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم وقلة صبر وقلة أعوان على الخير وكثرة من الدنيا وفساد من الناس فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في العزلة راحة من خلطاء السوء وفي مثل هذا قيل

هذا الزمان الذي كنا نحاذره * في قول كعب وفي قول ابن مسعود
دهر به الحق مردود بأجمعه * والظلم والبغي فيه غير مردود
أعمى أصم من الازمان ملتبس * فيه لابليس تصويب وتصعيد
ان دام هذا ولم يحدث له غير * لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

(ولقد) وجدت عن سفيان بن عيينة انه قال قلت للثوري أوصني قال أقلل من معرفة الناس (قلت) يرحمك الله أليس قد جاء في الخبر أكثروا من معرفة الناس فان لكل مؤمن شفاعة قال لا أحسبك رأيت قط ماتكره الا من تعرف قلت أجل ثم مات رحمه الله فرأيته بعد موته في المنام بحجيج فقلت يا أبا عبد الله أوصني قال أقلل من معرفة الناس ما استطعت فان الخلاص منهم شديد وقد قيل في معنى هذا الخبر نظما

ومازات مذلاح المشيب بمفرقي * أفتش عن هذا الورى وأكشف
فان عرفت الناس الا ذممتهم * جزى الله خيرا كل من است أعرف
ومالي ذنب أستحق به الجفا * سوى أنني أحببت من ليس يعرف

قال وقيل كتب على باب الدار جزى الله من لا يعرفنا خيرا ولا يجزي بذلك أحدا فانما أوذي بنا قط الا منهم وأنشدوا فيه

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا * ولا بينه ود ولا نتعارف
فما صابنا هم ولا نالنا أذى * من الناس الا من نود ونعرف

(قال الفضيل رحمه الله) هذا زمان احفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر (وقال) سفيان الثوري هذا زمان السكوت ولزوم البيوت والرضا بالقوت الى أن تموت (وعن داود الطائي) رحمه الله صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس فرارك من الاسد وعن أبي عبيدة ما رأيت حكيما قط الا قال لي في عقب كلامه ان أحببت ان لا تعرف فانت من الله على بال والاخبار في هذا الباب أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب وقد صنف فيه كتابا مفردا وسميناه كتاب اخلاق الابرار ونصائح من الاشرار فقف عليه ترى العجب العجاب والعاقل يكفيه اشارة والله ولي التوفيق والهداية بفضله (واما الخصلة

المنافقين والمشركين وارفع الماء الى أنصاف الساقين وراع التكرار ثلاثا في جميع أفعالك فاذا فرغت من الوضوء فارفع بصرك الى السماء وقل أشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ان لا اله الا أنت عملت سوأ وظلمت نفسي أستغفرك وأتوب اليك فاغفر لي وتب علي انك أنت التواب الرحيم اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني من عبادك الصالحين واجعلني صبورا شكورا واجعلني أذكرك ذكرا كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا فمن قال هذه الدعوات في وضوئه خرجت خطاياه من جميع أعضائه وختم على وضوئه بخاتم ورفع تحت العرش فلم يزل يسبح الله ويقدسه ويكتب له ثواب ذلك الوضوء الى يوم القيامة واجتنب في وضوئك سبعا لا تنفض يديك نفرش الماء ولا تلطم رأسك ووجهك

الثانية) التي تقتضي التفرد عن الناس في هذا الشان ان الناس يفسدون عليك ما يحصل للمؤمن العبادة ان لم يعصم الله سبحانه بسبب ما يعرض من قبلهم من دواعي الرياء والتزين ولقد صدق يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله حيث قال رؤية الناس بساط الرياء وهؤلاء الزهاد قد خافوا على أنفسهم من هذا المعنى حتى تركوا الملاقاة والتزاور ولقد ذكر ان هرم بن حيان قال لاويس القرني رحمهما الله يا أويس صلنا بالزيارة واللقاء فقال أويس قد وصلتك بما هو انفع لك منهما وهو الدعاء على ظهر الغيب لان الزيارة واللقاء يعرض فيهما التزين والرياء (وقيل لسليمان الخواص) حين قدم ابراهيم بن أدهم أفلا تأتيه فقال لان ألقى شيطانا ما مرارا أحب الي من لقائه فاستنكروا ذلك من قوله فقال اني أخاف اذا لقيته ان أتزين له واذا لقيت شيطانا امتنعت منه ولقد لقي شيخي الامام بعض العارفين فتذاكرا مليا ثم دعوا في آخر حديثهما فقال شيخي الامام للعارف ما أظنني جلست مجلسا أنا له أرجى من مجلسي هذا فقال له العارف لكني ما جلست مجلسا انا له أخوف من مجلسي هذا ألست تعمد الى أحسن حديثك وعلومك فتحدثني بها وتظهرها بين يدي وانا كذلك فقد وقع الرياء فبكى شيخي الامام مليا ثم غشي عليه فكان بعد ذلك يتمثل بهذه الابيات

يا ويلتا من موقف مابه * أخوف من أن يعدل الحاكم
أبا رزا الله بعصيانه * وليس لي من دونه راحم
يارب عفوا منك عن مذنب * أسرف الا أنه نادم
يقول في الليل اذا ما دجى * آها لذنب ستر العالم

فهذه حال أهل الزهد والرياضة في ملاقاتهم فكيف حال أهل الرغبة والبطالة بل حال أهل الشر والجهالة (اعلم) ان الزمان قد أصبح في فساد عظيم وأصبح الناس في ضرر كثير فانهم يشغلونك عن عبادة الله تعالى حتى لا يكاد يحصل لك منها شيء ثم يفسدون عليك ما حصل لك حتى لا يكاد يسلم لك منها شيء فلزمتك العزلة والتفرد عن الناس والاستعاذة بالله من شر هذا الزمان وأهله والله تعالى الحافظ بفضله ورحمته (فان قيل) فما حكم العزلة والتفرد عن الناس فبين لنا حال طبقات الخلق فيها والمأذون الذي يجب منها فاعلم رحمك الله وايانا ان الناس في هذا الباب رجلان رجل لا حاجة بالخلق اليه في علم وبيان حكم فالاولى بهذا الرجل التفرد عن الناس فلا يخالطهم الا في جمعة أو جماعة أو عيد أو حج أو مجلس علم بالسنة أو حاجة في معيشة لا بد له من ذلك والا فيواري شخصه ويلازم كنه لا يعرف ولا يعرف فأما ان أحب هذا الرجل ان ينقطع عن الناس فلا يخالطهم في أمر من الامور البتة من دين أو دنيا وجماعة وجمعة أو غيرها مما يرى له في ذلك من مصلحته وفراغه فانه لا يسعه ذلك الا بأحد أمرين (اما) ان يصبر الى موضع لا يلزمه هناك هذه الفروض كرؤس الجبال وبطون الاودية ونحوها وافعل هذا أسد الوجوه التي دعت العباد الى تلك المواضع البعيدة عن الناس (واما) أن يتيقن بالحقيقة أن الضرر الذي يلحقه في مخالطة الناس بسبب هذه الفروض أعظم من تركها فحينئذ يكون له عذر في تركها ولقد رأيت أنا بمكة حرسها الله بعض المشايخ المنفردين من أهل العلم وهو لا يحضر المسجد الحرام في الجماعات مع قربه منه وسلامة حاله فحاورته في ذلك يوما في حال تردد اليه فذكر من عذره ما أشرنا اليه

بالماء الطاهر ولا تتكلم في اثناء الوضوء ولا تزد في الغسل على ثلاث مرات ولا تكثر صب الماء من غير حاجة بمجرد الوسوسة فللموسوسين شيطان يلعب بهم يقال له الولهان ولا تتوضأ بالماء المشمس ولا في الاواني الصفرية فهذه السبعة مكروهة في الوضوء وفي الخبران من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه الا ما أصابه الماء

(آداب الغسل)

فاذا أصابك جنابة من احتلام أو وقاع فاحمل الاناء الى المغتسل واغسل يديك أولا ثلاثا وأزل ما على بدنك من قذر وتوضأ كما سبق وضوء للصلاة مع جميع الدعوات وأخر غسل رجليك كيلا يضيع الماء فاذا فرغت من الوضوء فصب الماء على رأسك ثلاثا وأنت ناو رفع الحدث من الجنابة ثم على شقك الايمن ثلاثا ثم على الايسر ثلاثا وادلك ما أقبل من بدنك وما أدبر وخلل شعر رأسك

وهو ان ما يحصل له من الثواب لا يفي بما يلحقه من الآثام والتبعات في الخروج الى المسجد ولقاء الناس (قلت أنا) وجملة الامور فلا عتب على المعذور والله تعالى أعلم بالعذر وهو عليم بذات الصدور ولكن الطريق العدل فيه هو الاول بأن يشارك الناس في الجمعة والجماعات وضروب الخيرات ويبانهم فيما سوى ذلك فان أحب الطريق الثاني بأن ينقطع عن الناس بقرية فسبيله الخروج الى مواضع لا تتوجه عليه هذه الفروض ثم لان الطريق الثالث وهو ان يكون مع الناس في مصر واحد لا يحضر جمعة ولا جماعة لعذر يراه في ذلك من وزر أو تهمة عليه فانه يحتاج الى تطرد دقيق وعوارض عظيمة حتى يسقط ذلك عنه وفيه خطر من الغلط فالاولان أسلم واحفظ له والله ولي الهداية بفضله (وأما الرجل الثاني) فرجل يكون قدوة في العلم بحيث يحتاج الناس اليه في أمر دينهم لبيان حق أو رد على مبتدع أو دعوة الى خير يفعل أو يقول أو نحو ذلك فلا يسع مثل هذا الرجل الاعتزال عن الناس بل ينصب نفسه بينهم ناصحا لخلق الله تعالى ذابا عن دين الله تعالى مبينا لاحكام الله فلقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله هذا اذا كان بينهم واذا خرج من بينهم فلا يجوز له أيضا الاعتزال (ولقد حكي) ان الاستاذ أبا بكر بن فورك رحمه الله قصد ان ينفرد لعبادة الله عن الناس فبينما هو في بعض الجبال اذ سمع صوتا ينادي يا أبا بكر اذ صرت من حجج الله على خلقه تركت عباد الله فرجع وكان هذا سبب صحبته للخلق (وذكر لي) مأمون بن أحمد رحمه الله ان الاستاذ أبا اسحق رحمه الله قال لعباد جبل لبنان يا أكلة الحشيش تركتم أمة محمد صلى الله عليه وسلم في أيدي المبتدعة واشتغلتم هاهنا بأكل الحشيش فقالوا له انا لا نقوى على صحبة الناس وانما أعطانا الله قوة فلزمنا ذلك فصنف بعد ذلك كتابه الجامع الجلي والخفي وكان لهم رضي الله عنهم مع غزارة علمهم العمل الجم والنظر الدقيق في سلوك طريق الآخرة (واعلم) ان مثل هذا الرجل المحتاج اليه الناس في طرق باب الدين يحتاج في صحبة الخلق الى أمرين شديدين (أحدهما) صبر طويل وحلم عظيم ونظر لطيف واستعانة بالله تعالى دائمة (والثاني) أن يكون في هذا المعنى منفردا عنهم وان كان بالشخص معهم فان كلموه كلمهم وان زاروه عظمهم على قدرهم وشكرهم وان سكتوا عنه وأعرضوا عنه استغنم ذلك منهم وان كانوا في حق وخير ساعدهم وان صاروا الى لغو وشر خالفهم وهجرهم بل رد عليهم وزجرهم ان رجاقبولهم ثم يقوم بجميع حقوقهم من الزيارات والعيادات وقضاء الحاجات التي ترفع اليه ما أمكنه ولا يطالبهم بالمكافآت ولا يرجو ذلك منهم ولا يريهم من نفسه استجاشا لذلك ويأسطهم بالبذل ان قدر ويقبض عنهم في الاخذ ان أعطى ويتحمل منهم الاذى ويظهر لهم البشر ويتجمل بظاهره لهم ويكتم حاجاته عنهم فيقاسيها بنفسه ويعالجها في سره وباطنه ثم يحتاج مع ذلك ان يتطرق لنفسه خاصة فيجعل لها حظا من العبادة الخالصة كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان نمت الليل لاضيعن نفسي وان نمت النهار لاضيعن الرعية فكيف لي بالنوم بين هاتين وفي هذا المعنى عرض لي أبيات من الشعر (وهي)

فان كنت في هدى الائمة راغبا * فوطن على أن تنحمل الوقائع
بنفس وقور عند كل كريهة * وقلب صبور وهو في الصدر جائع
لسانك مخزون وطرفك ملجم * وسرك مكتوم لدى الريب ذائع

وذكر لي

ولينك وأوصل الماء الى معاطف البدن ومنابت الشعر ما خف منه وما كثف واحذر أن تمس ذكرك بعد الوضوء فان اصابته يدك فأعد الوضوء والفريضة ومن جملة ذلك كله النية وازالة النجاسة واستيعاب البدن بالغسل دون الوضوء غسل الوجه واليدين مع المرفقين ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين الى الكعبين مرة مرة مع النية والترتيب وما عداها سنن مؤكدة فضلها كثير وثوابها جزيل والمتهاون بها خاسر بل هو بأصل فرائضه مخاطر فان النوافل جوابر للفرائض

(آداب التيمم)

فان عجزت عن استعمال الماء لفقده بعد الطلب أو لعذر من مرض أو لمانع من الوصول اليه من سبع أو حبس أو كان الماء لجابة تحتاج اليه لعطشك أو عطش رفيقك أو كان ملكا لغيرك ولم يبع الا بأكثر من ثمن المثل أو كانت بك جراحة أو مرض تخاف منه على نفسك فاصبر حتى يدخل

وذكرك مغمور وبابك مغلق * وثغرك بسام وبطنك جائع
وقلبك مجروح وسوقك كاسد * وفضلك مدفون وطعنك شائع
وفي كل يوم أنت جارع غصة * من الدهر والاخوان والقلب طائع
نهارك شغل الناس من غير منة * وليلك شوق غاب عنه الطلائع
فدونك هذا الليل خذه ذريعة * ليوم عبوس عزفيه الذرائع

ثم يكون بالنفس معهم والقلب ما أبعده عنهم وذلك لعمري أمر شديد وعيش نكد وفيه يقول شيخنا رحمه الله في وصيته يابني عش مع أهل زمانك ولا تقتدبهم ثم قال ما أشد هذا العيش مع الاحياء والاقتداء بالاموات وعن ابن مسعود رضي الله عنه خالط الناس وزايلهم ودينك لا تكلمنه فهذه نكتة مقنعة (ثم أقول) اذا ماج الفتن بعضها في بعض وتراجع الامر وولى الناس عن أمر الدين مدبرين لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة ولا يطلبون عالما ولا يرحمون متعبدا ولا يعنيهم أمر دينهم البتة وترى الفتنة تعم العامة وتدب بين الخاصة فالعالم العذر في العزلة والتفرد ودفن العلم وأخاف ان ما ذكرناه هو هذا الزمان النكد الصعب والله المستعان وعليه التكلان فهذا حكم العزلة والتفرد عن الناس فافهمه فان الغلط فيه عظيم وضرره كثير وبالله التوفيق (فان قيل) أليس النبي صلى الله عليه وسلم قال عليكم بالجماعة فان يد الله تعالى على الجماعة وان الشيطان ذئب الانسان يأخذ الشاذة والناجية والقاصية والنادة وقال ان الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد (فاعلم) ان هذه وردت ووردت أيضا الزم بيتك وعليك بالخاصة ودع أمر العامة فأمر بالعزلة والتفرد في الزمان السوء ولا تناقض في قوله صلى الله عليه وسلم ولا بد من الجمع بين الخبرين بحول الله وتوفيقه (فأقول) قوله صلى الله عليه وسلم عليكم بالجماعة يحتمل ثلاثة أوجه * أحدها انه يعني به في الدين والحكم اذ لا تجتمع هذه الامة على ضلالة فحرق الاجماع والحكم بخلاف ما عليه جمهور الامة والشذوذ عنهم باطل وضلال واما ان يعتزل عنهم لصلاح في دينه فليس هذا من ذلك في شئ (والثاني) عليكم بالجماعة بأن لا تنقطعوا عنهم في جمعهم وجماعاتهم ونحوها فان فيها قوة الدين وكمال الاسلام وغيظ الكفار والملحدين ولا يحاذ ذلك من بركات وتظاهر من الله عز وجل بالرحمة ولذلك نقول ان حق المنفرد ان يشارك الناس في الجموع العامة في الخير وان يجانبهم في الصحبة والمزاجة في سائر الامور لما فيها من ضروب الآفات (والثالث) ان ذلك في غير زمان الفتنة للرجل الضعيف في أمر الدين وأما الرجل البصير القوي في أمر الله تعالى اذا رأى زمان الفتنة الذي حذر النبي صلى الله عليه وسلم الامة منه وأمرهم بالعزلة فيه فالعزلة أولى له في الخلطة من الفساد والآفات وينبغي له ان لا يقطع من جموع الاسلام والخيرات العامة وان أراد ان يتفرد عن الناس بمرة فليسكن بشاهق جبل او بطن فلاة فلا صلاح يراه في دينه (ثم قلت) ولا أرى مثل هذا الرجل أيما كان الا ويمكنه الله عز وجل من حضور الجماعات والجمعات وسائر جموع الاسلام فيحضرها لا يفوته الحظ منها أيضا فان جموع الاسلام من الله تعالى بمكان وان تغير الناس وفسدوا كذا سمعنا من حال الابدال انهم يحضرون جموع الاسلام أينما كانت ويسيرون من الارض حيث شاؤا وان الارض لهم قدم واحد (وفي الاخبار) ان الارض تطوى لهم وينادون بالحيات ويحفون بأنواع البر والكرامات فهنيأ لهم بما ظفروا به وأحسن

وقت الفريضة ثم اقصد صعيدا طيبا عليه تراب خالص طاهرا لين فاضرب عليه بكفيك فامسح ما بين أصابعك وانو استباحة فرض الصلاة وامسح بهما وجهك مرة واحدة ولا تتكلف ايصال الغبار الى منابت الشعر خفف أو كثف ثم انزع خاتمك واضرب ضربة ثانية مفرقا بين أصابعك وامسح بهما يديك مع مرفقيك فان لم تستوعبهما فاضرب ضربة أخرى الى أن تستوعبهما ثم امسح احدى كفيك بالاخرى وامسح ما بين أصابعك بالتخليل وصل به فرضا واحدا وما شئت من النوافل فان أردت فرضا ثانيا فاستأنف له تيمما آخر

(آداب الخروج الى المسجد)

فاذا فرغت من طهارتك فصل في بيتك ركعتي الفجر ان كان الفجر قد طلع كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم توجه الى المسجد ولا تدع الصلاة في الجماعة لا سيما الصبح فصلاة الجماعة تفضل على صلاة المنفرد

الله عز وجل من غفل عن النظر فى خلاص نفسه وأعان الطالب الذى لم يصل الى المقصود كما مثلنا

ولقد عرض لى فى صفة حالى أبيات من الشعر وهى

ظفر الطالبون واتصل الوصـ ـل وفاز الاحباب بالاحباب
وبقينا مذبذبين حيارى * بين حد الوصال والاجتناب
نرتجى القرب بالبعاد وهذا * نفس حال المحال للالباب
فاسقنا منك شربة تذهب الغمـ ـم وتهدى الى طريق الصواب
ياطبيب السقام يامرهم الجر * ح ويامنقذى من الاوصاب
لست ادرى بما أداوى سقامى * أو بماذا أفوز يوم الحساب

ولنقبض الآن عنان الجنان ونرجع الى المقصود من شأن العزلة فقد خرجنا عن شرط الباب (فان قيل) أليس قد قال النبى صلى الله عليه وسلم رهبانية أمتى الجلوس فى المساجد وفيه زجر عن التفرد فاعلم ان ذلك فى غير زمن الفتنة كما ذكرناه وأيضا فانه يجلس فى المسجد ولا يخالط الناس ولا يداخلهم فيكون بالشخص معهم وفى المعنى منفردا عنهم وهذا هو المعنى فى العزلة والتفرد الذى نحن فى شرحه لا التفرد بالشخص والمكان فافهم ذلك رحمك الله وفيه يقول ابراهيم بن أدهم رحمه الله كن واحدا جامعيا ومن ربك ذا أنس ومن الناس وحشيا (فان قيل) فما تقول فى مدارس علماء الآخرة ورباطات الصوفية سالكى طريق الآخرة والمكون فيها (فاعلم) ان تلك الطريقة المثلى فى هذا الشأن لعامة أهل العلم والاجتهاد وذلك لانها جمعت المعنيين والفائدتين اللتين احداهما العزلة عن الناس والتفرد عنهم بالصحبة والمخالطة والمزاحمة فى أمورهم والثانية المشاركة معهم فى جمعهم وجماعاتهم وتكثير شعائر الاسلام فتحصل السلامة التى هى للمنفردين والخير الكثير الذى هو لعامة المسلمين مع ما للناس فيهم من القدوة والبركة والنصيحة فصار السكون فيها أعدل طريق وأحسن حال وأسلم سبيل ولهذا الشأن أقام أكثر العارفين بين الناس أنفعهم لعباد الله تعالى فى باب الدين وقلة اذاهم ومشاهدة اخلاق لآدابهم وحسن رسومهم ليقتدوا بهم فان لسان الحال أفصح من لسان المقال فصار ذلك أحسن تدبير فى أمر الدين العلم والعبادة وأحكم رأى فان قيل فما حال المريد مع المجتهدين والمرتاضين أيصحبهم أم يعتزلهم (فاعلم) انهم اذا كانوا ثابتين على رسومهم الاولى وسيرتهم الموروثة عن سلفهم فهم أجل اخوان فى الله عز وجل وأصحاب وأعوان على عبادة الله تعالى فلا تسعك عنهم عزلة وتفرد وانما مثلهم مثل ما تسمع من زهاد لبنان وغيرهم ان منهم جماعات يتعاونون على البر والتقوى ويتواصون بالحق والصبر وأما اذا تغيروا عن سيرتهم وتركوا رسومهم وأخلوا بطريقتهم الموروثة عن اسلافهم الصالحين فحكم هذا المجتهد المرتاض معهم حكمه مع سائر الناس يلزم زاويته ويكف لسانه ويشاركهم فى خيراتهم ويجانبهم فى سائر أحوالهم وآفاتهم فيكون هو فى عزلة من أهل العزلة منفردا عن المنفردين (فان قلت) فان اختار هذا المجتهد المرتاض ان يخرج من بينهم الى مكان آخر لصلاح يراه فى نفسه وتجنب آفة تدخل عليه فى صحبتهم (فاعلم) ان هذه المدارس والرباطات بمنزلة حصن حصين يتحصن بها المجتهدون عن القطاع واللصوص وان الخارج بمنزلة الصحراء تدور فيها فرسان الشياطين عسكرا عسكرا فتسلبه أو تستأسره فكيف حاله اذا خرج الى الصحراء وتمكن العدو منه

بسبع وعشرين درجة فان كنت تتساهل فى مثل هذا الربح فأى فائدة لك فى طلب العلم وانما ثمرة العلم العمل به فاذا مشيت الى المسجد فامش على الهينة والسكينة ولا تعجل وقل فى طريقك اللهم بحق السائلين عليك وبحق الراغبين اليك وبحق ممشاى هذا اليك فانى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك ان تنقذنى من النار وان تغفر لى ذنوبى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت

(آداب دخول المسجد)

فاذا أردت الدخول الى المسجد فقدم رجلك اليمنى وقل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ومهما رأيت فى المسجد من بيع فقل لا أربح الله تجارتك واذا رأيت فيه من ينشد عن ضالة فقل لا رد الله عليك ضالتك كذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا دخلت المسجد فلا تجلس

من كل جانب يعمل به مايشاء فاذا ليس لهذا الضعيف الا لزوم الحصن واما الرجل القوى البصير الذى لا يغلبه الاعداء واستوى عنده الحصن والصحراء فلا خوف عليه اذا خرج غير أن الكون فى الحصن أحوط على كل حال اذ لا يؤمن من الفلتات والاتفاقات مع قرناء السوء واذا كان الامر بهذه المثابة فالكون مع رجال الله والصبر على مشقة الصحبة أولى للمرتاض وطالب الخير بكل حال وان لا مانع للقوى البالغ مبالغ الاستقامة عن التفرد منهم (فاعلم) هذه الجملة وتأملها تغنم وتسلم ان شاء الله تعالى (فان قيل) فما تقول فى زيارة الاخوان فى الله عز وجل ومواصلة الاصحاب بالتلاقى والتذاكر (فاعلم) ان زيارة الاخوان فى الله عز وجل من جواهر عبادة الله تعالى وفيها الرائحة الكريهة الى الله عز وجل مع مافيها من ضروب الفوائد وصلاح القلب ولكن بشرطين أحدهما ان لا تخرج فى ذلك الى الاكثار والافراط (قال) النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لابى هريرة رضى الله عنه زر غبا تزدد حبا والثانى ان تحفظ حق ذلك بالتجنب عن الرياء والتزين وقول اللغو والغيبة ونحو ذلك فيعود عليك وعلى أخيك الوبال فلقد حكى ان الفضيل وسفيان رحمهما الله تذاكرا فبكيا فقال سفيان يا أبا على أرجو أنا ما جلسنا مجلسا أرجى لنا من هذا المجلس فقال الفضيل ما جلست مجلسا أخوف على من هذا فقال وكيف يا أبا على قال أنست نعمدا الى أحسن حديثك فتحدثنى به وأنا عمدت الى أحسن ما عندى فحدثتك به فتزينت لى وتزينت لك فبكى سفيان فيجب ان تكون مجالستك للاخوان وملاقاتهم على مقدار قصد واحتياط ونظر لطيف فلا يقدح ذلك حينئذ فى عزلتك وتفردك عن الناس ولا يعود عليك وعلى أخيك بضرر وآفة بل بخير كثير ونفع عظيم والله الموفق (فان قلت) فما يعنى على العزلة عن الناس والتفرد ويهون على ذلك (فاعلم) ان الذى يهون عليك ذلك ثلاثة أمور * أحدها استغراق أوقاتك فى العبادة فان فى العبادة شغلا وان الاستئناس بالناس من علامات الافلاس فاذا رأيت نفسك تتطلع الى ملاقاة الناس وكلامهم من غير حاجة وضرورة فاعلم ان ذلك فضول ساقه الفراغ والبطر ولقد أحسن من قال فى هذا المعنى

ان الفراغ الى سلامك قادنى * ولرب عامل الفضول الفارغ

فأنت اذا عانقت العبادة تحققها وجدت حلاوة المناجاة فاستأنست بكتاب الله سبحانه واشتغلت عن الخلق واستوحشت من صحبتهم وكلامهم (وفى الخبر) ان موسى عليه السلام كان اذا رجع عن المناجاة يستوحش من الناس وكان يجعل اصبعيه فى أذنيه لئلا يسمع كلامهم وكان كلامهم عنده فى التفور والوحشة فى ذلك الوقت كاصوات الحمير فعليك بما قاله شيخنا رحمه الله

ارض بالله صاحبا * وذر الناس جانبا
صادق الوعد شاهدا * كن فيهم وغائبا
قلب الناس كيف شئت تجدهم عقاربا

* والثانى قطع الطمع عنهم بمرة فيهون عليك أمرهم لان من لا ترجو نفعه ولا تخاف ضره فوجوده وعدمه سواء * والثالث تبصر آفاتهم وتذكر ذلك وتكرره على قلبك فان هذه الاركان الثلاثة اذا لزمتها طردتك عن صحبة الخلق الى باب الله تعالى والتفرد لعبادته وحببته اليك وألزمتك بابه وبالله التوفيق والعصمة * (العائق الثالث الشيطان) * ثم عليك يا أخى بمحاربة الشيطان وقهره وذلك

حتى تصلى ركعتى التحية فان لم تكن على طهارة أو لم ترد فعلها كفتك الباقيات الصالحات ثلاثا وقيل أربعا وقيل ثلاثا للمحدث وواحدة للمتوضئ فان لم تكن صليت ركعتى الفجر فيجزئك أداؤهما عن التحية فاذا فرغت من الركعتين فانو الاعتكاف وادع بما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتى الفجر فقل اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى وترد بها الفتى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمنى بها رشدى وتقضى لى بها حاجتى وتعصمنى بها من كل سوء اللهم انى أسألك ايمانا خالصا يباشر قلبى وأسألك يقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى الا ما كتبته على والرضا بما قسمته لى اللهم انى أسألك ايمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر وأسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة اللهم انى أسألك

الصبر عند القضاء والفوز عند اللقاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الاعداء وهي افقة الانبياء

اللهم اني أنزل بك حاجتي وان ضعف رأيي وقصر عملي وافتقرت الى رحمتك فأسألك يا قاضي الامور ويا شافي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن فتنة القبور ومن دعوة الثبور اللهم وما ضعف عنه رأيي وقصر عنه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيتي من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فاني أرغب اليك فيه وأسألك اياه يا رب العالمين اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لاعدائك سلما لاوليائك نحب بحبك الناس ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان وانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم اللهم الحنا الشدة والاهي

خصلتين * احداهما انه عدو مضل مبين ولا مطمع فيه لمصالحة وابقاء عليك بل لا يقنعه الا هلاكك أصلا فلا وجه اذا للامن من مثل هذا العدو والغفلة عنه وتأمل آيتين من كتاب الله تعالى احداهما قوله تعالى ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين والثانية قوله تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وهذا أقصى التحذير وغايته * والخصلة الثانية انه مجبول على عداوتك ومنتصب لمحاربتك فهو آناء الليل وأطراف النهار يرصدك بسهامه وأنت غافل عنه فكيف يكون الحال ثم وقعت لي نكتة أخرى وهي أنك في عبادة الله تعالى ودعوة الخلق الى باب الله سبحانه بفعلك وقولك وهذا ضد صنيع الشيطان وهمته ومراده وحرفته فصرت كأنك قمت وشددت وسطك لتغايظ الشيطان وتكايده وتناقضه فهو أيضا يشد وسطه ليعاديك ويقاتلك ويعاركك حتى يقصد والعياذ بالله عليك شأنك بل حتى يهلكك رأسا اذ لا يأمن من جانبك بعد فانه الذي يسيء ويقصد بالهلاك الى من لا يغايظه ولا يناقضه بل يصادقه ويوافقه كالكفار وأهل الضلال وأهل الرغبة في بعض الاحوال فكيف قصده لمن قام لمغايظته وتجرد لمناقضته فلا اذن مع سائر الناس عداوة عامة ومعك أيها المجتهد في العبادة والعلم عداوة خاصة وان أمرك لمهم ومعه عليك أعوان أشدها عليك نفسك وهو الذي له أسباب ومداخل وأبواب أنت عنها غافل (ولقد صدق) يحيى بن معاذ الرازي حيث قال الشيطان فارغ وأنت مشغول والشيطان يراك وأنت لا تراه وأنت تناسه وهو لا ينساك ومن نفسك الشيطان عليك أعوان فاذن لا بد من محاربته وقهره والا فلا تأمن الفساد والهلاك (فان قلت) فبأي شيء أحارب الشيطان وبأي شيء أقهره وأدفعه (فاعلم) أن لاهل هذه الصناعة في هذه المسئلة طريقين أحدهما ما قال بعضهم ان التدبير في دفع الشيطان الاستعاذة بالله سبحانه لا غير فان الشيطان كلب سلطه الله سبحانه عليك فان اشتغلت بمحاربته ومعالجته تعبت وضاع عليك وقتك وربما يظفر بك فيه فترك ويجرحك فالرجوع الى رب الكلب ليصرفه عنك أولى والثاني ما قال آخرون ان الطريق المجاهدة والقيام عليه بالدفع والرد والمخالفة (قلت) والذي عندي ان الطريق العدل الجامع في أمره ان نجمع بين الطريقين فنستعيذ بالله تعالى أولا من شره كما أمرنا وهو الكافي شره ثم ان رأيناه يتغلب علينا علمنا انه ابتلاء من الله تعالى ليرى صدق مجاهدتنا وقوتنا في أمره سبحانه وتعالى ويرى صبرنا كما انه سلط علينا الكفار مع قدرته على كفاية أمرهم وشرهم ليكون لنا حظ من الجهاد والصبر والتمحيص والشهادة كما قال تعالى وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء وقال تعالى أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين فكذلك هذا ثم ان محاربته وقهره فيما قاله علما وتارضي الله عنهم في ثلاثة أشياء أحدها ان تتعرف وتتعلم مكايده وحيله فلا يخفى سر حينئذ عليك كاللص اذا علم ان صاحب الدار قد أحس به فر والثاني ان تستخف بدعوته فلا تعلق قلبك بذلك ولا تتبعه فانه بمنزلة الكلب النابح ان أقبلت عليه أولغ بك ويلغ وان أعرضت عنه سكت والثالث ان تديم ذكر الله سبحانه بلسانك وقلبك فلقد قال صلى الله عليه وسلم ان ذكر الله تعالى في جنب الشيطان كالاكلة في جنب ابن آدم (فان قلت) فكيف نعلم مكايده وكيف الطريق الى معرفة ذلك (فاعلم) ان له وساوس هي بمنزلة السهام التي يرميها وذلك انما يتبين لك بمعرفة الخواطر وأقسامها والثاني ان

له حيلا هي بمنزلة الشبكات التي تنصبها وذلك يتبين لك بمعرفة المكايد وأوصافها ومجاريها ولقد ذكر علماؤنا رضي الله عنهم أبوابا في الخواطر وقد صنفنا كتابا سميناه تلبيس ابليس وكتابنا هذا لا يحتمل الا كثارا لكان ذكر ذلك ان شاء الله تعالى من كل واحد منها اصلا كافيا اذا اعتصمت به * فاما أصل الخواطر فاعلم ان الله تعالى وكل بقلب ابن آدم ملكا يدعوه الى الخير يقال له الالهام ولدعوته الهام وسلط في مقابلته شيطانا يدعو العبد الى الشر يقال له وسواس ولدعوته وسوسة فالملهم لا يدعوه الا الى الخير والوسواس لا يدعوه الا الى الشر في قول أكثر علمائنا وقد حكى عن شيخنا رحمه الله ان الشيطان ربما يدعو الى الخير وقصده في ذلك الشر بان يدعوه الى المفضول ليمنعه عن الفاضل أو يدعوه الى خير ليجره الى ذنب عظيم لا يفي خيره بذلك الشر من عجب أو غيره فهذان داعيان قائمان على قلبه يدعوانه وهو يسمع قلبه يحس بذلك على ما روى في الاخبار انه عليه السلام قال اذا ولد لابن آدم مولود قرن الله سبحانه به ملكا وقرن الشيطان به شيطانا فالشيطان جاثم على اذن قلب ابن آدم الايسر والملك جاثم على اذن قلبه الايمن فهما يدعوانه وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة يعني نزلة بالدعوة من قولهم لم بالمكان وألم به اذا نزل به ثم ركب الله تعالى في بنية الانسان طبيعة مائلة الى الشهوات وتيل اللذات كيف كانت من حسن أو قبيح فذلك هوى النفس الصارفة الى الآفات فهذه ثلاثة دعاة (ثم اعلم) بعد هذه المقدمة أن الخواطر هي آثار تحدث في قلب العبد تبعثه على الافعال والتروك وتدعوه اليها وسميت خواطر لاضطرابها من خطرات الريح ونحوها وحدوثها جميعا في قلب العبد بالحقيقة من الله سبحانه وتعالى لكنها أربعة أقسام منها ما يحدثه الله تعالى في القلب ابتداء فيقال له الخاطر فقط وقسم يحدثه موافقا لطبع الانسان فيقال له هوى النفس وينسب اليها وقسم يحدثه عقيب دعوة الملهم فينسب اليه ويقال له الالهام وقسم يحدثه عقيب دعوة الشيطان فينسب اليه ويقال له الوسوسة وتنسب اليه بأنها خواطر من الشيطان وانما هي في الحقيقة حادثة عند دعوته فهو كالسبب في ذلك ولكنه ينسب اليه فهذه أربعة أقسام من الخواطر (ثم اعلم) بعد هذا التقسيم ان الخاطر الذي من قبل الله تعالى ابتداء قد يكون بخيرا كراما والزاما للسعة وقد يكون بشيرا امتحانا وتغليظا للمحنة والخاطر الذي يكون من قبل الملهم لا يكون الا بخير اذ هو ناصح مرشد لم يرسل الا لذلك والخاطر الذي يكون من قبل الشيطان لا يكون الا بشرا غواء واستزلالا ربما يكون بالخير مكرا واستدراجا والذي يكون من قبل هوى النفس يكون بالشر وربما الخير فيه تبعا ونفسا وقد وجدت عن بعض السلف ان هوى النفس أيضا قد يدعو الى خير والمقصود منه شر كالشيطان فهذه أنواعها ثم اعلم بعد هذا انك محتاج الى معرفة ثلاثة فصول لا بد لك منها البتة وفيها المقصود أحدها الفرق بين خاطر الخير وخاطر الشر في الجملة والثاني الفرق بين خاطر شر ابتدائي أو شيطاني أو هوائي وبعد ابشرق بينها فان لكل واحد منها دفعا من نوع آخر والثالث الفرق بين خاطر خير ابتدائي أو الهامي أو شيطاني أو هوائي لتتبع ما يكون من الله تعالى أو من الملهم وتجتنب ما يكون من الشيطان وكذلك الهوى على قول من يقول به (فأما الفصل الاول) فقال علماؤنا رضي الله عنهم اذا أردت أن تعلم خاطر الخير من خاطر الشر وتفرق بينهما فزنه بأحد الموازين الاربعة يتبين لك حاله الاول أن تعرض الامر الذي خطر بالك على

الرشيد أسألك الامن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود الركع السجود والموفين بالعهود انك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد سبحان من اتصف بالعز وقال به سبحان من لبس المجد وتكرم به سبحان من لا ينبغي التسبيح الا له سبحان ذي الفضل والنعم سبحان ذي القدرة والكرم سبحان الذي احصى كل شيء بعلمه اللهم اجعل لي نورا في قلبي ونورا في قبري ونورا في سمعي ونورا في بصري ونورا في شعري ونورا في بشري ونورا في لحمي ونورا في دمي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خلفي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي اللهم زدني نورا وأعطني نورا أعظم نور واجعل لي نورا برحمتك يا ارحم الراحمين * فاذا فرغت من الدعاء فلا تشتغل الا باداء الفريضة أو بذكر أو تسبيح أو قراءة القرآن فاذا سمعت الاذان في اثناء ذلك فاقطع ما أنت

قوله الاربعة كذا في النسخ الصحيحة التي بايدينا والمناسب الثلاثة اه

فيه واشتغل بجواب المؤذن فاذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر فقل مثل ذلك وكذلك فى كل كلمة الا فى الحيعلتين فقل فيهما لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فاذا قال الصلاة خير من النوم فقل صدقت وبررت وأنا على ذلك من الشاهدين فاذا سمعت الاقامة فقل مثل ما يقول الا فى قوله قد قامت الصلاة فقل أقامها الله وأدامها مادامت السموات والارض فاذا فرغت من جواب المؤذن فقل اللهم انى أسألك عند حضور صلاتك وأصوات دعائك وادبار ليلك واقبال نهارك ان تؤتى محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته يا أرحم الراحمين فاذا سمعت الاذان وأنت فى الصلاة فتمم الصلاة ثم تدارك الجواب بعد السلام على وجهه فاذا أحرم الامام بالفرض فلا تشتغل الا بالاقتداء به وصل الفرض كما سيتلى عليك فى كيفية الصلاة وآدابها فاذا فرغت فقل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام واليك يعود السلام فحينا

الشرع فان وافق جنسه فهو خير وان كان بالضد برخصة أو شبهة فهو شر فان لم يستبن لك وجه الميزان فاعرضه على الاقتداء فان كان فى فعل اقتداء بالصالحين فهو خير وان كان بالضد اتباعا للطالحين فهو شر فان لم يستبن لك وجه الميزان فاعرضه على النفس والهوى فانظر ان كان مما تنفر عنه النفس نفرة طبع لا نفرة خشية وترهيب فاعلم انه خير وان كان مما تميل اليه النفس ميل طبع وجبلة لا ميل رجاء الى الله تعالى وترغيب فهو شر اذ النفس أمارة بالسوء لا تميل بأصلها الى خير فبأحد هذه الموازين اذا نظرت وأمعنت النظر يستبين لك خاطر الملك من خاطر الشر والله تعالى ولى الهداية بفضله انه جواد كريم (وأما الفصل الثانى) فقال علماؤنا اذا أردت أن تفرق بين خاطر شر يكون من قبل الشيطان وبين خاطر شر يكون من قبل هوى النفس أو من قبل الله تعالى ابتداء فانظر فيه من ثلاثة أوجه أحدها ان وجدته مصمما راتبا على حالة واحدة فهو من الله تعالى أو من هوى النفس وان وجدته متردادا مضطربا فاعلم انه من الشيطان * (وكان بعض الصالحين) * رحمه الله يقول مثل هوى النفس مثل الغراب اذا طار لا ينصرف الا بقمع بالغ وقهر ظاهر أو مثل الحمار حتى الذى يقاتل تديننا لا يكاد يرجع حتى يقتل ومثل الشيطان مثل الذئب اذا طردته من جانب دخل من جانب آخر وثانيها ان وجدته عقيب ذنب أحدثته فهو من الله تعالى اهانة وعقوبة بشؤم ذلك الذنب قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال شيخى الامام رحمه الله هكذا تؤدى الذنوب الى قسوة القلب أولها خاطر ثم يؤدى الى القسوة والرين وان كان هذا الخاطر مبتدأ لا عقيب ذنب كان منك فاعلم انه من قبل الشيطان هذا فى الاكثر لانه يبتدئ بدعوة الشر ويطالب الاغواء بكل حال وثالثها ان وجدته لا يضعف ولا يقل بذكر الله تعالى ولا يزول فهو من الهوى وان وجدته يضعف ويقل بذكر الله سبحانه فهو من الشيطان كما ذكر فى تفسير قوله تعالى من شر الوسواس الخناس ان الشيطان جاثم على قلب ابن آدم اذا ذكر الله تعالى خنس واذا غفل وسوس (وأما الفصل الثالث) اذا أردت أن تفرق بين خاطر خير يكون من الله تعالى أو من الملك فانظر فى ذلك من ثلاثة أوجه أحدها أن تنظر فان كان قويا مصمما فهو من الله تعالى وان كان متردادا فهو من الملك اذ هو بمنزلة ناصح يدخل معك فى كل جانب ووجه ويعرض عليك كل نصح رجاء اجابتك ورغبتك فى الخير والثانى ان كان عقيب اجتهاد منك وطاعة فهو من الله تعالى قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والذين اهتدوا زادهم هدى وان كان مبتدأ فهو من الملك فى الاغلب والثالث ان كان فى الاصول والاعمال الباطنة فهو من الله سبحانه وان كان فى الفروع والاعمال الظاهرة فهو من الملك فى الاكثر اذ الملك لا سبيل له الى معرفة باطن العبد فى قول أكثرهم * وأما خاطر الطير الذى يكون من قبل الشيطان استدراجا الى شر يربى عليه فلقد قال شيخنا رحمه الله انظر ان وجدت نفسك فى ذلك الفعل الذى خطر بقلبك مع نشاط لا مع خشية ومع عجلة لا مع تأن ومع أمن لا مع خوف ومع عمى عن العاقبة لا مع بصيرة فاعلم انه من الشيطان فاجتنبه وان وجدت نفسك على ضد ذلك مع خشية لا مع نشاط ومع تأن لا مع عجلة ومع خوف لا مع أمن ومع بصارة للعاقبة لا مع عمى فاعلم انه من الله سبحانه أو من الملك قلت انما كان النشاط خفية فى الانسان للفعل من غير بصيرة وذكر ثواب يتنشط له فى ذلك وأما التأنى

فصود الا فى مواضع معلومة معدودة وذكر فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم العجلة من الشيطان الا فى خمسة مواضع تزويج البكر اذا أدركت وقضاء الدين اذا وجب وتجهيز الميت اذا مات وقرى الضيف اذا نزل والتوبة من الذنب اذا أذنب وأما الطوف فيحتمل أن يكون فى اقامه وأدائه على وجهه وحقه وقبول الله تعالى اياه وأما بصارة العاقبة فبأن يتبصر ويتيقن انه رشد وخير ويحتمل أن يكون لرؤية الثواب فى العقبى ورجائه فاعلم ذلك موفقا فهذه جملة الفصول الثلاثة التى لزمتك معرفتها فى فصل الخواطر فارعها وانعم النظر فيها ما استطعت فانها من العلوم اللطيفة والاسرار الشريفة فى هذا الباب والله الموفق بفضله * (واما فصل الحيل والخادعات من الشيطان) * فجمرى ذلك ومثاله ان مكايد الشيطان مع ابن آدم فى الطاعة فى سبعة أوجه أحدها أن ينهاه عنها فان عصمه الله تعالى ورده بأن قال انى لمحتاج الى ذلك جدا اذ لابد لى من التزود من هذه الدنيا الفانية للآخرة التى لا انقضاء لها ثم يأمره بالتسويف فان عصمه الله تعالى ورده بان قال ليس أجلى بيدى على أنى ان سوفت عمل اليوم الى غد فعمل غدى اعمله فان لكل يوم عملا ثم يأمره بالعجلة فيقول له بجل بجل لتتفرغ لكذا وكذا فان عصمه الله تعالى ورده بان قال قليل العمل مع التمام خير من كثيره مع النقصان ثم يأمره باتمام العمل مراآة للناس فان عصمه الله تعالى ردّه بأن قال ما الذى أعمل مراآة الناس أفلا تكفينى رؤية الله تعالى ثم يريد أن يوقعه فى العجب فيقول ما أعظمك وما أيقظك وما أفضلك فان عصمه الله تعالى ردّه بأن قال المنة لله تعالى فى ذلك دونى فهو الذى خصنى بتوفيقه وجعل لعملى قيمة عظيمة بفضله ولولا فضله فاذا كان قيمة هذا العمل فى جنب نعمة الله تعالى علىّ وجنب معصيتى له ثم يأتيه من وجه سادس وهو أعظمها ولا يقف عليه الا متيقظ وهو أن يقول اجتهد أنت فى السر فان الله تعالى سيظهره عليك ويلبس كل عامل عمله وأراد بذلك شيئا من الرياء فان عصمه الله تعالى ورده بأن قال يا ملعون انى الآن كنت تأتينى من وجه افساد عملى والآن تأتينى من وجه اصلاحه لتفسده اعلم أنا عبد الله تعالى وهو سيدى ان شاء أظهر وان شاء أخفى وان شاء جعلنى خطيرا وان شاء جعلنى حقيرا وذلك اليه ما أبالى ان اظهر ذلك للناس أو لم يظهره فليس بايديهم شئ ثم يأتيه من وجه سابع ويقول لا حاجة لك الى هذا العمل لانك ان خلقت سعيدا لم يضرك ترك العمل وان خلقت شقيا لم ينفعك فعله فان عصمه الله تعالى ردّه بان قال انما أنا عبد وعلى العبد امتثال الامر لعبوديته والرب أعلم بربوبيته يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ولانه ينفعنى العمل كيفما كانت لانى ان كنت سعيدا احببت اليه لزيادة الثواب وان كنت شقيا فانا محتاج اليه كى لا لوم نفسى على ان الله تعالى لا يعاقبنى على الطاعة بكل حال ولا يضرنى على انى ان أدخلت النار وانا مطيع أحب الى من ان أدخلها وانا عاص فكيف ووعده حق وقوله صدق وقد وعد على الطاعات بالثواب فمن لقى الله تعالى على الايمان والطاعة لم يدخل النار البتة ودخل الجنة لا لاستحقاقه بعمله الجنة ولكن لوعد الله الصادق تعالى وتقدس ولهذا المعنى اخبر الله تعالى عن السعداء اذ قالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده فتيقظ رحمك الله فان الامر كما ترى وتسمع وقس عليه سائر الاحوال والافعال واستعن بالله تعالى واستعذ به فان الامر بيده ومنه التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم * (العائق الرابع النفس) * ثم عليك يا طالب

ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت يا ذا الجلال والاكرام سبحان ربى العلى الاعلى لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على شئ قدير لا اله الا الله أهل النعم والفضل والثناء الحسن لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون * ثم ادع بعد ذلك بالطول مع الكوامل وهو ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها فقل اللهم انى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم اعلم وأسألك الجنة وما يقرب اليها من قول وعمل ونية واعتقاد وأعوذ بك من النار وما يقرب اليها من قول وعمل ونية واعتقاد وأسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأعوذ بك من شر ما استعاذ منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم اللهم وما قضيت لى من أمر فاجعل عاقبته رشدا ثم ادع بما أوصى به رسول الله صلى الله

العبادات عصمك الله وايانا بالحذر من هذه النفس الامارة بالسوء فانها اضر الاعداء وبلاؤها أصعب البلاء وعلاجها أعسر الاشياء ودواؤها أعضل الداء ودواؤها اشكل الدواء وانما ذلك لامرين أحدهما انها عدو من داخل والعدو اذا كان من داخل البيت عزت الحيلة فيه وعظم الضرر وقد صدق القائل

نفسي الى ماضرني داعي * تكثر أسقامي وأوجاعي
كيف اشتكالي من عدوي اذا * كان عدوي بين أضلاعي

والثاني انه عدو محبوب والانسان عم عن عيب محبوبه لا يكاد يبصر عيبه كما قال القائل

ولست ترى عيبا الذي الود والاخا * ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا
وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدي المساويا

فاذا يستحسن الانسان من نفسه كل قبيح ولا يكاد يطلع على عيب لها وهي في عداوتها واضرارها فاذا أردت ما توقفه في فضيحة وهلاك وهو لا يشعر الا ان يحفظه الله تعالى بفضله ويمنه عليها برحمته (ثم أقول) تأمل ايها الرجل نكتة واحدة مقتضية وهي انك اذا نظرت وجدت أصل كل فتنة وفضيحة وخزي وهلاك وذنب وآفة وقع في خلق الله تعالى من أول الخلق الى يوم القيامة من قبل هذه النفس اما بها وحدها أو بمعاونتها ومشاركتها وبمساعدتها فأول المعصية لله تعالى كانت من ابليس وكان سببه بعد القضاء السابق هوى النفس بكبرها وحسدها ألقته بعد عبادة ثمانين الف سنة على ما قيل في بحر الضلال فغرق الى ابد الآبدين اذ لم يكن هنالك دنيا ولا خلق ولا شيطان بل كانت النفس بكبرها وحسدها فعملت به ما عملت ثم ذنب آدم وحواء عليهما السلام طمحت بهما شهوة النفس في ذلك وحرصها على البقاء والحياة حتى اغترا بقول ابليس فكان ذلك اذا يهون النفس وشرورها حتى سقط بذلك من جوار الله تعالى وقرار الفردوس الى هذه الدنيا الحقيرة النكدة الفانية المهلكة ولقيا ما لقيا ولقي أولادهما ما لقوا من ذلك اليوم الى ابد الآبدين ثم حديث قابيل وهابيل كان السبب في أمرهما الحسد والشح ثم حديث هاروت وماروت كان السبب في شأنهما الشهوة ثم هلم جرا الى يوم القيامة فلا تجد في الخلق فتنة ولا فضيحة ولا ضلالا ولا معصية الا وأصلها النفس وهواها والا كان الخلق في سلامة وخير واذا كان عدو جهذا الضرر كله فحق للعاقل أن يهتم بأمره والله تعالى ولي الهداية والتوفيق بفضله (فان قلت) فما الحيلة اذا النافي هذا العدو وما التدبير في أمره فبين لنا ذلك فاعلم انا ذكرنا فيما تقدم ان أمرها عسير صعب اذ لا يمكن قهرها جزة كسائر الاعداء اذ هي المطية والآلة وقيل ان اعرابيا دعا انسانا بخير فقال كبت الله تعالى كل عدو لك الا نفسك ولا يمكن اهمالها بالمرة لما كان ضررها فتحتاج الى طريق بين الطريقين تربيها وتقويها بقدر ما تحتمل فعل كل خير وتضعفها وتحبسها على حد لا يتمادى فاتت من أمرها في علاج شديد ونظر لطيف ثم قد ذكرنا في أمرها أن تلجمها بلجام التقوى والورع لتحصل الفائدتين جميعا (فان قلت) ان هذه دابة جموح وبهيمة صعبة شكسة لا تنقاد للجام فما الحيلة فيها حتى تمكننا منها (فاعلم) انك فيها صادق والحيلة تذليلها حتى تنقاد للجام (قال) علماؤنا رضي الله عنهم انما يذل النفس ويكسر هواها ثلاثة أشياء أحدها منع الشهوات فان الدابة الطروب تلين اذا نقص من علفها والثاني حمل اثقال

عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها فقل ياحي ياقيوم ياذا الجلال والاكرام لا اله الا أنت برحمتك أستغيث ومن عذابك أستجير لا تكلني الى نفسي طرفة عين واصلح لي شأني كله بما أصلحت به الصالحين ثم قل ما قاله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام اللهم اني أصبحت لا استطيع دفع ما أكره ولا أملك نفسي ما أرجو وأصبح الامر بيدك لا بيد غيرك وأصبحت مرتهنا بعملي فلا فقير أفقر مني اليك ولا غني أغنى منك عني اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسؤ بي صديقي ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي ولا تسلط علي بذنبي من لا يرحمني * ثم ادع بما بدا لك من الدعوات المشهورات واحفظها مما أوردناه في كتاب الدعوات من كتب احياء علوم الدين ولتكن أوقاتك بعد الصلاة الى طلوع الشمس موزعة على أربع وظائف وظيفة في الدعوات ووظيفة في الاذكار والتسبيحات وتكررها في مسجد ووظيفة في قراءة القرآن ووظيفة في التفكر فتفكر في ذنوبك وخطاياك

العبادات عليها فان الحمار اذا زيد في حمله مع التقصان من علفه تذلل وانقاد والثالث الاستعانة بالله عز وجل والتضرع اليه بأن يعينك والا فلا مخلص اما تسمع قول يوسف عليه السلام ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي فاذا واظبت على هذه الامور الثلاثة انقادت لك النفس الجموح باذن الله عز وجل فحينئذ تبادر الى أن تملكها وتلجمها وتأمن من شرها (فان قلت) فبين لنا الآن ما هو التقوى حتى نعلمه (فاعلم) أولا ان التقوى كنز عزيز فلئن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف وعلق نفيس وخير كثير ورزق كريم وفوز كبير وغنم جسيم وملك عظيم فكأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى وتأمل ما في القرآن من ذكرها فكم علق بها من خير وكم وعد عليها من أجر وثواب وكم أضاف اليها من سعادة وأنا أعدلك من جملتها اثني عشر خصلة أولها المدحة والثناء قال الله تعالى وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور والثاني الحفظ والحراسة من الاعداء قال الله تعالى وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيأ والثالث التأييد والنصرة قال الله تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وقال تعالى والله ولي المتقين والرابع النجاة من الشدائد والرزق من الحلال قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب والخامس اصلاح العمل قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم والسادس غفران الذنوب قال الله تعالى ويغفر لكم ذنوبكم والسابع محبة الله قال الله تعالى ان الله يحب المتقين والثامن القبول قال الله تعالى انما يتقبل الله من المتقين والتاسع الاعزاز والاكرام قال الله تعالى ان أكرمكم عند الله اتقاكم والعاشر البشارة عند الموت قال الله تعالى الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة والحادي عشر النجاة من النار قال الله تعالى ثم ننجي الذين اتقوا وقال تعالى وسيجنبها الاتقى والثاني عشر الخلود في الجنة قال الله تعالى أعدت للمتقين فهذا بيان كل خير وسعادة في الدارين تحت هذه التقوى فلا تنس نصيبك أيها الرجل منها ثم الذي يختص به هذا الشان من أمر العبادة ثلاثة أصول أحدها التوفيق والتأييد اولا وهو للمتقين كما قال الله تعالى ان الله مع المتقين والثاني اصلاح العمل واتمام التقصير وهو للمتقين كما قال الله تعالى يصلح لكم أعمالكم والثالث قبول العمل وهو للمتقين كما قال الله تعالى انما يتقبل الله من المتقين ومدار العبادة على هذه الامور الثلاثة التوفيق أولا حتى تعمل ثم الاصلاح للتقصير حتى يتم ثم القبول اذا تم وهذا الامور الثلاثة التي يتضرع فيها العابدون الى الله تعالى ويسألون فيقولون ربنا وفقنا لطاعتك واتمم تقصيرنا وتقبل منا وقد وعدنا الله تعالى ذلك كله على التقوى وأكرم بها المتقي سأل أولم يسأل فعليك بهذه التقوى ان أردت عبادة الله سبحانه بل ان أردت سعادة الدنيا والعقبى والله صدق القائل

من اتقى الله فذاك الذي * سبق اليه المجر الرابح

(وكتب بعضهم هذا البيت)

لا يتبع المرء الى قبره * غير التقى والعمل الصالح

وتقصيرك في عبادة مولاك وتعرضك لعقابه الاليم وسخطه العظيم وترتب أوقاتك بتدبيرك أورادك في جميع يومك لتتدارك به ما فرط من تقصيرك وتحترز من التعرض لسخط الله الاليم في يومك وتنوي الخير لجميع المسلمين وتعزم أن لا تشتغل في جميع نهارك الا بطاعة الله تعالى وتفصل في قلبك الطاعات التي تقدر عليها وتختار أفضلها وتتأمل تهيئة أسبابها لتشتغل بها ولا تدع عنك التفكر في قرب الاجل وحلول الموت القاطع للامل وخروج الامر عن الاختيار وحصول الحسرة والندامة وطول الاغترار ولكن من تسبيحاتك وأذكارك عشر كلمات احداهن لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير الثانية لا اله الا الله الملك الحق المبين الثالثة لا اله الا الله الواحد القهار رب السموات والارض وما بينهما العزيز الغفار الرابعة سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(وقال غيره)

من عرف الله فلم تغنه ✻ معرفة الله فذاك الشقي
ما يصنع العبد بعز الغنى ✻ والعز كل العز للمتقي
ما ضر ذا الطاعة ما ناله ✻ في طاعة الله وماذا لقي

(وكتب بعضهم على بعض القبور)

ليس زاد سوى التقى ✻ فخذي منه أو دعي

(ثم تأمل) أصلا واحدا وهو أنه هب انك قد نصبت جميع عمرك في العبادة وجاهدت وكابدت حتى حصل لك ما تتمنى أليس الشأن كله في القبول ولقد علمت ان الله تعالى يقول انما يتقبل الله من المتقين فرجع الامر كله الى التقوى ولذلك روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشيء من الدنيا ولا أعجبه أحد الا وتقي وعن قتادة انه قال مكتوب في التوراة يا ابن آدم اتق الله ونم حيث شئت وبلغني عن عامر بن عبد قيس أنه بكى عند موته وكان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة ثم يأتي الى فراشه فيقول يا مأوى كل شر والله ما رضيتك لله طرفة عين وبكى يوما فقيل له ما يبكيك قال قوله تعالى انما يتقبل الله من المتقين (ثم تأمل نكتة أخرى) وهي أصل الاصول وهي ما ذكر ان بعض الصالحين قال لبعض اشياخه أوصني بوصية فقال أوصيك بوصية الله رب العالمين الاولين والآخرين قوله تعالى ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله (قلت انا) أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد وأليس هو أنصح له وارحم وأرأف من كل أحد ولو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم للاجر وأجل في العبودية وأعظم في القدر وأولى بالحال وانجح في المآل من هذه الخصلة التي هي التقوى لكان الله تعالى أمر بها عباده وأوصى خواصه بذلك لكمال حكمته وسعة رحمته فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة وجمع الاولين والآخرين من عباده في ذلك واقتصر عليها علمت انها الغاية التي لا متجاوز عنها ولا مقصد دونها وانه عز وجل قد جمع كل نصح ودلالة وارشاد وتنبيه وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الوصية الواحدة كما يليق بحكمته ورحمته وعلمت ان هذه الخصلة التي هي التقوى هي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة الكافية لجميع المهمات المبلغة الى أعلى الدرجات في العبودية وقد أحسن من قال

الا انما التقوى هي العز والكرم ✻ وحبك للدنيا هو الذل والعدم
وليس على عبد تقي نقيصة ✻ اذا صح التقوى وان حاك أو حجم

وهذا أصل لا مزيد عليه وفيه كفاية لمن أبصر النور واهتدى وعمل بذلك واستغنى والله ولي الهداية والتوفيق عنه (فان قلت) لقد عظم قدر هذه الخصلة وجل موقعها واشتدت الحاجة الى معرفتها فلا بد الآن من تفصيلها (فاعلم) ان الامر كذلك فحق لها أن يجل قدرها ويلزم طلبها وتمس الحاجة الى معرفتها ولكنك تعلم ان كل خطير وكبير يحتاج في اجتلابه الى طلب كثير وتعب كبير وهمة عالية وجهد شديد فاذا كان هذه الخصلة خصلة عظيمة كبيرة فان المجاهدة في طلبها والقيام بحقها والعناية في تحصيلها أيضا الفعل كبير وشان عظيم فان المكارم على حسب المكاره وان اللذات على حسب المؤنات والله تعالى يقول والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا

وان

الخامسة سبوح قدوس رب الملائكة والروح السادسة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم السابعة أستغفر الله العظيم الذي لا اله الا هو الحي القيوم وأسأله التوبة والمغفرة الثامنة اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد التاسعة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم العاشرة بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم تكرر كل واحدة من هذه الكلمات اماما ئة مرة أو سبعين مرة أو عشر مرات وهو أقله ليكون المجموع مائة ولا زم هذه الاذكار ولا تتكلم قبل طلوع الشمس ففي الخبر ان ذلك افضل من اعتاق عشر رقاب من ولد اسمعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام أعني الاشتغال بذلك الى طلوع الشمس من غير ان يتخلله كلام

آداب ما بعد طلوع الشمس الى الزوال

فاذا طلعت الشمس وارتفعت قدر رمح فصل ركعتين وذلك

وان الله يعلم المحسنين وهو الرؤف الذي بيده تيسير كل عسير فاسمع وتنبه وتفهم جدا بيان هذه الخصلة حتى تعلمها ثم تشمر للقيام بها واستعن بالله عز وجل حتى تعمل بما تعلم فان الشان كله في ذلك والله ولي التوفيق والهداية بفضله (فنقول) اعلم أولا يا رشدك الله في دينك وزادك في يقينك أن التقوى في قول شيوخنا رحمهم الله هو تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عفو عنك مثله حتى تحصل للشمن قوة العزم على تركها وقاية بينك وبين المعاصي هكذا قال شيخنا رحمه الله وذلك ان أصل لفظة التقوى في اللغة هو الوقوى بالواو وهو مصدر الوقاية يقال وقى يقي وقاية ووقوى فأبدلت عن الواو تاء كما هو في الوكلان والتكلان ونحوهما فقيل تقوى فاذن لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصي من قوة عزمه على تركها وتوطين قلبه على ذلك فهو صف حينئذ بانه متق ويقال لذلك التنزيه والعزم والتوطين تقوى والتقوى في القرآن تطلق على ثلاثة أشياء أحدها بمعنى الخشية والهيبة قال الله تعالى وإياي فاتقون وقال الله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله والثاني بمعنى الطاعة والعبادة قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته قال ابن عباس رضي الله عنهما اطيعوا الله حق طاعته وقال مجاهد هو ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر والثالث بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب فهذه هي الحقيقة في التقوى دون الاولين الا ترى ان الله تعالى يقول ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فاولئك هم الفائزون ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى فعلمت ان حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية وهي تنزيه القلب عما ذكرناه ثم قالوا رحمهم الله منازل التقوى ثلاثة تقوى عن الشرك وتقوى عن البدعة وتقوى عن المعاصي الفرعية ولقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في آية واحدة وهي قوله جل من قائل ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا فالتقوى الاولى تقوى عن الشرك والايمان الذي في مقابلتها التوحيد والتقوى الثانية عن البدعة والايمان الذي ذكر معها اقرار عقود السنة والجماعة والتقوى الثالثة عن المعاصي الفرعية والاقرار في هذه المنزلة فقابلها بالاحسان وهو الطاعة والاستقامة عليها فتكون منزلة مستقيمي الطاعة فالآية جمعت ذكر المنازل الثلاث منزلة الايمان ومنزلة السنة ومنزلة استقامة الطاعة فهذا ما قاله العلماء رحمهم الله في بيان معنى التقوى (قلت) وانا وجدت التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال وهو ما روى في الخبر المشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انما سمي المتقون متقين لتركهم ما لا باس به حذرا لما به بأس فأحببت ان أجمع بين ما قاله علماؤنا رحمهم الله وبين ما جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيكون حدا جامعا ومعنى بالغا (فأقول) التقوى هو اجتناب كل ما تخاف منه ضررا في دينك الا ترى انه يقال للمريض المتقي انه يتقي اذا اجتنب كل شيء يضره في بدنه من طعام أو شراب أو فاكهة أو غيرها ثم الذي يخاف منه الضرر في أمر الدين قسمان محض الحرام والمعصية وفضول الحلال لان الاشتغال بفضول الحلال والانهماك فيه يسحب صاحبه الى الحرام ومحض العصيان وذلك لشره النفس وطغيانها وتمرد الهوى وعصيانه فمن أراد أن يأمن الضرر في امر دينه اجتنب الخطر وامتنع عن فضول الحلال حذرا أن يجره الى محض

هذا زوال وقت الكراهة للصلاة فانها مكروهة من بعد زريضة الصبح الى الارتفاع فاذا أضحى النهار ومضى منه قريب من ربعه فصل صلاة الضحى أربعا أو ستا أو ثمانيا مثنى مثنى فقد نقلت هذه الاعداد كلها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة خير كلها فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقل فليس بين الطلوع والزوال راتبة الا هذه الصلوات فافضل منها من أوقاتك فلك فيه أربع حالات (الحالة الاولى) وهي الافضل ان تصرفه في طلب العلم النافع دون الفضول الذي أكب الناس عليه ونحوه علما والعلم النافع ما يزيد في خوفك من الله تعالى ويزيد في بصيرتك بعيوب نفسك ويزيد في معرفتك بعبادة ربك ويقلل من رغبتك في الدنيا ويزيد في رغبتك في الآخرة ويفتح بصيرتك بآفات أعمالك ويحثك على تحترزمنها ويطلعك على مكايد الشيطان وغروره وكيفية تلبيسه على علماء السوء حتى عرضهم لمقت الله تعالى وسخطه حيث اشتروا الدنيا بالدين واتخذوا العلم ذريعة ووسيلة الى أخس

الحرام على ما قاله صلى الله عليه وسلم لتركهم مالا بأس به حذرا مما به بأس يعني لتركهم فضول الحلال حذرا عن الوقوع في الحرام فالتقوى البالغة الجامعة اجتناب كل ما فيه ضرر لأمر الدين وهو المعصية والفضول هذا تفصيلها وأما اذا اردنا تحديدها على موضوع علم السير (فنقول) حد التقوى الجامع تنزيه القلب عن شر لم يسبق عنك مثله بقوة العزم على تركه حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شر ثم الشر ورضربان شر أصلي وهو ما نهى الله عنه تحريما كالمعاصي المحضة وشر غير أصلي وهو ما نهى عنه تأديبا وهو فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوة فالاولى تقوى فرض يلزم بتركها عذاب النار والثانية تقوى خير وأدب يلزم بتركها الحبس والحساب والتعيير واللوم فمن أتى بالاولى فهو في الدرجة الدنيا من التقوى وهي منزلة مستقيمي الطاعة ومن أتى بالاخرى فهو في الدرجة العليا من التقوى وذلك منزلة مستقيمي ترك المباح فاذا جمع العبد بينهما أعني اجتناب كل معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى وقام بحقها وجمع كل خير فيها وهذا هو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين وذلك منزلة الادب على باب الله تعالى فهذا معنى التقوى وبيانها في الجملة فافهمه موفقا ان شاء الله تعالى (فان قلت) فصل لنا الآن هذا المعنى في النفس واستعماله فيها فان الحاجة جاءت من هنا لك لنعلم كيف نلجم هذه النفس بهذا المعنى الذي فصلت من حقيقة التقوى (فأقول) أجل انما تفصيل في أمر هذه النفس أن تقوم عليها بقوة العزم فتمنعها من كل معصية وتصونها عن كل فضول فاذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى في عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك وأجبتها بلجام التقوى ولهذا الباب شرح يطول وقد أشرنا اليه في كتاب أحياء علوم الدين (وأما الذي) لا بد منه ههنا فان نقول من أراد أن يتقي الله فليراع الاعضاء الخمسة فانها من الاصول (وهي) العين والاذن واللسان والقلب والبطن فيحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضرر في امر الدين من معصية وحرام وفضول واسراف من حلال واذا حصل صيانة هذه الاعضاء فرجوان يكفي سائر اركانه ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى فدعت الحاجة الى بيان خمسة فصول لهذه الاعضاء وتفصيل ما يحرم في حق كل واحد منها على قدر ما يليق بهذا الكتاب

(الفصل الاول فصل العين)

ثم عليك وفقك الله وايانا بحفظ العين فانها سبب كل فتنة وآفة وأذكر في أمرها ثلاثة أصول كافية (أحدها) ما قال الله سبحانه قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون واعلم اني تأملت هذه الآية فاذا فيها مع قصرها ثلاثة معان عزيزة تأديب وتنبيه وتهديد * فاما التأديب فقوله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ولا بد للعبد من امتثال أمر السيد والتأدب بأدبه والا فيكون سيئ الادب فيحجب فلا يؤذن له في حضور المجلس والمثول بالحضرة فافهم هذه النكتة وتأمل ما تحتها فان فيها ما فيها * وأما التنبيه فقوله تعالى ذلك أزكى لهم وينطلق على معنيين والله أعلم الاول ذلك أطهر لقلوبهم والزكاة الطهارة والتزكية التطهير والثاني ذلك انفى لشرهم وأكثر والزكاة في الاصل النمو فنبه على أن في غض البصر تطهير القلب وتكثير الطاعة والخير وذلك انك ان لم تغض بصرك وأرخيت عنانه تنظر الى

أموال الملاطين وأكل أموال الاوقاف واليتامى والمساكين وصرفوا همتهم طول نهارهم الى طلب الجاه والمنزلة في قلوب الخلق واضطرهم ذلك الى المراآة والمماراة والمناقشة في الكلام والمباهاة وهذا الفن من العلم النافع قد جمعناه في كتاب أحياء علوم الدين فان كنت من أهله فحصله واعمل به ثم علمه وادع اليه فمن علم ذلك ثم عمل به ثم دعا اليه فذلك يدعى عظيما في ملكوت السموات بشهادة عيسى عليه السلام فاذا فرغت من ذلك وفرغت من اصلاح نفسك ظاهرا وباطنا وفضل شئ من أوقاتك فلا بأس ان تشتغل بعلم المذهب في الفقه لتعرف به الفروع النادرة في العبادات وطريق التوسط بين الخلق في الخصومات عند انكبابهم على الشهوات فذلك أيضا عند الفراغ من هذه المهمات من جملة فروض الكفايات فان دعتك نفسك الى ترك ما ذكرنا من الاوراد والاذكار

مالا يعنيك فلا يخلو من أن تقع عينك على حرام فان تعمدت فذنب كبير وربما تعلق قلبك بذلك فتهلك ان لم يرحم الله تعالى فلقد روى ان العبد لينظر النظرة يثقل فيها قلبه كما يثقل الاديم في الدباغ فلا ينتفع به أبدا وان كان سباحا فربما يشتغل قلبك به فجاءك الوساوس واخلوا طر بسببه ولعلك لا تصل اليه فتبقى مشغول القلب منقطعا عن الخير وان كنت لم تر ذلك كنت مستريحا عن ذلك كله وفي هذا المعنى ذكر عن عيسى صلوات الله عليه اياكم والنظرة فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة وقال ذو النون نعم حاجب الشهوات غض الابصار ولقد أحسن القائل

وأنت اذا أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فاذن مهما كنت غاضا للبصر حافظا للعين لا تنظر الى ما لا يعنيك ولا حاجة لك كنت نقي الصدر فارغ القلب مستريحا عن كثير من الوساوس سالم النفس عن الآفات متزايدا في الخيرات فتنبه لهذه النكتة الجامعة والله عز وجل الموفق بمنه وكرمه (وأما التهديد) فقوله تعالى ان الله خبير بما يصنعون وقال تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور وكفى بهذا تحذيرا لمن خاف مقام ربه فهذا أصل واحد من كتاب الله عز وجل (الاصل الثاني) ما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان النظر الى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام ابليس فمن تركها اذا قه الله تعالى طعم عبادة تسره وان وجدان حلاوة العبادة ولذة المناجاة من العابدين بمكان وهذا شيء مجرب علمه وتحققه من عمل به لانه اذا امتنع عن النظر الى ما لا يعنيه وجد لذة للعبادة وحلاوة للطاعة وللقلب صفوة لم يجدها قبل ذلك (الاصل الثالث) أن تنظر الى كل عضو من أعضائك يصلح لماذا وينظر له ماذا فعلى حسب ذلك تصونه وتحفظه فالرجل للمشي في رياض الجنة وقصورها واليد لكاس الشراب وتناول الاثمار وكذلك في سائر الاعضاء فالعين انما هي للنظر الى رب العالمين سبحانه وليس في الدارين كرامة أجل وأكبر من ذلك فحقيق لشيء ينتظر ويرجى له مثل هذه الكرامة أن يصان ويحفظ ويعز ويكرم فهذه الاصول الثلاثة اذا أحسنت التأمل فيها كفتك المؤنة في هذا الفصل والله ولي التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل

(الفصل الثاني الاذن)

فعليك بصيانة سمعك عن الخنا والفضول وذلك لامرين أحدهما ما روى ان المستمع شريك المتكلم وفي ذلك يقول القائل

تحرز من الطرق أوساطها * وعد عن الجانب المشتبه
وسمعك صن عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به
فانك عند استماع القبيح * شريك لقائله فانتبه

والثاني أن ذلك يهيج الخواطر والوساوس في القلب ثم من ذلك يعدو الاشتغال في البدن فما يبقى للعبادة شيء (ثم اعلم) أن الكلام الذي يقع في قلب الانسان وسمعه بمنزلة الطعام الذي يقع في جوفه فمنه الضار ومنه النافع ومنه الغذاء ومنه السم بل ان بقاء الكلام بتجرعه أكثر وأبلغ من الطعام فان الطعام يزول عن المعدة بيوم وغيره وربما يبقى أثره زمانا ثم يزول والكلام يزيل أثره من

اشتغالا بذلك فاعلم ان الشيطان اللعين قد دس في قلبك الداء الدفين وهو حب الجاه والمال فاياك أن تغتر به فتكون ضحكة للشيطان فيهلكك ثم يسخر بك فان جربت نفسك مدة في الاوراد والعبادات فكانت لا تستثقلها كسلا عنها لكن ظهرت رغبتك في تحصيل العلم النافع ولم تردبه الا وجه الله تعالى والدار الآخرة فذلك أفضل من نوافل العبادات مهما صحت النية ولكن الشأن في صحة النية فان لم تصح النية فهي معدن غرور الجهال ومزلة أقدام الرجال (الحالة الثانية) أن لا تقدر على تحصيل العلم النافع لكن تشتغل بوظائف العبادات من الذكر والقرآن والتسبيحات والصلاة فذلك من درجة العابدين وسير الصالحين وتكون أيضا بذلك من الفائزين (الحالة الثالثة) أن تشتغل بما يصل منه خير للمسلمين ويدخل به سرور على قلوب المؤمنين أو تيسر به الاعمال الصالحة للصالحين كخدمة الفقهاء والصوفية وأهل الدين والتردد في أشغالهم

جسم الانسان وأما الكلام الذي وقع في قلبه فربما يبقى معه جميع عمره ولا ينساه فان كان رديئا فلا يزال يتعبه ويعيبه وترد بسببه خواطر في القلب ووساوس يحتاج الى أن يعرض عنها ويعدل بقلبه عن تذكرها ويستعيذ بالله من شرها ولا يأمن أن يحمله على بلية ويحركه حتى يقع آخر الامر في آفة عظيمة بسبب ذلك ولو كنت حفظت سمعك عما لا يعنيك كنت عن هذه المؤن مستريحا فليتنظر العاقل في ذلك وبالله التوفيق

(الفصل الثالث اللسان)

ثم عليك بحفظ اللسان وضبطه وتقييده فانه أشد الاعضاء جماحا وطغيانا وأكثرها فسادا وعدوانا ولقد روينا عن سفيان بن عبد الله أنه قال قلت يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي فأخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه ثم قال هذا وعن يونس بن عبيد الله اني وجدت نفسي تحتمل مؤنة الصيام في الحر الشديد بالبصرة ولا تحتمل ترك كلمة لا تعنيها فعليك اذن بالحفظ جدا وبذل المجهود وتذكر خمسة أصول أحدها ما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ان ابن آدم اذا أصبح بكرت الاعضاء كلها الى اللسان وقلن له نشدك الله أن تستقيم فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا (قلت) والمعنى فيه والله أعلم أن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الانسان بالتوفيق والخذلان يؤكد هذا المعنى ما حكي عن مالك بن دينار أنه قال اذا رأيت قساوة في قلبك ووهنا في بدنك وحرمانا في رزقك فاعلم انك قد تكلمت فيما لا يعنيك والاصل الثاني حفظ وقتك فان أكثر ما يتكلم به الانسان من غير ذكر الله تعالى فعلى الاقل يكون لغوا يضيع الوقت به وذكر أن حسان بن أبي سنان مر على غرفة بنيت فقال منذ كم بنيت هذه ثم أقبل على نفسه وقال يا نفسي الغرور تسألين عما لا يعنيك وعاتبها يوما سنة (قلت) فيا طوبى للمهتمين بانفسهم ويا ويح القائلين الذين خلعوا العذار ورخوا العنان والله المستعان واقد صدق القائل وأحسن حيث يقول

واغتنم ركعتين في ظلمة الليـ ... ـل اذا كنت خاليا مستريحا
واذا ما هممت باللغو في البا ... طل فاجعل مكانه تسبيحا
ولزوم السكوت خير من النطـ ... ـق وان كنت في الكلام فصيحا

والاصل الثالث حفظ الاعمال الصالحة فان من لم يصن لسانه وأكثر الكلام يقع لا محالة في غيبة الناس كما قيل من كثر لغطه كثر سقطه والغيبة هي الصاعقة المهلكة للطاعات على ما قيل ان مثل من يغتاب الناس مثل من نصب منجنيقا فهو يرمي به حسناته شرقا وغربا يمينا وشمالا ويلغنا عن الحسن أنه قيل له يا أبا سعيد ان فلانا اغتابك فبعث اليه بطبق فيه رطب وقال بلغني أنك أهديت الي حسناتك فأحببت أن أكافئك وذكرت الغيبة عند ابن المبارك فقال لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت أمي لانها أحق بحسناتي وذكر أنه فات حاتما الاصم ليلة القيام فعزته زوجته فقال ان أقواما صلوا بالليل المبارحة فلما أصبحوا ألوا مني فتكون صلاتهم يوم القيامة في ميزاني (والاصل الرابع) السلامة من آفات الدنيا على ما قال سفيان لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك وقال الآخر لا تبسط لسانك فيقبض عليك شأنك وانشدوا

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى ... ان البلاء موكل بالمنطق

والسعي في اطعام الفقراء والمساكين والتردد مشلا على المرضى بالعيادة وعلى الجنائز بالتشييع فكل ذلك أفضل من النوافل فان هذه عبادات وفيها رفق للمسلمين (الحالة الرابعة) ان لم تقو على ذلك فاشتغل بحاجاتك اكتسابا على نفسك أو على عيالك وقد سلم المسلمون منك وأمنوا من لسانك ويدك وسلم الناس دينك اذ لم ترتكب معصية فتنال به درجة أصحاب اليمين ان لم تكن من أهل الترقي الى مقامات السابقين فهذه أقل الدرجات في مقامات الدين وما بعد هذا فهو من مراتع الشياطين وذلك بان تشتغل والعياذ بالله بما يهدم دينك أو تؤذي عبدا من عباد الله فهذه رتبة الهالكين فاياك أن تكون في هذه الطبقة واعلم أن العبد في حق دينه على ثلاث درجات اما سالم وهو المقتصر على أداء الفرائض وترك المعاصي أو رابح وهو المتطوع بالقربات والنوافل أو خاسر وهو المصر عن اللوازم فان لم تقدر أن تكون رابحا فاجتهد أن تكون سالما واياك ثم اياك

(ولابن المبارك رضى الله عنه)

الا احفظ لسانك ان اللسان * سريع الى المرء فى قتله

وان اللسان دليل الفؤاد * يدل الرجال على عقله

(ولابن أبى المطيع رحمه الله)

لسان المرء ليث فى كمين * اذا خلى عليه له اغاره

فصنه عن انخنا بلجام صمت * يكن لك من بليات ستاره

وفى المثل السائر رب كلمة تقول لصاحبها دعنى نسأل الله التوفيق برحمته (الاصل الخامس) ذكر آفات الآخرة وعواقبها وأذكر فيه نكتة واحدة وهى أنه لا يخلو اما ان تقول قولا محظورا حراما أو قولا مباحا من فضول لا يعنيك فان كان محظورا حراما ففيه من عذاب الله تعالى الذى لا طاقة لك به فقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليلة أسرى بى رأيت فى النار قوما يأكون الجيف فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يأكون لحوم الناس (ولقد قال) صلى الله عليه وسلم لعاذ اقطع لسانك عن حملة القرآن وطلاب العلم ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب النار وعن أبى قلابة أنه قال ان فى الغيبة خراب القلب من الهدى فنسأل الله تعالى العصمة من ذلك بفضله هذا فى الكلام المحظور وأما المباح ففيه أربعة امور أحدها شغل الكرام الكاتبين بما لا خير فيه ولا فائدة وحق للمرء ان يستحى منهما فلا يؤذيهما (قال الله تعالى) ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد والثانى ارسال كتاب الى الله سبحانه وتعالى من اللغو والهذر فليحذر العبد من ذلك وليخش الله عز وجل وذكر أن بعضهم نظر الى رجل يتكلم بالخنا فقال ياهذا ويحك انما تملى كتابا الى ربك فانظر ماذا تملى والثالث قراءته بين يدى الملك الجبار يوم القيامة على رؤس الاشهاد بين الشدائد والاهوال عطشان عريان جيعان منقطعا عن الجنة محبوسا عن النعمة والرابع اللوم والتعيير عاذا قلت وانقطاع الحجة والخصام من رب العزة فقد قيل ايالك والفضول فان حسابه يطول وكفى بهذه الاصول واعظا لمن اتعظ وقد بسطنا فى كتاب أسرار معاملات الدين ما فيه مقنع فانظر ما فيه تجد الشفاء

(الفصل الرابع القلب)

ثم عليك بحفظه واصلاحه وحسن النظر فى ذلك وبذل الجهود فانه أعظم هذه الاعضاء خطرا وأكثرها أثرا وأدقها أمرا وأشقها اصلاحا وأصعبها حالا وأذكر فيه خمسة أصول مقنعة الاصل الاول قوله تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور وقوله تعالى والله يعلم ما فى قلوبكم وقوله تعالى انه عليم بذات الصدور كم ذكره وكرر ذكره فى القرآن فكفى باطلاع العليم انذارا وتهديدا للخواص من العباد لان المعاملة مع علام الغيوب خطر خطير فانظر ماذا يعلم من قلبك الاصل الثانى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم وأبشاركم وانما ينظر الى قلوبكم فالقلب اذن موضع نظر رب العالمين فيما يجعلهم يهتمون بوجهه الذى هو موضع نظر الخلق فيغسله وينظفه من الاقذار والادناس ويزينه بما أمكنه لئلا يطلع مخلوق فيه على عيب ولا يهتم بقلبه الذى هو موضع نظر رب العالمين فيطهره ويزينه ويطيبه كى لا يطلع الرب جل جلاله على دنس فيه وشين وآفة وعيب بل يهمله بفضائح وأخطار وقبائح لو اطلع الخلق على واحد منها لهجروه

ان تكون خاسرا والعبد فى حق سائر العباد له ثلاث درجات (الاولى) أن ينزل فى حقهم منزلة الكرام البررة من الملائكة وهو أن يسعى فى أغراضهم وقضائهم وادخال السرور على قلوبهم (الثانية) أن ينزل فى حقهم منزلة البهائم والجمادات فلا ينالهم خيره ولكن يكف عنهم شره (الثالثة) أن ينزل فى حقهم منزلة العقارب والحيات والسباع الضاريات لا يرجى خيره ويتقى شره فان لم تقدر أن تلحق بأفق الملائكة فاحذر أن تنزل عن درجة البهائم والجمادات الى مراتب العقارب والحيات والسباع الضاريات فان رضيت لنفسك النزول من أعلى عليين فسلا ترضى لها بالهوى الى أسفل السافلين فلعلك تنجو كفافا لا لك ولا عليك فعليك فى بياض نهارك أن لا تشتغل الا بما ينفعك فى معادك أو معاشك الذى لا تستغنى عنه وعن الاستعانة به على معادك أو معاشك فان جهزت همم القيام بحق دينك مع مخالطة الناس وكنت لا تسلم فالعزلة أولى لك فعليك بها ففيها النجاة والسلامة فان كانت

وتبرؤا منه وطردوه والله المستعان الاصل الثالث أن القلب ملك مطاع ورئيس متبوع فالاعضاء كلها له تبع فاذا صلح المتبوع صلح التبع واذا استقام الملك استقامت الرعية وبين لك ذلك ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب واذا كان صلاح الكل في ذلك وجب صرف العناية اليه الاصل الرابع أن القلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس وكل معنى خطير أولها العقل وأجلها معرفة الله تعالى التي هي سبب سعادة الدارين ثم البصائر التي بها التقدم والوجاهة عند الله عز وجل ثم النية الخالصة في الطاعات التي يتعلق بها ثواب الابد ثم أنواع العلوم والحكم التي هي شرف العبد وسائر الاخلاق الشريفة والخصال الحميدة التي بها يحصل تفاضل الرجال على ما فصلنا وشرحنا في كتاب اسرار معاملات الدين وحق لمثل هذه الخزانة أن تحفظ وتصان عن الادناس والآفات وتحرس وتحرز من السراق والقطاع وتكرم وتجل بضروب الكرامات اذ لا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس ولا يظفر بها والعياذ بالله عدو الاصل الخامس اني تأملت حاله فوجدت له خمسة أحوال ليست لغيره من أعضاء ابن آدم أحدها أن العدو قاصد اليه مقبل عليه ملازم له فان الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فهو منزل الالهام والوسوسة يقرعانه بالدعوتين أبدا الملك والشيطان والثاني أن الشغل له أكثر فان العقل والهوى كلاهما فيه فهو معترك العسكرين الهوى وجنوده والعقل وجنوده فهو أبدا بين محاربتهما ومقاتلتهما ومناقضهما وحق بالثغر أن يحرس ويحصن ولا يغفل عنه والثالث أن العوارض له أكثر فان الخواطر له كالسهام لا تزال تقع فيه وكالمطر لا تزال تمطر عليه ليلا ونهارا لا تنقطع ولا أنت تقدر على منعها فتمنع وليس بمنزلة العين التي بين الجفنين تغمض فتستريح أو تكون في موضع خال أو ليل مظلم فتكفي رؤيتهما أو كاللسان الذي هو من وراء الحاجبين الاسنان والشفتين وأنت القادر على منعه وتسكينه بل القلب غرض للخواطر لا تقدر على منعها والتحفظ عنها بحال وهي لا تنقطع عنك بوقت ثم النفس مسارعة الى اتباعها والامتناع عن ذلك في مجهود الطاقة أمر شديد ومحنة عظيمة والرابع أن علاجه عسر اذ هو غيب عنك فلا تكاد تشعر حتى تدب فيه آفة وتحدث له حالة فتحتاج الى ان تبحث عن ذلك أتم البحث بطول الجهد ودقيق النظر وكثرة الرياضة والخامس أن الآفات اليه أسرع فهو الى الانقلاب أقرب فلقد قيل ان القلب أسرع انقلابا من القدر في غليانها ولذلك قيل

ما سمي القلب الا من تقلبه * والرأي يضرب بالانسان أطوارا

(ثم) ان زل القلب والعياذ بالله فزلته أعظم وروعه أصعب وأفظع اذا أدناه قسوة ومال الى غير الله سبحانه وتعالى وصنعاه ختم بكفر والعياذ بالله تعالى أما تسمع قوله تعالى أبى واستكبر وكان من الكافرين فكان الكبر بقلبه فحمله على الاباء والكفر بظاهره أما تسمع قوله تعالى ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فكان الميل واتباع الهوى بقلبه فحمله على ذلك الذنب المشؤم بنفسه أما تسمع قوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ولهذا المعنى أيها الرجل خاف عباد الله تعالى الخواص على قلوبهم وبكوا عليها وصرفوا عنايتهم اليها (قال الله سبحانه في وصفهم) يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار جعلنا الله

* إياكم

الوساوس في العزلة تجاذبك الى ما لا يرضى الله تعالى ولم تقدر على قمعها بوظائف العبادات فعليك بالنوم فهو أحسن أحوالك وأحوالنا اذا عجزنا عن الغنيمة رضينا بالسلامة في الهزيمة فما أخس حال من سلامة دينه في تعطيل حياته اذ النوم أخو الموت وهو تعطيل الحياة والتحاق بالجمادات

(آداب الاستعداد لسائر الصلوات)

ينبغي ان تستعد قبل الزوال لصلاة الظهر فتقدم القيلولة ان كان لك قيام في الليل أو سهر في الخير فان فيها معونة على قيام الليل كما أن في السحور معونة على صيام النهار والقيلولة من غير قيام بالليل كالسحور من غير صيام بالنهار واجتهد أن تستيقظ قبل الزوال وتتوضأ وتحضر المسجد وتصلي تحية المسجد وتنتظر المؤذن فتجيبه ثم تقوم فتصلي أربع ركعات عقيب الزوال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطولهن ويقول هذا وقت تفتح فيه أبواب السماء فاحب أن يرفع لي فيه عمل صالح وهذه الاربع قبل الظهر سنة

وايا كم من المغترين بالعبر المهتمين بمواضع الخطر الموفقين لاصلاح قلوبهم بحسن النظر انه أرحم الراحمين (فان قيل) ان أمر هذا القلب لمهم جدا فأخبرنا عن المعاني التي تصلحه وعن الآفات التي تعترضه فتفسده حتى ان نوفق للاجتهاد في العمل بذلك (يقال له اعلم) ان تفصيل هذه المعاني اطويل لا يحتمله هذا الكتاب وانما علماء الآخرة عنوا باستخراج ذلك وتصنيفه في هذه النكتة لا غير وقد ذكروا فيما يحتاج اليه من ذلك نحوا من ثمانين خصلة محمودة وفي اضدادها المذمومة ثم من الافعال والمساعي الواجبة والمحظورة نحو ذلك في سائر تفاصيلها ولعمري ان من اهمه أمر دينه وانتبه من رقدة الغافلين ونظر لنفسه فلا يكون تحصيل جميع ذلك والعمل به عليه كثيرا اذا وفقه الله تعالى وقد ذكرنا نبذة منها في شرح عجائب القلب من كتاب احياء علوم الدين وأتينا على شرح جميعها بتفاصيلها وكيفية علاجها في كتاب أسرار معاملات الدين وهو كتاب مستقل بنفسه عظيم الفائدة ولا ينتفع به الا فحول العلماء الراسخون في العلم وموضوع هذا الكتاب أن ينتفع به المبتدي والمنتهي والقوي والضعيف فنظرنا في الاصول التي لا بد من ذكرها في علاج القلب والحاجة اليها ماسة ولا غنية عنها البتة في شأن العبادة فوجدناها أربعة أمور هي مداخل العابدين وآفات المجتهدين وهي فتن القلوب وبليات النفوس تعوق وتشين وتفسد وتتلف وأربعة في مقابلتها فيها قوام العباد وانتظام العبادة وصلاح القلوب * فالآفات الاربع الامل والاستعجال والحسد والكبر والمناقب الاربع قصر الامل والتأني في الامور والنصيحة للخلق والتواضع والخشوع فهذه هي الاصول في صلاح القلوب وفسادها والنكتة التي عليها المدار فلتبذل المجهود في التحرز من هذه الآفات والتحصيل لهذه المناقب تكف المؤن وتظفر بالمقصود ان شاء الله تعالى وسأخبرك عن هذه الآفات بكلمات وجيزة مقنعة (أما طول الامل) فانه العائق عن كل خير وطاعة والجالب لكل شر وفتنة وانه الداء العضال الذي يوقع الخلق في أنواع البليات فاعلم انك اذا طال أملك عالج لذلك منه أربعة أشياء أحدها ترك الطاعة والكسل فيها تقول سوف أفعل والايام بين يدي ولا يفوتني ذلك ولقد صدق داود الطائي رحمه الله حيث قال من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ومن طال أمله ساء عمله وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله الامل قاطع من كل خير والطمع مانع من كل حق والصبر صابر الى كل ظفر والنفس داعية الى كل شر والثاني ترك التوبة وتسويفها تقول سوف أتوب وفي الايام سعة وأنا شاب وسني قليل والتوبة بين يدي وأنا قادر عليها متى رمتها وربما اغتاله الحمام على الاصرار فاختطفه الاجل قبل اصلاح العمل والثالث الحرص على الجمع والاشتغال بالدنيا عن الآخرة تقول أخاف الفقر في الكبر وربما أضعف عن الاكتساب ولا بد لي من شيء فاضل أدخره لمرض أو هرم أو فقر هذا ونحوه مما يحرك الى الرغبة في الدنيا والحرص عليها والاهتمام للرزق تقول ايش آكل وايش أشرب وايش ألبس وهذا الشتاء وهذا الصيف ومالي شيء ولعل العمر يطول فأحتاج والحاجة مع الشيب شديدة ولا بد لي من قوت وغنية عن الناس هذه وامثالها تحرك الى طلب الدنيا والرغبة فيها والجمع لها والمنع لما عندك منها وأقل ما في الباب أن يشغل قلبك ويضيع عليك عمرك أو وقتك وبكثرهمك وغمك بلا فائدة ولا طائل على ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه انه قال قتلني هم يوم لم أدركه قيل وكيف ذلك يا أبا ذر قال ان

مؤكدة في الخبر أن من صلاهن فأحسن ركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له الى الليل ثم تصلي الفرض مع الامام ثم تصلي بعد الفرض ركعتين فهما من الرواتب الثابتة ولا تشتغل الى العصر الا بتعلم علم أو اعانة مسلم أو قراءة قرآن أو سعي في معاش تستعين به على دينك * ثم تصلي أربع ركعات قبل العصر وهي سنة مؤكدة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ صلى أربعا قبل العصر فاجتهد أن يتالله دعاؤه صلى الله عليه وسلم ولا تشتغل بعد العصر الا بمثل ما سبق قبله ولا ينبغي أن تكون أوقاتك مهملة فتشتغل في كل وقت بما اتفق كيف اتفق بل ينبغي ان تحاسب نفسك وترتب أورادك ووظائفك في ليلك ونهارك وتعين لكل وقت شغلا لا تتعداه ولا تؤثر فيه سواه فبذلك تظهر بركة الاوقات فاما اذا تركت نفسك سدى مهملا اهمال البهائم لا تدري بماذا تشتغل في كل وقت فينقضي أكثر أوقاتك ضائعا وفاتك عمرك

أمنى جاوز أجلى والرابع القسوة بالقلب والنسيان للآخرة لانك اذا أملت العيش الطويل لاتذكر الموت والقبر كما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ان اخوف ما أخاف عليكم اثنتان طول الامل واتباع الهوى ألا وان طول الامل ينسي الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق فاذن يصير فكرك ومعظم أمرك في حديث الدنيا وأسباب العيش وفي صحبة الخلق ونحوها فيقسو القلب من ذلك وانما رقة القلب وصفوته بذكر الموت والقبر والثواب والعقاب وأحوال الآخرة واذا لم يكن شيء من ذلك فمن أين يكون لقلبك رقة وصفوة قال الله تعالى فطال عليهم الامد فقست قلوبهم فاذن أنت اذا طولت أملك قلت طاعتك وتأخرت توبتك وكثرت معصيتك واشتد حرصك وقسا قلبك وعظمت غفلتك عن العاقبة فذهبت والعياذ بالله ان لم يرحم الله تعالى آخرتك فأي حال اسوأ من هذه وأي آفة أعظم من هذه وكل هذا بسبب طول الامل وأما ان قصرت أملك وقربت من نفسك موتك وتذكرت حال اقرانك واخوانك الذين غافصهم الموت في وقت لم يحتسبوه واعلم حالك مثل حالهم فاحذري يا نفسي الغرور واذكري ما قال عوف بن عبد الله رحمه الله كم من مستقبل يوما لم يستكمله ومنتظر غدا لم يدركه لو رأيت الاجل ومسيره لابغضت الامل وغروره اما سمعت قول عيسى ابن مريم عليه السلام الدنيا ثلاثة أيام امس مضى ما يدلك منه شيء وغدا لاتدري أتدركه ام لا ويوم أنت فيه فاغتنمه ثم قول أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الدنيا ثلاث ساعات ساعة مضت وساعة أنت فيها وساعة لاتدري اتدركها أم لا فاسعد عملك بالحقيقة الساعة واحدة اذ الموت من ساعة الى ساعة ثم قول شيخنا رحمه الله الدنيا ثلاثة انفاس نفس مضى عملت فيه ما عملت ونفس أنت فيه ونفس لاتدري اتدركه أم لا اذكم من ميت نفس نفسا ففاجأه الموت قبل النفس الآخر فاسعد عملك الانفاس واحدا بالحقيقة لا يوما ولا ساعة فبادر في هذا النفس الواحد الى الطاعة قبل أن يفوت والى التوبة فلعلك في النفس الثاني تموت ولا تهتم بالرزق فلعلك لا تعيش فتحتاج اليه فيكون وقتك ضائعا والهم فضلا وما عسى أن يهتم الانسان بالرزق ليوم واحد أو ساعة واحدة أو نفس واحد أما تذكر ما قال النبي صلى الله عليه وسلم لاسامة أما تعجبون من اسامة المشتري بصبر شهر ان اسامة لطويل الامل والله ما وضعت قدما فظننت أني أرفعها ولا لقمة فظننت اني أسيغها حتى يدركني الموت والذي نفسي بيده ان ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين فاذا أنت أيها الرجل تذكرت هذه الاذكار وواظبت على ذلك بالاعادة والتكرار قصر أملك باذن الله تعالى فحينئذ ترى نفسك تبادر الى الطاعات وتعجل توبتك فتسقط عنك معصيتك وترهد في الدنيا وطلبها فيخف حسابك وتعتقك ويقع قلبك في تذكر الآخرة وأهوالها وما هو الامن نفس الى نفس تصير اليها وتعاينها واحدا فواحدا فتزول عنك القسوة وتبدو لك الرقة والصفوة وتستشعر عند ذلك الخوف من الله تعالى والخشية فيستقيم لك أمر عبادتك ويقوى الرجاء في ان تستعد في عاقبتك وتظفر بالمراد في آخرتك وكل ذلك بعد فضل الله تعالى بسبب هذه الخصلة التي هي قصر الامل ولقد حكي ان زوارة ابن أوفى رحمه الله قيل له في النوم بعد موته أي الاعمال أبلغ فيما عندكم قال الرضا وقصر الامل فانظر لنفسك أيها الاخ وابذل المجهود في هذا الاصل الكبير فانه الاهم والاعظم في صلاح القلب والنفس والله تعالى ولي التوفيق بفضله ورحمته (وأما الحسد) فانه المفسد للطاعات الباعث على

وعمرك رأس مالك وعليه تجارتك وبه وصولك الى نعيم دار الابد في جوار الله تعالى فكل نفس من أنفاسك جوهرة لاقيمة لها اذ لا بدل له فاذا فات فلا عود له فلا تكن كالحمق المغرورين الذين يفرحون كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم فأي خير في مال يزيد وعمر ينقص ولا تفرح الا بزيادة علم أو عمل صالح فافهم ما وفقك الله يصحبانك في القبر حيث يتخلف عنك أهلك ومالك وولدك وأصدقاؤك * ثم اذا اصفرت الشمس فاجتهد أن تعود الى المسجد قبل الغروب وتشتغل بالتسبيح والاستغفار فان فضل هذا الوقت كفضل ما قبل الطلوع قال الله تعالى وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها واقرأ قبل غروب الشمس وضحاها والليل اذا يغشى والمعوذتين ولتغرب عليك الشمس وأنت في الاستغفار فاذا سمعت الاذان فأجب وقل بعده اللهم اني أسألك عند اقبال ليلك وادبار نهارك وحضور صلاتك وأصوات دعاتك أن تؤتي محمدا الوسيلة

انقطعت وانه الداء العضال الذى يبتلى به الكثير من القراء والعلماء فضلا عن العامة والجهال حتى أهلكهم وأوردهم النار (أما تسمع) قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة يدخلون النار بستة العرب بالعصبية والامراء بالجور والدهاقين بالكبر والتجار بالخيانة وأهل الرساتيق بالجهل والعلماء بالحسد وان بلية بلغ شؤمها ان أوردت العلماء النار فحقيق أن يحذرمنها واعلم أن الحسد يجمع خمسة أشياء أحدها افساد الطاعات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والثانى فعل المعاصى والشر وعلى ما قال وهب بن منبه رحمه الله للحاسد ثلاث علامات يتملق اذا شهد ويغتاب اذا غاب ويشمت بالمصيبة اذا نزلت (قلت) وحسبك ان الله تعالى أمرنا بالاستعاذة من شر الحاسد فقال سبحانه ومن شر حاسد اذا حسد كما أمرنا بالاستعاذة من شر الشيطان والساحر فانظر كم له من الشر والفتنة حتى أنزله منزلة الشيطان والساحر حتى ان لا مستعان عليه ولا مستعاذا لا بالله رب العالمين والثالث التعب والهم من غير فائدة بل مع ذلك وزر ومعصية كما قال ابن السماك رحمه الله لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من الحاسد نفس دائم وعقل هائم وغم لازم والرابع عمى القلب حتى لا يكاد يفهم حكما من أحكام الله عز وجل فلقد قال سفيان الثورى رحمه الله عليك بطول الصمت تملك الورع ولا تكن حريصا على الدنيا تكن حافظا ولا تكن طماعا تنج من ألسن الناس ولا تكن حاسدا تكن سريع الفهم والخامس الحرمان والخذلان ولا يكاد يظفر بمراد وينصر على عدو كما قال حاتم الاصم رحمه الله الضغين غير ذى دين والعائب غير عابد والغمام غير مأمون والحسود غير منصور (قلت) الحسود كيف يظفر بمراده ومراده زوال نعم الله تعالى عن عباده المسلمين وكيف ينصر على أعدائه وهم عباد الله المؤمنون ولقد أحسن ابو يعقوب رحمه الله فيما قال اللهم مسيرنا على تمام النعم على عبادك وحسن أحوالهم وانه داع يشهد عليك الطاعة ويكثر شرك ومعصيتك ويمنعك راحة النفس وفهم القلب والنصرة على الاعداء والظفر بالمطلوب فاى داء يكون أدوأ منه فعليك بمعالجة نفسك من ذلك والله تعالى ولى التوفيق بمنه وكرمه * (وأما الاستعجال والترقى فى الامر) فانه الخصلة المقوتة للمقاصد الموقعة فى المعاصى فان منها سددا وآفاتها أربع احداها أن يقصد العابد بمنزلة فى الخير والاستقامة ويجتهد فربما يستعجل فى نيلها وليس ذلك بوقتها فاما أن يقتر ويأس فيترك الاجتهاد فيحرم تلك المنزلة واما أن يغلو فى الجهد والتعب النفس فينقطع عن تلك المنزلة فهو بين افراط وتفريط وكلاهما نتيجة الاستعجال (ولقد) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان دينا هذا متين فأوغل فيه برفق فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى وفى المثل السائر ان لم تستعجل تصل ولقائل

قد يدرك المتأنى بعض حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزلل

والثانية أن يكون للعابد حاجة فيدعو الله تعالى فيها ويكثر الدعاء ويجتهد فربما يستعجل الاجابة قبل وقتها فلا يجدها فيقتر ويسأم فيترك الدعاء فيحرم حاجته ومقصوده والثالثة أن يظلمه انسان فيغيظه فيعجل بالدعاء عليه فيهلك بسببه وربما يجاوز عن الحق فيقع فى معصية وهلاك قال الله تعالى ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا والرابعة أن أصل العبادة وملاكها الورع والورع أصله النظر البالغ فى كل شئ والبحث التام عن كل شئ هو

والفضيلة والشرف والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته انك لا تخلف الميعاد والدعاء كما سبق * ثم صل الفرض بعد جواب المؤذن والاقامة وصل بعده ركعتين قبل أن تتكلم فيهما راتبة المغرب وان صليت بعدهما أربعا فهى أيضا سنة * وان أمكنك أن تنوى الاعتكاف الى العشاء وتحيى ما بين العشاءين بصلاة فقد ورد فى فضل ذلك ما لا يحصى وهى ناشئة الليل لانها أول نشأة وهى صلاة الاوابين وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع فقال هى الصلاة ما بين العشاءين اتها تذهب بملغاة أول النهار وآخره والملغيات جمع ملغاة وهى من اللغو * فاذا دخل وقت العشاء فصل أربع ركعات قبل الفرض احياء لما بين الاذانين ففضل ذلك كثير * وفى الخبر ان الدعاء بين الاذان والاقامة لا يرد ثم صل الفرض وصل الراتبة ركعتين واقرأ فيهما سورة الم السجدة وتبارك الملك أو سورة يس والدخان فى ذلك ما أثر عن رسول الله صلى

بصدده من أكل وشرب ولبس وكلام وفعل فاذا كان الرجل مستعجلا في الامور غير متأن ولا متثبت متبين لم يقع منه توقف ونظر في الامور كما يجب ويتسارع الى كل كلام فيقع في الزلل والى اكل طعام فيقع في الحرام والشبهة وكذلك في كل أمر فيفوته الورع وأي خير في عبادة بلا ورع واذا كان في خصلة الانقطاع عن منازل الخير وحرمان الحاجات وهلاك المسلمين وهلاكه ثم خطر فوت الورع الذي هو رأس المال فحق للانسان ان يهتم لها بالازالة واصلاح النفس بعدها والله ولي التوفيق منه وفضله * (وأما الكبر) فانه الخصلة المهلكة رأسا اما تسمع قوله تعالى أبى واستكبر وكان من الكافرين وليست هذه الخصلة بمنزلة سائر الخصال التي تقدح في عمل وتضر بفرع واغا تضر بالاصل وتقدح في الدين والاعتقاد واذا قويت وغلبت لا تتدارك والعياذ بالله ثم أقل ما يهيج منها على صاحبها أربع آفات احداها حرمان الحق وعمى القلب عن معرفة آيات الله تعالى وفهم احكام الله تعالى قال الله تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وقال تعالى كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار والثانية المقت والبغض من الله تعالى قال الله تعالى انه لا يحب المستكبرين (وروى) أن موسى عليه السلام قال يارب من أبغض خلقك اليك قال من تكبر قلبه وغلظ لسانه وصفق عينه وبخلت يده وساء خلقه والثالثة الخزي والنكال في الدنيا والآخرة قال خاتم رحمه الله اجتنب أن يدركك الموت على ثلاثة على الكبر والحرص والخيلاء فان المتكبر لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل أهله وخدامه والحريص لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يحوجه الى كسرة أو شربة ولا يجده مساغا والختال لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يمزقه بيوله وقذره (وقيل) من تكبر بغير حق أورثه الله تعالى ذلا بحق والرابعة النار والعذاب في العقبى على ما روى ان الله تعالى يقول الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني في واحد منهما أدخلته نار جهنم والمعنى ان العظمة والكبرياء من الصفات التي تختص بي فلا تنبغي لاحد غيري كما ان رداء الانسان وازاره يختص به لا يشاركه فيه وان خصلة تفوت تلك معرفة الحق وفهم معاني آيات الله تعالى وأحكامه الذي هو أصل الامر كله ثم تمزلك المقت من الله سبحانه وتعالى والخزي في الدنيا والنار في الآخرة لا ينبغي لعاقل أن يغفل عن نفسه فلا يصلحها بازالتها بالحذر والتحرز والاستعاذة بالله من ذلك وهو جل وعز ولي العصمة والتوفيق منه فهذا بعض ما حضرنا في هذه الخصال الاربع من الآفات وحسب العاقل واحدة منها فضلا عن الكل اذا أهمه أمر قلبه وحاسبه عن أمر دينه والله الموفق (فان قلت) فاذا كان الامر بهذه المنزلة من آفات هذه الخصال ولزوم التحفظ منها فلا بد من معرفة حقيقتها وحدها فبين لنا ذلك لنعرف كيف الطريق الى التحفظ عنها (فاعلم) ان في كل واحدة منها كلاما كثيرا وقد أشبعنا القول فيه في كتاب الاحياء والاسرار ونحن نذكر ههنا ما لا بد من ذكره ولا يقع الغنى عنه فنقول وبالله التوفيق (أما الامل) فقال أكثر علمائنا رحمهم الله انه ارادة الحياة للوقت المتراخي بالحكم وقصر الامل ترك الحكم فيه بأن تقيده بالاستثناء بمشيئة الله وعلمه في الذكر أو بشرط الصلاح في الارادة فاذن ان ذكرت حياتك بأني أعيش بعد نفس ثان أو ساعة ثانية أو يوم ثان بالحكم والقطع فأنت امل وذلك منك معصية اذ هو حكم على الغيب فان قيدته بالمشيئة والعلم من الله فقلت أعيش ان شاء الله أو ان علم الله ان

الله عليه وسلم وصل بعده أربع ركعات في الخبر فايدل على عظيم فضلها ثم صل الوتر بعدها ثلاثا بتسليمتين أو بتسليمة واحدة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فيهما سورة سبح اسم ربك الاعلى وقل يا أيها الكافرون والاخلاص والمعوذتين فان كنت عازما على قيام الليل فاخر الوتر ليكون آخر صلاتك بالليل وتراثم اشتغل بعد ذلك بمذاكرة علم أو مطالعة كتاب ولا تشتغل باللهو واللعب فيكون ذلك خاتمة أعمالك قبل نومك فان الاعمال بخواتيمها

* (آداب النوم) *

فاذا أردت النوم فابسط فراشك مستقبل القبلة ونم على يمينك كما يضجع الميت في لحده واعلم أن النوم مثل الموت واليقظة مثل البعث ولعل الله تعالى يقبض روحك في ليلتك فكن مستعدا للقائه بأن تنام على طهارة وتكون وصيتك مكتوبة تحت رأسك وتنام تائبا من الذنوب مستغفرا عازما على أن لا تعود الى معصية واعزم على الخير لجميع المسلمين ان بعثك

أعيش فقد خرجت عن حكم الامل ووصفت بترك الامل وكذلك ان أردت حياتك الوقت الثانى قطعا فأنت آمل وان قيدت ارادتك بشرط الصلاح خرجت عن حكم الامل ووصفت بقصر الامل من حيث تركت الحكم فيه فعليك بترك الحكم فى ذكر البقاء وارادته والمراد بالذكر ذكر القلب ثم المراد منه التوطين على ذلك والتثبيت للقلب عليه فافهم ذلك راشدا ان شاء الله عز وجل * ثم الامل ضربان أمل العامة وأمل الخاصة فأمل العامة ان تريد الحياة والبقاء لجمع الدنيا والتمتع بها وهذه معصية محضة وضدها قصر الامل قال الله تعالى فذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون وأمل الخاصة ان تريد البقاء لاتمام عمل خير فيه خطر وهو مالا يتيقن الصلاح له فيه فانه ربما يكون خيرا معينا لا يكون للعبد فيه أو فى اتمامه صلاح بأن يقع بسببه فى عجب وآفة لا يقوم بها هذا الخير فاذن ليس للعبد اذا اشتد فى صلاة أو صوم أو غيره أن يحكم بأنه يتمها اذ هو غيب ولا أن يقصد ذلك قطعا لانه ربما لا يكون له فيه صلاح بل يقيد ذلك بالاستثناء او بشرط الصلاح ليخلص من عيب الامل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله وضد هذا الامل فيما قال العلماء النية المحمودة وانما قالوا ذلك على ضرب من الاتساع لان الناوى بالنية المحمودة يكون ممتنعا من الامل فهذا حكم الامل والنية المحمودة اذ قد مست الحاجة اليها والى معرفة مع انها الاصل الاصيل قالوا رحمهم الله فى حدها الجامع التام ان النية الصحيحة المحمودة ارادة أخذ عمل مبتدا به قبل سائر الاعمال بالحكم مع ارادة اتمامه بالتفويض والاستثناء (فان قيل) فلم جازا لحكم فى الابتداء ووجب التفويض والاستثناء فى الاتمام (يقال له) لفقد الخطر فى الابتداء اذ هو فى حال الابتداء ليس بشئ متراخ عنك ولشبوت الخطر فى الاتمام اذ هو يقع فى وقت متراخ فيه الخطران خطر الوصول لا تدرى هل تصل الى ذلك أم لا وخطر الفساد لا تدرى هل فى ذلك صلاح أم لا فاذن وجب الاستثناء لخطر الوصول والتفويض لخطر الفساد فاذا حصلت الارادة على هذه الشروط تكون حينئذ نية محمودة مخرجة عن حد الامل وآفته فتأمل جدا فهذه هذه (واعلم) ان حصن قصر الامل ذكر الموت وحصن حصنه ذكر فجأة الموت وأخذه على غرة وغفلة وهو فى غرور وفتور فاحتفظ بهذه الجملة وحصلها موفقا فان الحاجة ماسة اليها ودع عنك تضييع الوقت فى القيل والقال وملاحاة الرجال والله الموفق بفضله (وأما الحسد) فهو ارادة زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم بماله فيه صلاح فان لم ترد زوالها عنه ولكن تريد لنفسك مثلها فهو غبطة وعلى هذا يحمل قوله عليه السلام لا حسد الا فى اثنتين الخبر أى لا غبطة الا فى ذلك فعبر عن الغبطة بالحسد اتساعا فى ذلك لمقاربتهما فان لم يكن له فيها صلاح فاردت زوالها عنه فذلك غيرة فهذا هو الفرق بين هذه الخصال (وأما ضد الحسد) فالنصيحة وهى ارادة بقاء نعم الله تعالى على أخيك المسلم بماله فيها صلاح (فان قيل) كيف نعلم ان له فيها صلاحا أو فسادا فنصحه أو نحسده (فاعلم) انه قد يكون لنا غالب الظن بذلك وغلبة الظن منا تجرى مجرى العلم فى هذه المواضع ثم ان اشتبه عليك فلا تريدن زوال نعمة أحد من المسلمين أو بقاءها الا مقيدا بالتفويض وشرط الصلاح لتخلص من حكم الحسد ويحصل لك فائدة النصيحة (وأما) حصن النصيحة المانع من الحسد فهو ذكر ما أوجبه الله تعالى من موالاة المسلمين وحصن هذا الحصن ذكر ما عظم الله تعالى من حق المؤمن ورفع من

الله تعالى وتذكر أنك ستضجع فى اللحد كذلك وحيدا فريدا ليس معك الا عملك ولا تجزى الا بسعيك ولا تستجلب النوم تكلفا بتمهيد الفرش الوطيئة فان النوم تعطيل الحياة الا اذا كانت يقظتك وبالا عليك فنومك سلامة لدينك * واعلم أن الليل والنهار اربع وعشرون ساعة فلا يكون نومك بالليل والنهار أكثر من ثمان ساعات فيمكنك ان عشت مثل ستين سنة أن تضيع منها عشرين سنة وهو ثلث عمرك وأعد عند النوم سواكك وطهورك واعزم على قيام الليل أو على القيام قبل الصبح وركعتان فى جوف الليل كنز من كنوز البر فاستكثر من كنوزك ليوم فقرك فلن تغنى عنك كنوز الدنيا اذا مت * وقل عند نومك باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك أرفعه فاغفر لى ذنبى اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك اللهم باسمك أحيا وأموت أعوذ بك اللهم من شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم اللهم أنت الاول

فليس قبلك شئ وأنت الآخر فليس بعدك شئ وأنت الظاهر فليس فوقك شئ وأنت الباطن فليس دونك شئ اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها لك محياها ومماتها ان أمتها فاغفرلها وان أحييتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين اللهم انى أسألك العفو والعافية اللهم أيقظني في أحب الساعات اليك واستعملني بأحب الاعمال اليك حتى تقربني اليك زلفى وتباعدني عن سخطك بعدا أسألك فتعطيني وأستغفرك فتغفر لي وأدعوك فتستجيب لي ثم اقرأ آية الكرسي وآمن الرسول الى آخر السورة والاخلاص والمعوذتين وسورة تبارك الملك وليأخذك النوم وأنت على ذكر الله وعلى الطهارة فمن فعل ذلك عرج بروحه الى العرش وكتب عمله الى أن يستيقظ * فاذا استيقظت فارجع الى ما عرفتك أولا وداوم على هذا الترتيب بقية عمرك فان شقت عليك المداومة فاصبر صبر المريض على مرارة الدواء انتظارا للشفاء وتفكر في قصر عمرك وان

قدره وماله عند الله من الكرامات العظيمة في العقبى وما لك فيه من الفوائد الجليلة في الدنيا من التعاون والتظاهر والجماعات والجمعات ثم ما ترجو من شفاعته في الآخرة فهذه ونحوها مما يبعث على النصح لكل مسلم ويجنبك من أن تحسده في نعمة أعطاه الله تعالى اياها والله سبحانه ولي التوفيق بفضله (وأما العجلة) فانها المعنى الراتب في القلب الباعث على الاقدام على الامر بأول خاطر دون التوقف فيه والاستطلاع منه بل الاستعجال في اتباعه والعمل به وضدها الاناة وهو المعنى الراتب في القلب الباعث على الاحتياط في الامور والنظر فيها والتأني في اتباعها والعمل بها (وأما التوقف) فضده التعسف قال شيخنا رحمه الله الفرق بين التوقف والتأني أن التوقف قبل الدخول في الامر حتى يستبين له رشده والتأني بعد الدخول فيه حتى يؤدي لكل جزء منه حقه ثم مقدمات الاناة ذكر وجوه الخطر في الامور التي تعترض للانسان وضروب الآفات المخوفة فيها وذكر ما في النظر والتثبت من السلامة وما في التعسف والاستعجال من الندامة والملامة وهذه وامثالها مما يبعث على التأني والتوقف في الامور ويمنع من الاستعجال والتعسف والله تعالى ولي العصمة برحمته (وأما الكبر) فاعلم انه خاطر في رفع النفس واستعظامها والتكبر اتباعه والصفة خاطر في وضع النفس واحتقارها والتواضع اتباعه وكل واحد منهما عامي وخاصي فالتواضع العامي هو الاكتفاء بالدون من الملبس والمسكن والمركب والتكبر في مقابلته الترفع عن ذلك والتواضع الخاصي هو تمرين النفس على قبول الحق ممن كان وضيعا أو شريفا والتكبر في مقابلته الترفع عن ذلك وهو معصية كبيرة وخطيئة عظيمة ثم حسن التواضع العامي أن تذكر مبدأك ومنتهاك وما أنت عليه في الحال من ضروب الآفات والاقذار كما قال بعضهم أولاك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بينهما حامل العذرة وحسن التواضع الخاصي هو ذكر عقوبة العادل عن الحق المتمادي في الباطل فهذه جملة كافية لمن استبصر والله الموفق وولي التوفيق

(الفصل الخامس في البطن وحفظه)

ثم عليك يا طالب العبادة بحفظ البطن واصلاحه فانه أشق الاعضاء اصلاحا على المجتهد وأكثرها مؤنة وشغلا وأعظمها ضررا وأثرا لانه المنبع والمعدن ومنه تهيج الامور في الاعضاء من قوة وضعف وعفة وجماح ونحوه فعليك اذن بصيانته عن الحرام والشبهة أولا ثم عن فضول الحلال ثانيا ان كانت لك همة في عبادة الله تعالى فاما الحرام والشبهة فانما يلزمك التجنب عنه لثلاثة أمور أولها حذرا من نار جهنم قال الله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا وقال النبي صلى الله عليه وسلم كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به والثاني ان آكل الحرام والشبهة مطرود لا يوفق للعبادة اذ لا يصلح لخدمة الله تعالى الا كل طاهر مطهر (قلت أنا) أليس الله تعالى قد منع الجنب عن الدخول في بيته والمحدث عن مس كتابه قال عز من قائل ولا جنبا الا عابري سبيل حتى تغتسلوا وقال الله تعالى لا يمسه الا المطهرون مع أن الجنابة والحدث أمر مباح فكيف بمن هو منغمس في قذر الحرام ونجاسة السحت والشبهة ومتى يدعى الى خدمة الله العزيز وذكره الشريف سبحانه كلا فلا يكون ذلك أبدا وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله الطاعة مخزونة في خزائن الله تعالى ومفتاحها الدعاء وأسنانه الحلال فاذا لم يكن للمفتاح أسنان فلا ينفتح الباب واذا لم ينفتح باب الخزانة كيف يصل الى ما فيها من الطاعة

والثالث ان آكل الحرام والشبهة محروم من فعل الخير فان اتفق له فعل خير فهو مردود عليه غير مقبول منه فاذن لا يكون له من ذلك الا العناء والكد وشغل الوقت قال صلى الله عليه وسلم كم من قائم ليس له من قيامه الا السهر وكم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والظمأ وعن ابن عباس رضى الله عنهما لا يقبل الله صلاة امرئ فى جوفه حرام فهذه هذه (وأما) فضول الحلال فانه آفة العباد وبلية أهل الاجتهاد فانى تأملت فوجدت فيه عشر آفات من اصول فى هذا الشان الاولى ان فى كثرة الاكل قسوة القلب وذهاب نوره (روى) عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب يموت كالزرع اذا كثر عليه الماء وقد شبه ذلك بعض الصالحين بأن المعدة كالقدر تغلى القلب تغلى والجوارح ترفع اليه فكثرة الحرارة تكدره وتسخمه الثانية ان فى كثرة الاكل فتنة الاعضاء وهيجها واتباعها للفضول والفساد فان الرجل اذا كان شبعان بطرا شهت عينه النظر الى ما لا يعنيه من حرام أو فضول والاذن الاستماع اليه واللسان التكلم والفرج الشهوة والرجل المشى اليه وان كان جائعا تكون الاعضاء كلها ساكنة هادئة لا تطمح الى شئ من هذا ولا تنشط له ولقد قال الاستاذ أبو جعفر رحمه الله ان البطن عضو ان جاع هو وشبع سائر الاعضاء يعنى تسكن فلا تطالب بشئ وان شبع هو وجاع سائر الاعضاء وجلها الامران افعال الرجل واقواله على حسب طعامه وشرابه ان دخل الحرام خرج الحرام وان دخل الفضول خرج الفضول كأن الطعام بذر الافعال والافعال نبت تبدو منه الثالثة ان فى كثرة الاكل قلة الفهم والعلم فان البطنة تذهب الفطنة ولقد صدق الداراني رحمه الله حيث قال اذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها فان الاكل بغير العقل وهذا أمر ظاهر عليه لمن اختبره الرابعة ان فى كثرة الاكل قلة العبادة فان الانسان اذا أكثر الاكل ثقل بدنه وغلبته عيناه وفترت أعضاؤه فلا يجئ منه شئ وان اجتهد الا النوم كالجيفة الملقاة ولقد قيل اذا كنت بطينا فعد نفسك زمينا ولقد ذكر عن يحيى عليه السلام ان ابليس لعنه الله وعليه معاليق فقال له يحيى ما هذه فقال هذه الشهوات التى أصيد بها بنى آدم فقال له هل تجد لى فيها شيأ قال لا الا انك شبعت ذات ليلة فثقلتنا عن الصلاة قال يحيى عليه السلام لا جرم انى لا أشبع بعدها أبدا قال ابليس لا جرم انى لا أنصح بعدها أحدا أبدا فهذه فمن لم يشبع فى عمره الا ليلة فكيف بمن لا يجوع فى عمره ليلة ثم يطمع فى العبادة وقال سفيان رحمه الله العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلتها الجماعة الخامسة ان فى كثرة الاكل فقد حلاوة العبادة (قال) أبو بكر الصديق رضى الله عنه ما شبعت منذ أسلمت لاجد حلاوة عبادة ربى وما رويت منذ أسلمت اشتياقا الى لقاء ربى وهذه صفات المكاشفين فكان أبو بكر رضى الله عنه مكاشفا واليه أشار صلى الله عليه وسلم بقوله ما فضلكم أبو بكر بفضل صوم ولا صلاة وانما هو شئ وقر فى نفسه وقال الداراني اصل ما تكون العبادة اذا التزق بطنى بظهرى السادسة ان فيه خطر الوقوع فى الشبهة والحرام لان الحلال لا يأتيك الا قوتا ولقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الحلال لا يأتيك الا قوتا والحرام يأتيك جوائح السابعة ان فيه شغل القلب والبدن بتحصيله أولا وبتهيئته ثانيا ثم بأحداثه ثالثا ثم بالفراغ منه والتخلص رابعا ثم بالسلامة منه خامسا بأن يبدو منه آفة فى البدن بل آفات وعلل فى الدين ولقد قال صلى الله

عشت مثلا مائة سنة فهى قليلة بالاضافة الى مقامك فى الدار الآخرة وهى أبد الآباد وتأمل أنك كيف تتحمل المشقة والذل فى طلب الدنيا شهرا أو سنة رجاء أن تستريح بها عشرين سنة مثلا فكيف لا تتحمل ذلك أياما قلائل رجاء الاستراحة أبد الآباد ولا تطول أملك فينقل عليك عملك وقد قرب الموت وقل فى نفسك انى أحتمل المشقة اليوم فلعلى أموت الليلة وأصبر الليلة فلعلى أموت غدا فان الموت لا يهجم فى وقت مخصوص وحال مخصوص وسن مخصوص فلا بد من هجومه فالاستعداد له أولى من الاستعداد للدنيا وأنت تعلم أنك لا تبقى فيها الا مقدار سبرة ولعله لم يبق من أجلك الا يوم واحد أو نفس واحد فقدر هذا فى قلبك كل يوم وكلف نفسك الصبر على طاعة الله يوما يوما فانك لو قدرت البقاء خمسين سنة وألزمتها الصبر على طاعة الله تعالى نفرت واستعفت عليك فان فعلت ذلك فرحت عند الموت فرحا لا آخر له وان سوفت وتساهلت جاءك الموت فى

عليه وسلم أصل كل داء البردة يعني التخمة وأصل كل دواء الازمة يعني الجوع والحمية وعن مالك ابن دينار انه كان يقول ياهؤلاء لقد اختلفت الى الخلاء حتى استحييت من ربي بسبب كثرة الاكل فيالليت ان الله جعل رزقي في حصاة أمصها حتى أموت ثم لا يدفي هذه الجملة من طلب الدنيا والطمع الى الناس وتضييع الوقت بسبب كثرة الاكل مالم يخف الثامنة ما ناله من أمور الآخرة وشدة سكرات الموت (وروى) في الاخبار ان شدة سكرات الموت على قدر لذات الدنيا فمن أكثر من هذه أكثر له من تلك التاسعة نقصان الثواب في العقبى قال الله تعالى أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون فانه بقدر ما تأخذ من لذات الدنيا ينقص لك من لذات الآخرة ولهذا المعنى ان الله تعالى لما عرض الدنيا على نبينا صلى الله عليه وسلم قال له ولا أنقصك من آخرتك شيأ خصه بذلك فدل على ان لغيره النقصان الا أن يتفضل الله عليه بذلك (ولقد روى) ان خالد بن الوليد أضاف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهيأ له طعاما فقال عمر هذا لنا فما للفقراء المهاجرين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير قال خالد لهم الجنة يا أمير المؤمنين قال عمر لئن فازوا بالجنة وكان هذا حظنا من الدنيا فقد بانوا منا بونا مبينا وروى ان عمر رضي الله عنه عطش يوما فدعا بماء فأعطاه رجل اداوة فيها ماء نبذ فيه قرات فلما قربها عمر من فيه وجد الماء باردا حلوا فأمسك وقال أوه فقال الرجل والله ما ألوته حلاوة يا أمير المؤمنين فقال عمر رضي الله عنه ذلك الذي منعني منه وبحك لولا الآخرة لشاركناكم في عيشكم العاشرة الحبس والحساب واللوم والتعبير في ترك الادب في أخذ الفضول وطلب الشهوات فان الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب وزينتها الى تباب فهذه جملة العشرة وفي احداها كفاية لمن نظر لنفسه فعليك أيها المجتهد بالاحتياط البالغ في القوت كي لا تقع في حرام أو شبهة فيلزمك العذاب ثم بالاقتصار من الحلال على ما يكون عدة على عبادة الله تعالى فلا تقع في شر فتبقى في الحبس والله ولي التوفيق (فان قلت) فبين لنا أولا حكم الحرام والشبهة وحدهما (فأقول) لعمر الله لقد أشبعنا القول فيه في اسرار معاملات الدين وذكرنا له كتابا مفردا في كتاب الاحياء لكنا نشير الى كلمات مفردة بحيث تصل الى فهم الضعيف المبتدي اذ مقصود هذا الكتاب ان ينتفع به المبتدي في العبادة ويعين الطالب قال بعض العلماء كل ما تيقنت كونه ملكا للغير منهيا عنه في الشرع فهو حرام محض وأما اذا لم يكن لك يقين بذلك ولكن يغلب على ظنك انه كذلك فهو شبهة وقال آخرون بل الحرام المحض ما يكون به علم أو غالب ظن لان غلبة الظن منا تجري مجرى العلم في كثير من الاحكام فأما اذا تساوت الامارتان حتى تبقى شاكا لا يكون لاحدهما ترجيح عندك فذلك شبهة يشبه انه حلال ويشبه انه حرام فاشتبه أمره عليك والتبس حاله ثم الامتناع عن الذي هو حرام محض حتم واجب وعن الذي هو شبهة تقوى وورع وهذا أولى القولين عندنا (فان قيل) فما تقول في قبول جوائز السلاطين في هذا الزمان (فاعلم) ان العلماء اختلفوا فيه فقال قوم كل ما لا يتيقن انه حرام فلا بأس بأخذه وقال آخرون لا يحل أن يأخذ ما لا يتحقق انه حلال لان الاغلب في هذا العصر على أموال السلاطين الحرام والحلال في أيديهم معدوم او عزيز وقال قوم ان صلات السلاطين تحل للغني والفقير اذا لم يتحقق انها حرام وانما التبعة على المعطي قالوا لان النبي صلى الله عليه وسلم قبل هدية المقوقس ملك

وقت لا تحتسبه وتحسرت تتحسر الآخر له وعند الصباح يحمد القوم السرى وعند الموت يأتيك خبر العقبى ولتعلمن نبأه بعد حين * وإذا أرشدناك الى ترتيب الاوراد فلنذكر لك كيفية الصلاة والصوم وآدابهما وآداب القدوة والجماعة والجمعة

(آداب الصلاة)

فاذا فرغت من طهارة الخبث وطهارة الحدث في البدن والثياب والمكان ومن ستر العورة من السرة الى الركبة فاستقبل القبلة قائما مفرجا بين قدميك بحيث لا تضمهما واستوقائما اقرأ قل أعوذ برب الناس تحصنا بها من الشيطان الرجيم وأحضر قلبك وفرغه من الوساوس والخطرين بين يدي من تقوم ومن تناجي واستح أن تناجي مولاك بقلب غافل وصدر مشحون بوساوس الدنيا وخبائث الشهوات واعلم ان الله تعالى مطلع على سريرتك وناظر الى قلبك قائما يتقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وينضر عملك وتواضعك وتضرعك واعبده في صلاتك كأنك تراه

الاسكندرية واستقرض من اليهودى مع قول الله سبحانه أكالون للسحت قالوا وقد أدرك جماعة من الصحابة أيام الظلمة وأخذوا منهم فمنهم أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين وقال آخرون لا يحل من أموالهم شئ لغنى ولا لفقير اذ هم مرسومون بالظلم والغالب على مالهم السحت والحرام والحكم للغالب فيلزم الاجتناب وقال آخرون ما لا يتيقن انه حرام فهو حلال للفقير دون الغنى الا أن يعلم الفقير ان ذلك عين الغصب فليس له أن يأخذه الا بإذن صاحبه على ماله ولا حرج على الفقير أن يأخذ من أموال السلطان لانها ان كانت ملك السلطان فأعطى الفقير فله أخذه بلا ريب وان كانت من فيء أو خراج أو عشر فللفقير فيه حق وكذلك لاهل العلم قال على بن أبى طالب رضى الله عنه من دخل الاسلام طائعا وقرأ القرآن ظاهرا فله فى بيت مال المسلمين كل سنة مائتا درهم وروى مائتا دينار ان لم يأخذها فى الدنيا أخذها فى الآخرة واذا كان كذلك فالفقير والعالم يأخذان من حقهما قالوا واذا كان المال مختلطا بمال مغصوب لا يمكن تمييزه أو غصبا لا يمكن رده على صاحبه وذريته فلا مخلص للسلطان منه الا بأن يتصدق به وما كان الله ليأمر بالصدقة على الفقير وينهى الفقير عن قبولها أو يأذن للفقير فى القبول وهو عليه حرام فاذن للفقير أن يأخذ لا عين الغصب والحرام فليس له أخذه وهذه المسائل لا يمكن الفتوى فيها الا ببسط وتشقيق واستيعاب القول فيها يخرج عن المقصود من الكتاب فان أردت معرفتها فطالع كتاب الحلال والحرام من كتاب احياء علوم الدين الذى صنفناه تجده مشروحا مستوفى ان شاء الله تعالى (فان قيل) فما تقول فى صلات أهل السوق وغيرهم هل يلزم ردها والبحث عنها وقد علمت مجازفتهم وقلة تظرهم فى معاملاتهم وكذلك صلات الاخوان (فالجواب) أنه اذا كان ظاهر الانسان الصلاح والستر فلا حرج عليك فى قبول صلته وصدقته ولا يلزم البحث بأن تقول قد فسد الزمان فان هذا سوء ظن بذلك الرجل المسلم بل حسن الظن بالمسلمين مأمور به (ثم اعلم) ما هو الاصل فى هذا الباب وهو ان ههنا شيئين أحدهما حكم الشرع وظاهره والثانى حكم الورع وحقه فحكم الشرع أن تأخذ ما أتاك من ظاهره صلاح ولا تسأل الا أن تتيقن انه غصب أو حرام بعينه وحكم الورع أن لا تأخذ شيأ من أحد حتى تبحث عنه غاية البحث وتستقصى غاية الاستقصاء فتستيقن انه لا شبهة فيه بحال والا فترده فلقد روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ان غلاما له أتاه بلبن فشرب منه فقال الغلام كنت اذا جئتك بشئ تسألنى عنه ولم تسألنى عن هذا اللبن فقال وما قصته فقال رقيت قوما فى الجاهلية فأعطونى هذا فتقيأ أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقال اللهم هذه مقدرتى فما بقى فى العروق فأنت حسبه فهذا يدلك على وجوب البحث عما تقدم عليه ان كان لك نظر فى الورع وحقه فهذه هذه (فان قلت) فكأن الورع يخالف الشرع وحكمه (فاعلم) ان الشرع موضوع على اليسر والسماحة ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة والورع موضوع على التشديد والاحتياط كما قيل الامر على المتقى أضيق من عقد التسعين ثم الورع من الشرع أيضا وكلاهما فى الاصل واحد ولكن للشرع حكمان حكم الجواز وحكم الافضل الاحوط فالجائز يقال له حكم الشرع والافضل الاحوط يقال له حكم الورع فهما مع تميزهما واحد فى الاصل فافهم ذلك راشدا ان شاء الله تعالى (فان قلت) فاذا جاز البحث

فان لم تكن تراه فانه يراك
فان لم يحضر قلبك ولم تسكن
جوارحك فهذا المقصود
معرفتك بجلال الله تعالى
فقد رأى رجلا صالحا من
وجوه أهل بيتك ينظر اليك
ليعلم كيف صلاتك فعند
ذلك يحضر قلبك وتسكن
جوارحك ثم ارجع الى
نفسك فقل يا نفس السوء
ألا تستحيى من خالقك
ومولاك اذ قدرت اطلاع
عبد ذليل من عباده اطلع
عليك وليس بيده نفعك
ولا ضرك خشعت جوارحك
وحسنت صلاتك ثم انك
تعلم انه مطلع عليك
ولا تخشع من عظمته أهو
تعالى عندك أقل من عبد
من عباده فما أشد طغيانك
وجهلك وما أعظم عداوتك
لنفسك فعالج قلبك بهذه
الطريق فعساه أن يحضر معك
فى صلاتك فانه ليس لك من
صلاتك الا ما غفلت عنها
وأما ما أتيت به مع الغفلة
والسهو فهو الى الاستغفار
والتكفير أحوج * فاذا
حضر قلبك فلا تتركه
الا قائما وان كنت وحدك
وان انتظرت حضور جماعة
غيرك فأذن ثم أقم فاذا أقمت
فانو وقل فى قلبك أؤدى

والاستقصاء عن كل شئ فسد علينا ما نأخذه في هذا الزمان وتعذر الامر بمرة على صاحب الورع اذ لا بد له من بلاغ يبلغه الى الطاعة (فاعلم) ان طريق الورع شديد وان من قصد سلوكه بشرط أن يوطن نفسه وقلبه على احتمال الشدة والا فلا يتم له ذلك ولهذا المعنى سار الكثير من أهل الورع والسابقون الى جبل لبنان وغيره فاقتصروا على أكل الحشيش وغرات تافهة لا شبهة فيها بحال فمن سمت همته الى نيل منزلة الورع الاعلى فعليه أن يحتمل الشدائد ويصبر عليها ويسلك طريق أولئك لينال منزلتهم وأما ان أقام بين الناس وأكل مما يتداولونه في أيديهم فليكن عنده بمنزلة الميتة لا يقدم عليها الا عند الضرورة ثم لا يتناول منها الا بمقدار ما يبلغه الى الطاعة فيكون له عذر في ذلك ولا يضره وان كان في أصله شبهة فان الله تعالى أولى بالعذر ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله فسد السوق فعليكم بالقوت ولقد بلغني عن وهب بن الورد رحمه الله انه كان يجوع نفسه يوما أو يومين أو ثلاثة ثم يأخذ رغيفا ويقول اللهم انك تعلم اني لا أقوى على العبادة وأخشى الضعف والالم آكله اللهم ان كان فيه شئ من خبث أو حرام فلا تؤاخذني به ثم يميل الرغيف بالماء فيأكله (قلت) فهذان الطريقان للطبقة العليا من أهل الورع فيما نعلمه وأما من دونهم فلهم احتياط وبحث على مقدار ولهم أيضا نصيب من الورع على مقدار وبقدر ما تتمنى تنال ما تتمنى والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا وهو عليم بما يفعلون (فان قيل) فهذا جانب الحرام فأخبرنا عن جانب الحلال وما حد الفضول الذي يلزم منه الحبس والحساب وما المقدار الذي اذا أخذه العبد يكون ذلك أدبا ولا يكون فضولا ولا علمه فيه حبس ولا حساب (يقال له فاعلم) أن أحوال المباح في الجملة ثلاثة أقسام * أحدها أن يأخذه العبد مقتارا مكاثرا مباهيا مرائيا فيكون الاخذ منه فعلا منكرا يستوجب على ظاهر فعله الحبس والحساب واللوم والتعيير وهو منكر وشر يستوجب على باطن فعله وهو التكاثر والتفاخر عذاب النار وذلك القصد منه معصية وذنب لقوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة الى قوله وفي الآخرة عذاب شديد وقال النبي عليه السلام من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسئلة وتعطفا على جاره وسعيا على عياله جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر وذلك لما قصد به هذا المقصود المحمود لله سبحانه فهذه هذه فاعلمها (فان قيل) فما شرط المباح حتى يصير خيرا وحسنة كما ذكرتم (فاعلم) انه يحتاج في كونه خيرا في الاصل الى شرطين أحدهما الحال والثاني القصد فالحال يجب أن يكون في حال عذر وهو بحيث ان لم يأخذه تؤخذ نفسه وتفسير أن يكون حاله ان لم يأخذ ذلك المباح ينقطع بسببه عن فرض أو سنة أو نفل فيكون ذلك أفضل من ترك المباح فان ترك مباح الدنيا فضيلة فاذا كان الحال كذلك فهو حال العذر وأما القصد فهو

فرض الظهر لله تعالى
ولكن ذلك حاضر في قلبك
عند تكبيرك لا تغرب عنك
النية قبل الفراغ من
التكبير وارفع يديك عند
التكبير مدا رسالهما أولا
الى منكبيك وهما
مبسوطتان وأصابعهما
منشورة ولا تكلف ضمهما
ولا تفريقهما وارفع يديك
بحيث تحاذي بإبهاميك
شحمتي أذنيك ورؤس
أصابعك أعالي أذنيك
وتحاذي بكفيك منكبيك
فاذا استقرتا في مقرهما
فكبر ثم أرسلهما برفق ولا
تدفع يديك عند الرفع
والارسال الى قدام دفعا
ولا الى خلف رفعا ولا
تنفضهما عينا ولا شمالا
فاذا أرسلتهما فاستأنف
رفعهما الى صدرك وأكرم
اليمنى بوضعها على الشمال
وانشر أصابع اليمنى على
طول ذراعك اليسرى
واقبض بها على كوعها
وقل بعد التكبير الله أكبر
كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان
الله بكرة وأصيلا ثم اقرأ
وجهت وجهي للذي فطر
السموات والارض حنيفا
وما أنا من المشركين الآيتين
الى آخرهما ثم قل أعوذ بالله

أن يقصد به العدة والاستعانة على عبادة الله سبحانه وهو أن يذكر بقلبه انه لولا ما فيه من التوصل الى عبادة الله سبحانه لما أخذت ذلك فهذا ذكر الحجة فاما حصل ذكر الحجة فى حال العذر صار ذلك الاخذ من الدنيا للعلال خيرا وحسنة وأدبا وأما لو كان حاله حال العذر ولا يكون له هذا القصد والذكر أو يكون له هذا القصد والذكر ولا يكون فى حال العذر فلا يصير ذلك الاخذ من جملة الخيرات * ثم الاستقامة على حفظ هذا الادب تحتاج الى بصيرة وقصد مجمل بأنه لا يأخذ من الدنيا بحال الا للعدة على عبادة الله تعالى حتى انه ان سها عن ذكر الحجة فى حال أجزأ ذلك القصد المجمل عن تجديد ذكر الحجة قال شيخنا رحمه الله فصارت الامور الثلاثة معتبرة فيه كل واحد من وجه يعنى ان الذكر والحال معتبران فى حصول كونه خيرا أصلا والقصد المجمل المقتضى عن بصيرة بمنزلة الادب معتبر فى الاستقامة عليه فافهم ذلك راشدا (فان قيل) فان أخذ من الدنيا الحلال بشهوة فهل يكون ذلك معصية وهل يلزم عليه عذاب وهل الاخذ بالعذر فرض أم لا (فاعلم) ان ذلك فضيلة ونعمه خيرا وحسنة والامر به أمر تاديب والاخذ بالشهوات شر وسيئة والنهى عنه نهى زجر وأدب وليس ذلك بمعصية ولا يكون عليه عذاب النار وانما عليه الحبس والحساب واللوم والتعبير (فان قلت) فاذا هذا الحبس والحساب اللذان يلزمان العبد (فاعلم) أن الحساب أن تسأل يوم القيامة عما ذا اكتسبت وفيما ذا أنفقت وماذا أردت بذلك والحبس حبس عن الجنة مدة الحساب وذلك فى عرصات القيامة بين أهوالها ومخاوفها عريانا عطشانا وكفى بذلك بلية (فان قيل) فاذا قد أحل الله لنا هذا الحلال فاللوم والتعبير فى أخذه لماذا (فاعلم) أن اللوم والتعبير لتركه الادب كمن أجلس على مائدة الملك فترك الادب فانه يعير بذلك ويلام وان كان الطعام له مباحا فالاصل فى هذا الباب ان الله تعالى خلق العباد لعبادته وهو عبد الله تعالى من كل وجه فحق للعبد أن يعبد الله تعالى من كل وجه يمكنه ويجعل أفعاله كلها عبادة من أى وجه أمكنه فان لم يفعل ذلك وآثر شهوة نفسه واشتغل بذلك عن عبادة ربه مع تمكنه من ذلك من غير تعذر والدار دار خدمة وعبادة لا دار تنعم وشهوة فيستحق اللوم بذلك والتعبير من سيده فتأمل هذا الاصل راشدا ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فهذه الجملة التى أردنا بيانها فى اصلاح النفس واطلاعها بلجام التقوى فارعها حقها واحتفظ بها جدا تفز بالخير الكثير فى الدارين ان شاء الله تعالى والله ولى العصمة والتوفيق بفضله

* (فصل) *

فعليك أيها الرجل ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة العظيمة الطويلة فانها أعظم العقبات شدة وأكثرها مؤنة وأكبرها آفة وفتنة فان من هلك من الخلق كلهم انما انقطعوا عن طريق الحق اما بسبب دنيا أو خلق أو شيطان أو نفس وقد ذكرنا فى كتبنا المصنفة من كتاب الاحياء والاسرار والقربة الى الله ما يبعث على الاهتمام بذلك ومقصود هذا الكتاب انى سألت الله أن يطلعنى على سر معالجة النفس وأن يصلحنى ويصلح بى فاقتصرت فى هذا الكتاب الشريف على نكت وجيزة اللفظ غزيرة المعنى تقنع من تأملها وتدعه على واضحة من الطريق ان شاء الله تعالى وهذا الفصل يختص بنكت فى معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس (اما الدنيا) فحق لك ان تحذرها وتزهد فيها الان الامر لا يخلو من ثلاثة اما أن تستغنى عن ذوى البصائر والفطن فحينئذ ان الدنيا

من الشيطان الرجيم ثم اقرأ الفاتحة بتشديداتها واجتهد فى الفرق بين الضاد والظاء فى قراءتك فى الصلاة وقل آمين ولا تصله بقولك ولا الضالين وصل واجهر بالقراءة فى الصبح والمغرب والعشاء أعنى الركعتين الاوليين الا ان تكون مأموما واجهر بالتأمين * واقرأ فى الصبح بعد الفاتحة من السور طوال المفصل وفى المغرب من قصاره وفى الظهر والعصر والعشاء من أوساطه نحو والسماء ذات البروج وما قاربها من السور * وفى الصبح فى السفر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ولا تصل آخر السورة بتكبيرة الركوع ولكن افصل بينهما بمقدار سبحان الله وكن فى جميع قيامك مطرقا ناظرا نظرك على مصلاك فذلك أجمع لهمك وأجدر لحضور قلبك وإياك أن تلتفت يمينا وشمالا فى صلاتك * ثم كبر للركوع وارفع يديك كما سبق ومد التكبير الى انتهاء الركوع ثم ضع راحتيك على ركبتيك وأصابعك منشورة

عدوة الله سبحانه وهو حبيبك وليك وان الدنيا بغيضة عقلك والعقل قيمتك واما أنت من ذوى الهمم والاجتهاد فى عبادة الله تعالى فحسبك ان الدنيا بلغ من شؤمها ما يمنعك من ارادتها وتشغلك الفكرة فيها عن العبادة والخير فكيف نفسها واما أنت من أهل الغفلة لا بصيرة لك تبصر الحقائق ولا همة لك تبعث على المكارم فحسبك ان الدنيا لا تبقى اما أن تفارقها واما أن تفارقك كما قال الحسن ان بقيت لك الدنيا لم تبق لها فاى فائدة لك اذن فى طلبها وانفاق العمر العزيز عليها ولقد أحسن القائل

هب الدنيا تساق اليك عفوا * أليس مصيرك الى زوال
فما ترجو بعيش ليس يبقى * وشيبك قد نعيه للتالى
ومالك فى الامور سوى ظل * اظلك ثم آذن بارتحال

فلا ينبغى للعاقل اذا أن يخدع بها ولقد صدق القائل فيما قال

أضغاث نوم أو كظل زائل * ان اللبيب بمثلها لا يخدع

(وأما) الشيطان فحسبك فيه ما قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون (فهذا) خير العالمين وأعلمهم وأعقلهم وأفضلهم عند الله تعالى يحتاج مع ذلك أن يستعيذ بالله من شر الشيطان فكيف بك مع جهلك ونقصك وغفلتك (وأما) الخلق فحسبك فيهم انك لو خالطتهم ووافقتهم فى أهوائهم أثمت وأفسدت أمر آخرتك وان خالفتهم تعبت باذياتهم وجفواتهم وكدرت عليك أمر دنياك ثم لا تأمن أن يلجؤك الى معاداتهم ومناواتهم فتقع فى شرهم ولا نهم ان مدحوك وعظموك أخاف عليك الفتنة والعجب وان ذموك وحقروك أخاف عليك الحزن تارة والغضب لغير الله تعالى أخرى وكلا الامرين آفة مهلكة ثم اذكر حالك معهم بعد ما صرت فى القبر ثلاثة أيام كيف يتركونك ويهجرونك وينسونك ولا يكادون يذكرونك كأنك لم ترهم يوما ولم يروك فلا يبقى هناك الا الله سبحانه أفلا يكون من الغبن العظيم ان تضيع أيامك مع هؤلاء الخلق مع قلة الوفاء وقلة البقاء معهم وتترك خدمة الله تعالى الذى يرجع اليه الامر وحده فلا يبقى لك الا هو أبدا الآبدين والحاجات كلها اليه والتكلان كله عليه والاعتصام كله فى كل حال وعند كل شدة وهول به وحده لا شريك له فتأمل يا مسكين له لك ترشد ان شاء الله تعالى والله ولى الهداية بفضله (وأما) النفس فحسبك ما تشاهده من حالاتها وردائع ارادتها وسوء اختيارها فهى فى حال الشهوة بهيمة وفى حال الغضب سبع وفى حال المصيبة تراها طفلا صغيرا وفى حال النعمة تراها فرعونا وفى حال الجوع تراها مجنونا وفى حال الشبع تراها محتالا لان أشبعتها بطرت ومرحت وان جوعتها صاحت وجزعت فهى كما قال القائل

كمثل السوء ان أشبعته * رمح الناس وان جاع نهش

(ولقد صدق) بعض الصالحين حيث قال ان من رداءة هذه النفس وجهلها بحيث اذا هممت بمعصية واتبعت لشهوة فنهيتها أو توعدت اليها بالله سبحانه ثم برسوله عليه السلام وبجميع أنبيائه وبكتابه وبجميع الساف الصالح من عباده وتعرض عليها الموت والقبر والقيامة والجنة والنار لا تبالى الانقياد ولا تترك الشهوة ثم ان استقبلتها بمنع رغيف تسكن وتترك شهوتها للعلم

وانصب ركبتيك ومد ظهرك وعنقك ورأسك مستويا كالصفيحة الواحدة وجاف مرفقيك عن جنبيك والمرأة لا تفعل ذلك بل تضم بعضها الى بعض وقل سبحان ربى العظيم وبحمده وان كنت منفردا فالزيادة الى السبع والعشر حسن * ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما وارفع يديك قائلا سمع الله لمن حمده فاذا استويت قائما فقل ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ما شئت من شئ بعد وان كنت فى فريضة الصبح فاقرأ القنوت فى الركعة الثانية فى اعتدالك من الركوع ثم اسجد مكبرا غير رافع اليدين وضع أولا على الارض ركبتيك ثم يديك ثم جبهتك مكشوفة وضع أنفك مع الجبهة وجاف مرفقيك عن جنبيك وأقل بطنك عن فخذيك والمرأة لا تفعل ذلك وضع يديك على الارض حذو منكبيك ولا تفرش ذراعيك على الارض وقل سبحان ربى الاعلى ثلاثا أو سبعا أو عشرة ان كنت منفردا * ثم ترفع من السجود مكبرا حتى تعتدل جالسا واجلس على

خستها وجهلها فايالك أيها الرجل أن تغفل عنها فانها كما قال خالقها العالم بها جل جلاله ان النفس لأمارة بالسوء فكفى بهذا تنبيها لمن عقل (ولقد بلغنا) عن بعض الصالحين يقال له أحمد بن أرقم البلخي رحمه الله انه قال نازعتني نفسي بالخروج الى الغزو فقلت سبحان الله ان الله يقول ان النفس لأمارة بالسوء وهذه تأمرني بالخير لا يكون هذا أبدا ولكنها استوحشت فتريد لقاء الناس لتستروح اليهم وينتسامع الناس بها فتستقبلوها بالتعظيم والبر والاكرام فقلت لها لا أنزلك العمران ولا أنزلك على معرفة فأجابت فأسأت الظن بها وقلت الله تعالى أصدق القائلين فقلت لها أقاتل العدو حاسرا فتكونين أول قتيل فأجابت فأسأت الظن بها وعددت أشياء مما أرادها فأجابت الى كل ذلك قال فقلت يا رب نبهني لها فافي متهم لها فصدق ذلك فكوشفت بها كأنها تقول يا أحمد أنت تقتلني كل يوم بمنعك اياي من شهواتي مرات وبمخالفتك ولا يشعر بك أحد فان قاتلت قتلت قتلة واحدة فتحوت منك وينتسامع الناس فيقولون استشهد أحمد ويكون لي شرف وذكر قال فقعدت ولم أخرج الى الغزو في ذلك العام فانظر الى خداع النفس وغرورها ترائي الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد وقد صدق القائل وأحسن فيما قال

لوق نفسك لا تأمن غوائلها * فالنفس أخبث من سبعين شيطانا

(فتنبه رحمك الله) لهذه الخدائع الامارة بالسوء ووطن على مخالفتها قلبك بكل حال تصب وتسلم ان شاء الله تعالى (ثم) عليك بالجامها بلجام التقوى لاحيلة لها سواه (واعلم) ان ههنا أصلا أصيلا وهو ان العبادة شطران شطر الاكتساب وشطر الاجتناب فالاكتساب فعل الطاعات والاجتناب الامتناع عن المعاصي والسيئات وهو التقوى وان شطر الاجتناب على كل حال أسلم وأصلح وأفضل وأشرف للعبد من شطر الاكتساب ولذلك يشتغل المبتدؤن من أهل العبادة الذين هم في أول درجة من الاجتهاد بشطر الاكتساب كل همتهم أن يصوموا نهارهم ويقوموا ليلهم ونحو ذلك ويشتغل المنتهون أولو البصائر من أهل العبادة بشطر الاجتناب انما همتهم أن يحفظوا قلوبهم عن الميل الى غير الله تعالى وبطونهم عن الفضول وألسنتهم عن اللغو وأعينهم عن النظر الى ما لا يعنيهم ولهذا المعنى قال العابد الثاني من العباد وكانوا سبعة ليونس يا يونس ان من الناس من حبب اليهم الصلوات فلا يؤثرون عليها شيأ وهي عمود العبادة بالثبات لله والصدق والتضرع والابتهال ومنهم من حبب اليهم الصوم فلا يؤثرون عليه شيأ ومنهم من حبب اليهم الصدقة فلا يؤثرون عليها شيأ يا يونس وانا فسرلك هذه الخصال فاجعل طول صلاتك الصبر على البأساء والتسليم لامر الله عز وجل واجعل صومك الصمت عن كل سوء واجعل صدقتك كف الاذى فانك لا تتصدق بشيء أفضل منه ولا تصوم بشيء أزكى منه فاذا علمت ان جانب الاجتناب أولى بالرعاية والاجتهاد فيه فان حصل لك الشطران جميعا الاكتساب والاجتناب فقد استكمل أمرك وحصل مرادك وقد سلمت وغنمت وان لم تبلغ الا الى أحدهما فليكن ذلك جانب الاجتناب فتسلم ان لم تغنم والا خسرت الشطرين جميعا وما يتعملك قيام ليل وتعبه ثم تحبط بارادة واحدة وما يفنيك صيام نهار طويل ثم تفسده بكلمة واحدة (ولقد رؤينا) عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قيل له ما تقول في رجلين أحدهما كثير الخير كثير الشر والآخر قليل الخير قليل الشر قال لا أعدل بالسلامة شيأ (ومثال) ما قلناه مثال

رجلك اليسرى وانصب قدمك اليمنى وضع يديك على فخذيك والاصابع منشورة وقل رب اغفر لي وارحمني وارزقني واهدني واجبرني وعافني واعف عني ثم اسجد سجدة ثانية كذلك ثم اعتدل جالسا جلسة الاستراحة في كل ركعة لا تتشهد عقبها ثم تقوم وتضع اليدين على الارض ولا تقدم احدى رجليك في حالة الارتفاع وابتدئ تكبيرة الارتفاع عند القرب من حد جلسة الاستراحة ومدها الى منتصف ارتفاعك الى القيام ولتكن هذه الجلسة جلسة خفيفة تخطفه وصل الركعة الثانية كالاولى وأعد التعوذ في الابتداء * ثم تجلس في الركعة الثانية للتشهد الاول وضع اليد اليمنى في جلوسك للتشهد الاول على الفخذ اليمنى مقبوضة الاصابع الا المسبحة والابهام فترسلهما وأشر بمسبحة يمينك عند قولك الا الله لا معتمدا له ووضع اليد اليسرى منشورة الاصابع على الفخذ اليسرى واجلس على رجلك اليسرى في هذا التشهد كما بين السجدتين وفي التشهد الاخير متوركا

المريض وذلك ان معالجة المريض نصفان نصف هو الدواء ونصف هو الاحتماء فان اجتمعا فكأنك بالمريض قد برئ وصح والا فالاحتماء به أولى اذ لا ينفع دواء مع ترك الاحتماء ولقد ينفع الاحتماء مع ترك الدواء (واقد قال) صلى الله عليه وسلم أصل كل دواء الحمية والمعنى بها والله أعلم انها تغني عن كل دواء ولذا يقال ان أهل الهند جل معالجتهم الحمية بمنع المريض عن الاكل والشرب والكلام عدة أيام فيبرأ ويصح بذلك لا غير * فتبين لك بهذه الجملة أن التقوى ملاك الامر وجوهره وأهلها هم الطبقة العليا من العباد فعليك ببذل الجهود في ذلك وصرف كل العناية الى ذلك والله سبحانه ولي التوفيق برحمته

(فصل)

ثم راع هذه الاعضاء الاربعة التي هي الاصول الاول العين وحسبك فيها ان مدار امر الدين والدنيا على القلب وأن خطر القلب وشغله وفساده في الاكثر من العين ولذلك قال علي رضي الله عنه من لم يملك عينه فليس للقلب عنده قيمة والثاني اللسان وحسبك أن فيه ربحك وغنيمتك وثمرة تعبك واجتهادك كله للعبادة والطاعة وان خطر العبادة واسباطها وافسادها في الاكثر من قبل اللسان بالتصنع والتزين والغيبة ونحوها يتلف عليك بلفظة واحدة ما تعبت فيه سنة واحدة بل خمسا وعشرا ولذلك قيل ما شيء أحق بطول السجن من اللسان (وفيما روى) أن أحد العباد السبعة قال ليونس عليه السلام يا يونس ان العباد اذا اجتهدوا في العبادة لم يتقووا على عبادتهم بشيء أفضل من الصبر عن ترك الكلام في فضل طويل ثم عاد الى ذلك فقال ولا يكونن عندك شيء آثر من حفظ لسانك ولا تكونن لشيء أعنى به من سلامة صدرك فبهذه هذه (ثم اذكر) الانفاس التي تكلمت فيها بفضول ما كان يضرك لو قلت أستغفر الله فربما وافق ساعة عزيزة فيغفر الله لك فترجح رأس مالك أو قلت لا اله الا الله فيكون لك من الاجر والذخر ما لا يحيط به وهمك أو تقول اسأل الله العافية فربما تفق حسن نظر فيستجيب الله تعالى دعوتك فتحوت من بليسة الدنيا والآخرة ألا يكون من الخسران العظيم والغبن الفظيع أن تفوت على نفسك كل هذه الفوائد الكريمة وتجعل نفسك ووقتك في فضول أقل ما يلزمك فيه اللوم والحساب والحبس يوم القيامة ولقد أحسن القائل في قوله

واذا هممت بالنطق في البا * طل فاجعل مكانه تسبيحا

والثالث البطن وحسبك أن مقصود لك العبادة وأن الطعام بذر العمل وما رؤه منه يبدو وينبت واذا خبث البذر لا يطيب الزرع بل فيه خطر أن يفسد عليك أرضك فلا تفلح أبدا ومن ذلك ما بلغنا عن معروف الكرخي انه قال اذا صمت فانظر على أي شيء تفطر وعند من تفطر وطعام من تأكل فكم من يأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه فلا يعود الى حاله أبدا وكم من أكلة حرمت قيام ليلة وكم من نظرة صنعت قراءة سورة وان العبد ليأكل أكلة فيحرم بها قيام سنة فعليك أيها الرجل بالنظر الدقيق والاحتياط البالغ الشديد في قوتك ان كانت لك عناية بقلبك وهمة في عبادة ربك هذا في أصل القوت حتى يكون من وجهه ثم عليك بالادب فيه والا كنت حمالا للطعام مضيعا للايام اذ قد علمنا يقينا بل رأينا عيانا أن العبادة لا يجيء منها شيء اذا امتلأ البطن وان أكرهت النفس على ذلك وجاهدت بضروب الحيل فلا يكون لتلك العبادة لذة ولا حلاوة

ولذلك

واستكمل الدعاء المعروف المأثور بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم واجلس فيه على وركك الايسر وضع رجلك اليسرى خارجة من تحتك وانصب القدم اليمنى ثم قل بعد الفراغ السلام عليكم ورحمة الله مرتين من الجانبين والتفت بحيث يرى خدك من جانبك وانو الخروج من الصلاة وانو السلام على من على جانبيك من الملائكة والمسلمين وهذه هيئة صلاة المنفرد وعماد الصلاة الخشوع وحضور القلب مع القراءة والذكر بالفهم وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي الى العقوبة أسرع وقال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليصلي الصلاة فلا يكتب له منها سدسها ولا عشرها وانما يكتب للعبد من صلاته بقدر ما عقل منها

(آداب الامامة والقدوة)

ينبغي للامام أن يخفف الصلاة قال أنس رضي الله عنه ما صليت خلف أحد صلاة أخف ولا أتم من صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يكبر ما لم يفرغ المؤذن من الاقامة وعالم

ولذلك قيل لا تطمع فى حلاوة العبادة مع كثرة الاكل وأى نور فى نفس بلا عبادة وفى عبادة بلا لذة ولا حلاوة ولهذا المعنى قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله صحبت أكثر رجال الله تعالى فى جبل لبنان فكانوا يوصونى اذا رجعت الى أبناء الدنيا فعظهم بأربع خصال قل لهم من يكثر الاكل لا يجد لذة العبادة ومن ينم كثيرا لا يجد فى عمره بركة ومن طلب رضا الناس فلا ينتظر رضا الرب ومن يكثر الكلام بالفضول والغيبة فلا يخرج من الدنيا على دين الاسلام (وعن سهل رحمه الله) أنه قال جماع الخير كله فى هذه الخصال الاربع وبها صارت الابدال أبدالا الا خماص البطون والصمت والاعتزال عن الخلق وسهر الليل (وقال) بعض العارفين الجوع رأس مالنا ومعناه أن ما يحصل لنا من فراغ وسلامة وعبادة وحلاوة وعلم وعمل نافع بسبب الجوع والصبر عليه لله سبحانه (وأما) القلب فحسبك أنه أصل الكل ان أفسدته فسد الكل وان أصلحته صلح الكل اذ هو الشجرة وسائر الاعضاء اغصان ومن الشجرة تشرب الاغصان وتصلح وتفسد وانه الملك وسائر الاعضاء تبع وأركان واذا صلح الملك صلحت الرعية واذا فسد فسدت الرعية فاذن صلاح العين واللسان والبطن وغيره دليل على صلاح القلب وعمرانه واذا رأيت فيه خللا وفسادا فاعلم ان ذلك من خلل فى القلب وفساد وقع ثم بل الفساد فيه أكثر فاصرف عنايتك اليه فأصلحه يصلح الكل بمرة فتستريح ثم أمره دقيق عسير انفاذه وهو مبنى على الخواطر وهى ليست تحت يدلك والامتناع من اتباعها مجاهدة وطاقتك نفسه أقصى المشقة ولهذا المعنى صار اصلاحه أشد على أهل الاجتهاد والاهتمام بأمره أكثر وأكبر عند ذوى البصائر (وعن) أبى يزيد رحمه الله أنه قال عالجت قلبى عشرا ولسانى عشرا ونفسى عشرا فكان قلبى أصعب الثلاثة فهذه هذه (ثم) عليك بالاهتمام بالخصال الاربع التى ذكرناها من الامل والعجلة فى الامور والحسد والكبر وانما خصصنا هذه الاربعة من بين سائر الخصال فى هذا الموضع وحضضنا على الاحتراس منها لانها علل القراء خاصة اذهى تعترى سائر الناس عموما والقراء خصوصا فتكون أقبح وأشنع ترى الرجل القارئ يطول الامل ويعد منية خبر فيوقعه فى الكسل والتوانى فى العمل وتراه يستعجل فى تحصيل منازل الخير فينقطع عنها أو فى اجابة دعاء صالح فيحرم من ذلك أو فى الدعاء على أحد بسوء فيندم على ذلك كما ذكر عن نوح عليه السلام وتراه يحسد نظراءه على ما آتاهم الله من فضله حتى ربما يبلغ منه ذلك مبلغا يحمله على قبائح وفضائح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر (ولهذا) المعنى قال سفيان الثورى رحمه الله ما أخاف على دعى الا القراء والعلماء فاستنكروا منه ذلك فقال ما أنا قلته انما قاله ابراهيم النخعى رحمه الله تعالى وعن عطاء قال قال لى الثورى رحمه الله احذروا القراء واحذرونى معهم فلو خالفت أودهم لى فى زمانه فأقول انها حلوة ويقول انها حامضة مما امتحنه ان يسعى بدمى الى سلطان جائر وعن مالك بن دينار أنه قال انى أقبل شهادة القراء على جميع الخلق ولا أقبل شهادة بعضهم على بعض لانى وجدتهم حسادا وعن الفضيل أنه قال لابنه اشترلى دارا بعيدة من القراء مالى ولقوم ان ظهرت منى زلة هتكونى وان ظهرت على نعمة حسدونى وكذلك تراه يتكبر على الناس ويستخف بهم مصعرا خده معبسا وجهه كأنما عين على الناس عيا يصلى زيادة ركعتين آركانها جاء من الله تعالى منشور بالجنة أو البراءة من النار أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ثم مع ذلك يلبس لباس المتواضعين من

تسوى الصفوف ويرفع الامام صوته بالتكبيرات ولا يرفع المأموم صوته الا بقدر ما يسمع نفسه وينوى الامام الامامة لينال الفضل فان لم ينو صحت صلاة القوم اذا نووا الاقتداء به ونالوا فضل القدوة ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة فى جميع الصبح وأولتى المغرب والعشاء وكذلك المنفرد ويجهر بقوله آمين فى الجهرية وكذلك المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الامام معا لاتعقيبا له ويسكت الامام سكتة عقيب الفاتحة لينوب اليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة فى الجهرية فى هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الامام ولا يقرأ المأموم السورة فى الجهرية الا اذا لم يسمع صوت الامام ولا يزيد الامام على الثلاثة فى تسبيحات الركوع والسجود ولا يزيد فى التشهد الاول بعد قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ويقتصر فى الركعتين الاخريين على الفاتحة ولا يطول على القوم ولا يزيد دعاءه فى التشهد الاخير

صوف وغيره ويتعاوت وهذا لا يليق بالترفع والتكبر ولا يلائمه بل يناقضه ولكن الاعمى لا يبصر وذكر أن فرقدا السنجي دخل على الحسن وعليه كساء وعلى الحسن حلة فجعل يلمسها فقال الحسن مالك تنظر الى ثيابي ثياب أهل الجنة وثيابك ثياب أهل النار بلغني ان أكثر أهل النار أصحاب الاكسية ثم قال الحسن جعلوا الزهد في ثيابهم والكبر في صدورهم والذي يحلف به لاحدكم بكسائه أعظم كبرا من صاحب المطرف بمطرفه والى هذا المعنى يشير ذو النون رحمه الله حيث قال

تصوف فازدهى بالصوف جهلا * وبعض الناس يلبسه مجانه
يريك مهانة ويريك كبرا * وليس الكبر من شكل المهانه
تصوف كي يقال له أمين * وما معنى تصوفه الامانه
ولم يرد الاله به ولكن * أراد به الطريق الى الخيانه

(فاحذر) أيها الرجل من هذه الآفات الاربع التي ذكرناها لا سيما الكبر فان الثلاث الاول مداحض لو زلات فيها لوقعت في العصيان والكبر مدحض لو زللت فيه لوقعت في بحار الكفر والطغيان ولا تنس حديث ابليس وفقنه أنه أبى واستكبر وكان من الكافرين والرجوع الى الله عز وجل أن يعصمنا جميعا بحسن نظره انه الجواد الكريم

(فصل)

وجملة الامر أنك اذا نظرت بعقلك أيها الرجل فعلمت ان الدنيا لا بقاء لها وان نفعها لا يبقى بضرها وتبعاتها من كد البدن وشغل القلب في الدنيا والعذاب الاليم والحساب الطويل في الآخرة الذي لا طاقة لك به فاذا علمت ذلك جد ازهدت في فضولها فلا تأخذ منها الا ما لا بد لك منه في عبادة ربك وتدع التنعم والتلذذ الى الجنة دار النعيم المقيم في جوار رب العالمين الملك القادر الغني الكريم وعلمت أن الخلق لا وفاء لهم وان مؤنتهم أكثر من معونتهم فيما يعنيك وتركت مخالطتهم الا فيما لا بد لك منه تنتفع بخيرهم وتجتنب من ضررهم وتجعل صحبتك لمن لا تخسر في صحبته ولا تندم على خدمته وأنست بكتابه ولازمته اياه فيكون لك بكل حال وترى منه كل جميل وافضال وتجده عند كل نائبة في الدنيا والآخرة (كما قال) عليه السلام احفظ الله تجده حيث اتجهت وعلمت أن الشيطان خبيث قد تجرد لعداوتك فاستعذ بربك القادر القاهر من هذا الكلب اللعين ولا تغفل عن مكايده ومصايده فتطرده بذكر الله سبحانه ولا تعبأ بذلك فانه يسير اذا ظهرت منك عزيمة الرجال وأنه كما قال الله تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (ولقد صدق) أبو حازم فيما قال ما الدنيا وما ابليس أما الدنيا فما مضى منها فحلم وما بقي فأماني وأما الشيطان فوالله لقد أطيع فما نفع ولقد عصي فما ضر وعلمت جهالة هذه النفس وجماحها الى ما يضرها ويهلكها فنظرت اليها رحمة لها نظر العقلاء والعلماء الذين ينظرون في العواقب لا نظر الجهال والصبيان الذين ينظرون في الحال ولا يفطنون لغائلة الاذى ويتفرون من مرارة الدواء فألجمتها بلجام التقوى بان منعتها عما لا تحتاج اليه بالحقيقة من فضول كلام ونظر وطعام وملبس بخصلة فاسدة من طول أمل أو عجلة أو حسد مسلم أو تكبر في غير موضع أو أكل بمحض شهوة وشره وتعظيما لما ليس لها منه بد ولا تخاف منه ضررا الا ضرورة الى الفضول وقد وسع الله تعالى

على قدر تشهده وصلاته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينوي الامام عند التسليم السلام على القوم وينوي القوم بتسليمهم جوابه ويلبث الامام ساعة بعد ما يفرغ من السلام ويقبل على الناس بوجهه ولا يلتفت ان كان خلفه النساء لينصرفن أولا ولا يقوم احد من القوم حتى يقوم الامام وينصرف الامام حيث شاء عن يمينه أو شماله واليمين أحب اليه ولا يخص الامام نفسه بالدعاء في قنوت الصبح بل يقول اللهم اهدنا ويجهر به ويؤمن القوم ولا يرفعون أيديهم اذ لم يثبت ذلك في الاخبار ويقرأ المأموم بقية القنوت من قول انك تقضي ولا يقضى عليك ولا يقف المأموم وحده بل يدخل الصف أو يجر الى نفسه غيره ولا ينبغي للمأموم أن يتقدم على الامام في أفعاله أو يساويه بل ينبغي أن يتأخر ولا يهوي للركوع الا اذا انتهى الامام الى حد الركوع ولا يهوي للسجود ما لم تصل جبهة الامام الى الارض

الامر على عباده برحمته واغناهم عن جميع مايضرهم فى أمر دينهم فأى حاجة الى ذلك فان الامر كما قال بعض الصالحين ان التقوى اهون شئ اذا رابنى شئ تركته فان النفس تستكين وتتعود ماعودتها وانها كما قال القائل

فالنفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليل تقنع

(وقال آخر) * هى النفس ماحملتها تتحمل * ويروى ماعودتها تتعود (وقال آخر)

صبرت عن اللذات حتى تولت * والزمت نفسى صبرها فاستمرت

وما النفس الا حيث يجعلها الفتى * فان أطمعت تاقت وان أيأست سلت

فاذا عملت الذى وصفناه كنت من الزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة (واعلم) ان من سمى باسم الزاهد فلقد سمى بأشرف اسم ممدوح وكنت من المنفردين المنقطعين الى الله سبحانه الذين هم أهل الانس وخدم رب العالمين فتكون كما قال القائل

تشاغل قوم بدنياهم * وقوم تخلوا لمولاهم

فألزمهم باب مرضاته * وعن سائر الخلق اغناهم

يصفون بالليل اقدامهم * وعين المهيمن ترعاهم

فطوبى لهم ثم طوبى لهم * اذا بالتحية حياهم

وكنت من الزاهدين المجاهدين فى الله الخواص من عباد الله تعالى الذين قال فيهم سبحانه ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكنت من المتقين الذين لهم سعادة الدارين وصرت حينئذ أفضل من كثير من الملائكة المقربين اذ ليست لهم شهوة تدعوهم الى قبيح ولا نفس خبيثة وكنت قد خلفت هذه العقبة الطويلة الشديدة وراءك وسبقت العوائق كلها الى مقصودك ولا يهولنك فانه مع الاستعانة بالله والاعتصام به لهين نسأل الله تعالى وهو خير مسؤل ان يمدك وايانا بحسن توفيقه وعونه وتيسيره فانه الكافى لكل مهم والاستعانة به فى كل معضل فبيده الخلق والامر وهو على كل شئ قدير فهذا ما أردنا ذكره فى هذا الباب ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

(الباب الرابع فى العقبة الرابعة وهى عقبة العوارض)

ثم عليك ياطالب العبادة وفقك الله بكف العوارض الشاغلة عن عبادة الله تعالى وسد سبيلها عنك لئلا تشغلك عن مقصودك وقد ذكرنا انها أربعة (أحدها) الرزق ومطالبة النفس بذلك وانما كفايته فى التوكل فعليك بالتوكل على الله سبحانه فى موضع الرزق والحاجة بكل حال وذلك لامرين (أحدهما) التفرغ للعبادة ويتهيأ لك من الخير حقه فان من لم يكن متوكلا فلا بد من اشتغاله عن عبادة الله بسبب الحاجة والرزق والمصلحة اما ظاهرا واما باطنا اما بطلب وكسب بالبدن كعامة الراغبين واما بذكر وارادة ووسوسة بالقلب كالمجتهدين المعاقين والعبادة تحتاج الى فراغ القلب والبدن ليحصل حقها والفراغ لا يكون الا للمتوكلين بل أقول كل من هو ضعيف القلب لا يكاد يطمئن قلبه الا بشئ معلوم فلا يكاد يتم له أمر خطير من دنيا وآخرة وكثيرا ما سمعت من شيخى أبى محمد رحمه الله تعالى يقول انما الامر يتهيأ فى العالم لرجلين متوكل أو مغرور (قلت) وهذا كلام جامع فى معناه فان المتوكل يقصد الامور على قوة عادة وجراءة قلب لا يلتفت الى صارف يصرفه أو خاطر يضعفه فتجرى له الامور والمتوكل يقصد

(آداب الجمعة)

اعلم أن الجمعة عيد المؤمنين وهو يوم شريف خص الله عز وجل به هذه الامة وفيه ساعة مبهمة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها حاجة الا أعطاه اياها فاستعد لها من يوم الخميس بتنظيف الثياب وبكثرة التسبيح والاستغفار وعشية الخميس فانها ساعة نوازى فى الفضل ساعة يوم الجمعة وانو صوم يوم الجمعة لكن مع السبت أو الخميس اذ صوم الجمعة فى افرادها نهى فاذا طلع عليك الصبح فاغتسل فان غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم أى ثابت مؤكد * ثم تزين بالثياب البيض فانها أحب الثياب الى الله تعالى واستعمل من الطيب أطيبه ما عندك وبالغ فى تنظيف بدنك بالحلق والقص والتقليم والسواك وسائر أنواع النظافة وتطييب الرائحة * ثم بكر الى الجامع واسع الهيئة على الهينة والسكينة فقد قال صلى الله عليه وسلم من راح فى الساعة الاولى فكأنما قرب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا ومن راح فى الساعة

الرابعة فكانما قرب دجاجة
ومن راح في الساعة الخامسة
فكانما قرب بيضة فاذا
خرج الامام طويت الصحف
ورفعت الاقلام واجتمعت
الملائكة عند المنبر يستمعون
الذكر * ويقال ان الناس
في قبورهم عند النظر الى وجه
الله تعالى على قدر بكورهم
الى الجمعة. ثم اذا دخلت
الجامع فاطلب الصف
الاول فان اجتمع الناس
فلا تخط رقابهم ولا تمر بين
أيديهم وهم يصلون واجلس
بقرب حائط أو أسطوانة
حتى لا يمرون بين يديك
ولا تتعد حتى تصلي التحية
والاحسن أن تصلي أربع
ركعات تقرأ في كل ركعة
خمسين مرة سورة الاخلاص
ففي الخبر من فعل ذلك لم يمت
حتى يرى مقعده من الجنة
أو يرى له ولا تترك التحية
وان كان الامام يخطب *
ومن السنة ان تقرأ في
أربع ركعات سورة الانعام
والكهف وطه ويس فان لم
تقدر فسورة يس والدخان
والم السجدة وسورة الملك
ولا تدع قراءة هذه السورة
ليلة الجمعة ففيها فضل كثير
ومن لم يحسن ذلك فليكثر
من قراءة سورة الاخلاص

الامور على قوة وبصيرة وكمال يقين بوعد الله سبحانه وتمام ثقة بضمانه فلا يلتفت الى انسان يخوفه ولا شيطان يوسوسه فيفوز بمقاصده وينظفر بمطالبه (واما) المعلق الضعيف فهو أبدا يكون بين توكل وتردد وفتور وتحير كالحمار في معلفه والدجاج في قفصه يرمق ما تعود من صاحبه لا يكاد ينتقل من ذلك قد تقاعدت نفسه عن معالي الامور وانقطعت همته فلا يكاد يقصد أمرا شريفا وان قصده فلا يكاد يظفر به ولا يتم له ذلك اما ترى أصحاب الهمم من أبناء الدنيا نالوا مرتبة كبيرة ومنزلة خطيرة الا بانقطاع قلوبهم عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم (واما) الملوك فيباشرون الحروب ويكابدون الاعداء اما ملكا واما ملكا حتى تحصل لهم مرتبة الملك وعقد الولاية (وقيل) ان معاوية بن أبي سفيان لما نظر الى العسكرين يوم صفين قال من أراد خطيرا خاطر بعظيمته (وأما) التجار فيركبون الهالك برا وبحرا ويطرحون أنفسهم وأموالهم في المقاطع شرقا وغربا ويوطنون أنفسهم على أحد الامرين اما فوت الارواح واما حصول الارباح حتى يحصل لهم بذلك كل ربح عظيم ومال جسيم وعلق نفيس (واما) السوقي الذي ضعف قلبه ورق عزمه فلا يكاد يقطع القلب عن علاقته من نفسه وماله فهو من بيته الى دكانه طول عمره لا يصل الى مرتبة شريفة كالملوك ولا الى ربح عظيم كالتجار المخاطرين فان نال في سوقه ربح درهم على بضاعته فذاك له كثير وذلك لتعلق قلبه بشيء معلوم (فهذا) في الدنيا وابناؤها واما أبناء الآخرة فرأس مالهم هذه الخصلة التي هي التوكل وقطع القلب عن العلائق لما أحكموها وحصلوها حققا تفرغوا لعبادة الله تعالى وتمكنوا في التفرد عن الخلق والسياحة في الارض واقتحام القيافي واستيطان الجبال والشعاب فصاروا أقوياء العباد ورجال الدين واحرار الناس وملوك الارض بالحقيقة يسيرون حيث يشاؤن وينزلون حيث يشاؤن ويقصدون من الامور العظام علما وعبادة ما يشاؤن لا عائق لهم ولا حاجز لهم دونهم فكل الاماكن لهم واحد وكل الازمان عندهم واحد واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن سره ان يكون أكرم الناس فليتق الله ومن سره ان يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده وعن سليمان الخواص لو ان رجلا توكل على الله سبحانه بصدق النية لاحتاج اليه الامراء ومن دونهم وكيف يحتاج ومولاه الغني الحميد وعن ابراهيم الخواص انه قال لقيت غلاما في البيد كانه سبيكة فضة فقلت له الى أين يا غلام قال الى مكة قلت بلا زاد ولا راحلة فقال يا ضعيف اليقين الذي يقدر على حفظ السموات والارض قادر على ان يوصلني الى مكة بلا زاد ولا راحلة فلما دخلت مكة فاذا هو في الطواف يقول

يا نفس حيي أبدا * ولا تخشي أحدا
الا الجليل الصمدا * يا نفس موتي كمدا

فلما رآني قال يا شيخ أنت بعد على ذلك الضعف (وقال) أبو مطيع لحاتم الاصم بلغني انك تقطع المفاوز بالتوكل من غير زاد قال حاتم زادي اربعة أشياء قال ما هي قال أرى الدنيا والآخرة مملكة لله تعالى وأرى الخلق كلهم عبيد الله وعياله وأرى الارزاق والاسباب كلها بيد الله عز وجل وأرى قضاء الله نافذا في جميع أرض الله ولقد أحسن من قال

أرى الزهاد في روح وراحه * قلوبهم عن الدنيا مزاحه

اذا أبصرتهم أبصرت قوما * ملوك الارض شيمتهم سماحه

(واما الامر الثاني) الذي اقتضى التوكل على الله سبحانه وتعالى في هذا الشأن فهو ما في تركه من الخطر العظيم والامر الكبير (قلت) اليس الله سبحانه قرن الرزق بالخلق فقال تعالى خلقكم ثم رزقكم فدل على ان الرزق من الله سبحانه لا غير كالخلق ثم لم يكتف بالدلالة حتى وعد فقال عز وجل ان الله هو الرزاق ثم لم يكتف بالوعد حتى ضمن فقال وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ثم لم يكتف بالضمان حتى أقسم فقال فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون ثم لم يكتف بذلك كله حتى أمر بالتوكل وأبلغ وأنذر فقال وتوكل على الحي الذي لا يموت وقال سبحانه وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين فمن لم يعتبر قوله ولم يكتف بوعده ولم يطمئن الى ضمانه ولم يقنع بقسمه ثم لم يبال بأمره ووعده ووعيده فانظر ماذا يكون حاله وأية محنة تحمى من هذا وهذه والله مصيبة شديدة ونحن منها في غفلة عظيمة ولقد قال الصادق الامين صلى الله عليه وسلم لابن عمر كيف أنت اذا بقيت بين قوم يخبؤن رزق سنتهم لضعف اليقين وعن الحسن رحمه الله تعالى لعن الله اقواما أقسم لهم ربهم فلم يصدقوه (وقالت) الملائكة عند نزول هذه الآية فورب السماء والارض هلكت بنو آدم أغضبوا الرب حتى أقسم لهم على أرزاقهم وعن أويس القرني رضي الله عنه انه قال لو عبدت الله عبادة أهل السموات والارض لا يقبل منك حتى تصدقه قيل وكيف نصدقه قال تكون آمنا بما تكفل الله لك من أمر رزقك وترى جدلك فارغا لعبادته ولقد قال له هرم بن حيان أين تأمرني ان أقيم فأومأ بيده الى الشام قال هرم كيف المعيشة بها قال ألف لهذه القلوب لقد خالطها الشك فما تنفعها المواعظ (وبلغنا) ان نباشا تاب على يدي أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى فسأله أبو يزيد عن حاله فقال نبشت عن ألف قبر فلم أر وجوههم الى القبلة الا رجلين فقال أبو يزيد مساكين أولئك تهمة الرزق حولت وجوههم عن القبلة (وذكر) لي بعض أصحابنا رحمه الله تعالى انه رأى رجلا من أهل الصلاح فسأله عن حاله فقال هل سلمت بايمانك فقال انما يسلم الايمان للمتوكلين نسأل الله تعالى ان يصلحنا بفضله وان لا يؤاخذنا بما نخفي أنه أرحم الراحمين فهذه هذه (فان قلت) فأخبرنا ما حقيقة التوكل وحكمه وما يلزم العبد منه في أمر الرزق (فاعلم) انه انما يتبين لك هذا في أربعة فصول بيان لفظ التوكل ومواضعه وحده وحصنه (فاما اللفظ) فانما هو توكل تفعل من الوكالة فالمتوكل على أحد هو الذي يتخذه بمنزلة الوكيل القائم بأمره الضامن لاصلاحه الكافي له من غير تكلف واهتمام فهذه جملته (واما الموضع) فاعلم ان التوكل اسم مطلق في ثلاثة مواضع أحدها في موضع القسمة وهو الثقة بالله لانه لا يفوتك ما قسم لك فان حكمه لا يتبدل وهذا واجب بالسمع والثاني في موضع النصرة وهو الاعتماد والوثاقة بنصر الله عز وجل لك اذا نصرته وجاهدت في الله تعالى فاذا عزمت فتوكل على الله وقال ان تنصروا الله ينصركم وقال تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين وهذا واجب بالوعد والثالث في موضع الرزق والحاجة فان الله تعالى متكفل بما يقيم بنيتك لخدمته وتتمكن به من عبادته وذلك قوله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقال الصادق الامين صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وهذا فرض لازم للعبد بدليل العقل والشرع جميعا وهذا هو الاشهر

واكثار الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم خاصة * ومهما خرج الامام فاقطع الصلاة والكلام واشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة والاتعاظ بها ودع الكلام رأسا في الخطبة ففي الخبر ان من قال لصاحبه والامام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له أي لان قوله أنصت كلام فينبغي أن ينهى غيره بالاشارة لا باللفظ * ثم اقتد بالامام كما سبق فاذا فرغت وسلمت فاقرأ الفاتحة قبل أن تتكلم سبع مرات والاخلاص سبعا والمعوذتين سبعا فذلك يعصمك من الجمعة الى الجمعة الاخرى ويكون حرزا لك من الشيطان وقل بعد ذلك اللهم يا غني يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم يا ودود أغنني بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عن سواك ثم صل بعد الجمعة ركعتين أو أربعا أو ستا أو ثمانيا فكل ذلك مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحوال مختلفة ثم لازم المسجد الى المغرب أو الى العصر وكن حسن المراقبة لله تعالى

والا بلغ منه أعنى التوكل فى موضع الرزق وهو المقصود من هذا الفصل فوضع التوكل اذن هو الرزق وهو الرزق المضمون فيما قاله العلماء بالله تعالى وانما يتضح لك هذا ببيان أقسام الرزق (فاعلم) ان الرزق أربعة أقسام مضمون ومقسوم ومملوك وموعود (فالمضمون) هو الغذاء وما به قوام البنية دون سائر الاسباب فالضمان من الله تعالى لهذا النوع والتوكل يجب بازائه بدليل العقل والشرع لان الله تعالى كافلنا خدمته وطاعته بأبداننا فضمن ما يسد خلل البنية لتقوم بما كافلنا وقال بعض المشايخ الكرامية كلاما حسنا على أصله ان ضمان أرزاق العباد واجب فى حكمة الله تعالى لثلاثة أشياء أحدها انه السيد ونحن العبيد وعلى السيد كفاية مؤونة العبيد كما ان العبيد خدمة السيد والثانى انه خلقهم محتاجين الى الرزق ولم يجعل لهم سبيلا الى طلبه اذ لا يدرون ما هو رزقهم وأين هو ومتى هو ليطلبوه بعينه من مكانه وفى وقته لصاروا اليه فوجب ان يكفيهم أمر ذلك ويوصلهم اليه والثالث انه كلفهم الخدمة وطلب الرزق شاغل عنها فوجب ان يكفيهم المؤنة ليتفرغوا للخدمة وهذا كلام من لم يحط بأسرار الربوبية والقائل بان الرزق على الله واجب تائه وقد أوضحنا فى فن الكلام فساده ولنرجع الى المقصود من غرضنا (واما الرزق المقسوم) فهو ما قسمه الله سبحانه وكتبه فى اللوح المحفوظ مما يأكله ويشربه ويلبسه كل واحد بمقدار مقدر ووقت مؤقت لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر عما كتب بعينه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم الرزق مقسوم مفروغ منه ليس تقوى تقى بزائده ولا فجور فاجر بناقصه (وأما المملوك) فما يملكه كل واحد من أموال الدنيا على حسب ما قدر الله تعالى وقسم له ان يملكه وهو من رزق الله تعالى قال تعالى أنفقوا مما رزقناكم أى مما ملكناكم (واما الموعود) فهو ما وعد الله به عباده المتقين بشرط التقوى حلالا من غير كد قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب (فهذه) اقسام الرزق والتوكل انما يجب بازاء المضمون منها فاعلم ذلك (واما) حد التوكل فقد قال بعض شيوخنا انه اتكال القلب الى الله بالانقطاع اليه والاياس مما دونه وقال بعضهم حفظ القلب الى الله بوضع المصلحة بتركك تعلقه على شئ دونه (وقال) الشيخ الامام أبو عمرو رحمه الله تعالى التوكل ترك التعلق والتعلق ذكر قوام بنيتك عن شئ دون الله تعالى (قال) شيخى الامام رحمه الله التوكل والتعلق ذكران فالتوكل هو ذكر قوام بنيتك من قبل الله تعالى والتعلق ذكر قوامها عن دون الله والاقاويل عندى ترجع الى أصل واحد وهو ان توطن قلبك على ان قوام بنيتك وسد خلتك وكفايتك انما هو من الله عز وجل لا بأحد دون الله ولا بحظ ما من الدنيا ولا بسبب من الاسباب ثم الله سبحانه ان شاء سبب له مخلوقا أو حظا ما وان شاء كفاه بقدرته دون الاسباب والوسايط واذا ذكرت ذلك بقلبك وتوطنت عليه وانقطع القلب عن المخلوقين والاسباب بمرة الى الله سبحانه وحده فقد حصل التوكل حقه فهذا حده (واما) حسن التوكل الباعث عليه فهو ذكر ضمان الله وحسن حصنه ذكر جلال الله وكماله فى علمه وقدرته وتراهته عن الخلق والسهو والعجز والنقص فاذا واظب العبد على هذه الاذكار بعثته على التوكل على الله سبحانه فى أمر الرزق (فان قيل) هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ما (فاعلم) ان الرزق المضمون الذى هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه اذ هو شئ من فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا دفعه (واما المقسوم) من الاسباب فلا يلزم

الشريفة فانها مهمة فى جميع اليوم فسألك ان تدركها وأنت خاشع لله متضرع * ولا تحضر فى الجامع مجالس الخلق ولا مجالس القصاص بل مجلس العلم النافع وهو الذى يزيد فى خوفك من الله تعالى وينقص من رغبتك فى الدنيا فكل علم لا يدعك من الدنيا الى الآخرة فالجهل أعود عليك منه فاستعذ بالله من علم لا ينفع * وأكثر الدعاء عند طلوع الشمس وعند الزوال وعند الغروب وعند الاقامة وعند صعود الخطيب المنبر وعند قيام الناس الى الصلاة فعوشك أن تكون الساعة الشريفة فى بعض هذه الاوقات واجتهد أن تتصدق فى هذا اليوم بما تقدر عليه وان قل فتجمع بين الصلاة والصوم والصدقة والقراءة والذكر والاعتكاف والرباط واجعل هذا اليوم من الاسبوع خاصة لآخرتك فعساه ان يكون كفارة لبقية الاسبوع

العبد طلبه اذ لا حاجة للعبد الى ذلك وانما حاجته الى المضمون وهو من الله تعالى وفى ضمان الله تعالى (واما قوله تعالى) وابتغوا من فضل الله فالمراد به العلم والثواب وقيل بل هو رخصة اذ هو أمر وارد بعد الحظر فيكون بمعنى الاباحة لا بمعنى الايجاب والالزام (فان قيل) لكن لهذا الرزق المضمون اسباب هل يلزمنا طلب الاسباب (قيل له) لا يلزمك ذلك اذ لا حاجة للعبد اليه اذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب فمن أين يلزمنا طلب السبب ثم ان الله تعالى ضمن لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب قال الله تعالى وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ثم كيف يصح ان يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه اذ لا يعرف أى سبب منها رزقه الذى يتناوله لا غير والذى يصير سبب غذائه وتربيته لا غير فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه من أين يحصل له فلا يصح تكليفه فتأمل راشدا فانه بين (ثم حسبك) ان الانبياء صلوات الله عليهم والاولياء المتوكلين لم يطلبوا رزقا فى الاكثر والاعم وتجردوا للعبادة وبالاجماع أنهم لم يكونوا تاركين لامر الله تعالى ولا عاصين له تعالى فى ذلك فتبين لك ان طلب الرزق وأسبابه ليس بأمر لازم للعبد (فان قلت) هل يزيد الرزق بالطلب وهل ينقص بترك الطلب (فكلا) فانه مكتوب فى اللوح المحفوظ مقدر وموقت ولا تبديل لحكم الله ولا تغيير لقسمته وكتابته هذا هو الصحيح عند علمائنا رضى الله عنهم خلاف ما ذهب اليه بعض أصحاب حاتم وشقيق قالوا ان الرزق لا يزيد ولا ينقص بفعل العبد لكن المال يزيد وينقص وهذا فاسد لان الدليل فى الموضعين واحد وهو الكتابة والقسمة والية الاشارة بقوله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ولو كان بالطلب يزيد وبالترك ينقص لكان للاسى والفرح موضع اذ هو قصر ونوانى حتى فاته وجد وشمر حتى حصله وقال صلى الله عليه وسلم للسائل هل لك مال قال لا قال فما تصنع بنعلك (فان قيل) فالثواب والعقاب أيضا مكتوب فى اللوح المحفوظ ثم يلزمنا طلب الثواب وترك موجب العقاب فهل يزيد بالطلب أو ينقص بالترك (فاعلم) ان طلب الثواب انما وجب لان الله أمر به أمر احتما وأوعد على تركه ولم يضمن الثواب على غير فعل منا وزيادة الثواب والعقاب بفعل العبد والفرق بينهما فى نكتة وهى ما قاله بعض علمائنا ان المكتوب فى اللوح قسمان قسم مكتوب مطلقا من غير شرط وتعليق بفعل العبد وهو الارزاق والآجال اما ترى كيف ذكرهما الله تعالى مطلقا غير مشروط قال الله تعالى وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها وقال تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون وقال صاحب الشرع عليه السلام أربعة قد فرغ منهن الخلق والخلق والرزق والاجل وقسم مكتوب بشرط معلق مشروط بفعل العبد وهو الثواب والعقاب اما ترى كيف ذكرهما الله تعالى فى كتابه معلقا بفعل العبد قال تعالى ولو ان أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم وهذا بين فاعلمه (فان قيل) فنحن نجد الطالبين يجدون الارزاق والاموال والتاركين يعدمون ويفتقرون (قيل له) كذلك لا نجد مع ذلك طالبا محروما فقيرا وتاركا كافرا غامر رزقا غنيا بل ان هذا هو الاكثر لتعلم ان ذلك هو تقدير العزيز العليم وتدبير الملك الحكيم وأنشد أبو بكر محمد بن سابق الواعظ السقلى بالشام رحمه الله

كم من قوى قوى فى تقلبه * مهذب الرأى عنه الرزق منحرف

(آداب الصيام)

لا ينبغى ان تقتصر على صوم رمضان فتترك التجارة بالنوافل وكسب الدرجات العالية فى الفراديس فتتحسر اذا نظرت الى الصائمين كما تنظر الى الكوكب الدرى وهم فى أعلى عليين والايام الفاضلة التى شهدت الاخبار بفضلها وبشرفها وبجزالة الثواب فى صيامها يوم عرفة لغير الحاج ويوم عاشوراء والعشر الاول من ذى الحجة والعشر الاول من المحرم ورجب وشعبان وصوم الاشهر الحرم من الفضائل وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب واحد فرد وثلاثة سرد وهذه فى السنة * واما فى الشهر فاول الشهر وأوسطه وآخره والايام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر * وأما فى الاسبوع فيوم الاثنين والخميس والجمعة فتكفر ذنوب الاسبوع بصوم الاثنين والخميس والجمعة وذنوب الشهر تكفر باليوم الاول من الشهر واليوم الاوسط واليوم الآخر والايام البيض وتكفر ذنوب السنة بصيام هذه الايام والاشهر

وكم ضعيف ضعيف فى تقلبه * كانه من خليج البحر يغترف

هذا دليل على ان الاله له * فى الخلق سر خفى ليس ينكشف

(فان قلت) هل ندخل البادية بلا زاد (فاعلم) انه ان كان لك قوة قلب بالله تعالى والثقة البالغة بوعد الله فادخل والا فكن كالعوام بعلائقهم (ولقد سمعت) الامام أبا المعالى رحمه الله يقول ان من جرى مع الله تعالى على عادة الناس جرى الله معه على ما هو عادة الناس فى كفاية المؤنة وهذا كلام حسن جدا وفيه فوائد جمة لمن تأملها (فان قلت) أليس الله تعالى يقول وتزودوا فان خير الزاد التقوى (فاعلم) ان فيه قولين أحدهما انه زاد الآخرة ولذلك قال خير الزاد التقوى ولم يقل طعام الدنيا وأسبابها والثانى انه كان قوم لا يأخذون زادا فى طريق الحج لانفسهم اتكالا على الناس ويسألون الناس ويشكون ويلحون ويؤذون الناس فأمروا بالزاد أمر تنبيه على أن أخذ الزاد من مال تخير من أخذ مال الناس والاتكال عليهم وكذلك نقول (فان قلت) فالمتوكل هل يحمل الزاد معه فى الاسفار (فاعلم) انه ربما يحمل الزاد ولا يعلق القلب به بانه لا محالة رزقه وفيه قوامه وانما يعلق القلب بالله تعالى ويتوكل عليه ويقول ان الرزق مقسوم متروع منه والله تعالى ان شاء أقام بنبى بهذا أو بغيره وربما يحمل بنية أخرى بان يعين مسلما أو نحو ذلك وليس الشأن فى أخذ الزاد وتركه وانما الشأن فى القلب لا تعلق قلبك الا بوعد الله تعالى وحسن كفايته وضمانه فكم من حامل للزاد وقلبه مع الله دون الزاد وكم من تارك للزاد وقلبه مع الزاد دون الله تعالى فالشأن اذن فى القلب فافهم هذه الاصول تكشف المؤنة ان شاء الله تعالى (فان قيل) فالنبى صلى الله عليه وسلم كان يحمل الزاد وكذلك الصحابة والسلف الصالح (يقال له) لا جرم ان ذلك مباح غير حرام وانما الحرام تعليق القلب بالزاد وترك التوكل على الله سبحانه فافهم ذلك ثم ما ظنك برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الله تعالى له وتوكل على الحى الذى لا يموت أعصاه فى ذلك وعلق قلبه بطعام أو شراب أو درهم أو دينار كلا وحاشى ان يكون ذلك بل كان قلبه مع الله تعالى وتوكله على الله تعالى كما أمره فانه الذى لم يلتفت الى الدنيا بأسرها ولم يمد يده الى مفاتيح خزائن الارض كلها وانما كان أخذ الزاد منه ومن السلف الصالح لاثبات الخبر لا لميل قلوبهم عن الله تعالى الى الزاد والمعتبر القصد على ما أعلمناك فافهم وانتبه من رقدتك وأفق من غفلتك وفهمك يرشدك الله (فان قلت) أيهما أفضل أخذ الزاد أم تركه (فاعلم) ان هذا يختلف باختلاف الحال ان كان مقتدى به يريد ان يبين ان أخذ الزاد مباح أو يتوى به عون مسلم أو اغاثة ملهوف ونحو ذلك فالاخذ أفضل وان كان منفردا قوى القلب بالله سبحانه يشغله الزاد عن عبادة الله سبحانه وتعالى فالترك أفضل فتفهم هذه الجملة واحتفظ بها راشدا وبالله التوفيق (العارض الثانى الاخطار وارادتها وقصودها) واعلم كفايتها فى التفويض فعليك بتفويض الامر كله الى الله سبحانه وذلك لامرين أحدهما اطمأنينة القلب فى الحال فان الامور اذا كانت خطيرة مبهمة لا يدرى صلاحها من فسادها تكون مضطربا بها القلب هائم النفس لا تدرى تقع فى صلاح أو فساد فاذا فوضت الامر كله الى الله تعالى علمت انك لا تقع الا فى صلاح وخير فتكون آمنا من المخطر والآفة والمخالفة مطمئن القلب فى الحال وهذه الطمأنينة والامن والراحة فى القلب غنية عظيمة (وكان شيخنا رحمه الله) يقول فى مجالسه كثيرا ادع التدبير الى من خلقك تستريح

المذكورة * ولا تظن اذا صمت أن الصوم هو ترك الطعام والشراب والوقاع فقط فقد قال صلى الله عليه وسلم كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش بل تمام الصيام بكف الجوارح كلها عما يكره الله تعالى بل ينبغى أن تحفظ العين عن النظر الى المكاره واللسان عن النطق بما لا ينبغى والاذن عن الاستماع الى ما حرم الله فان المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين وكذلك تكف جميع الجوارح كما تكف البطن والفرج ففى الخبر خمس يفطرن الصائم الكذب والغيبة والنميمة والنظر بشهوة واليمين الكاذبة وقال صلى الله عليه وسلم انما الصوم جنة فاذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يفسق ولا يجهل فان امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل انى صائم * ثم اجتهد أن تفطر على طعام حلال ولا تكثر فتزيد على ما تأكله كل ليلة لاجل صيامك فلا فرق اذا استوفيت ما تعتاد أن تأكله دفعة أو دفعتين وانما المقصود كسر شهوتك وتضعيف قوتك التى بها

وقد أنشد في ذلك

ان من كان ليس يدري أفي المحبوب نفع له أو المكروه
لحري بان يفوض ما يعجز عنه الى الذي يكفيه
الاله البر الذي هو بالرأ * فة أحنى من أمه وأبيه

والثاني من الامرين حصول الصلاح والخير في الاستقبال وذلك لان الامور بالعواقب مبهمة فكم من شر في صورة خير وكم من ضر في حلية نفع وكم من سم في هيئة شهد وأنت الجاهل بالعواقب والاسرار فاذا أردت الامور قطعا وأخذت فيها باختيارك محكما فأسرع ما تقع في هلاك وأنت لا تشعر (ولقد حكي) ان بعض العباد كان يسأل الله ان يريه أبليس فقيل له سل الله العافية فأبى الا ذلك فأظهره الله تعالى له فلما رآه العابد قصده بالضرب فقال له ابليس لولا انك تعبش مائة سنة لاهلكتك وعاقبتك فاعتبر به وقال في نفسه ان عمري بعد طويل فأفعل ما أريد ثم أتوب فوقع في الفسق وترك العبادة فهلك ففي هذه ما ينبهك على ترك الحكم في ارادتك والجاح في مطلوبك ويحذرك طول الامل أيضا فانه الآفة العظيمة ولقد صدق القائل

رأيتك المطامع والاماني * فكم أمنية جلبت منيه

(وأما) اذا فوضت أمرك الى الله سبحانه وسألته ان يختار لك ما هو صلاحك لم تلق الا الخير والسداد ولا تقع الا على الصلاح قال الله تعالى حكاية عن العبد الصالح وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب أما ترى كيف أعقب تفويضه الوقاية من الاسواء والنصر على الاعداء وبلوغ المراد فتأمل موفقا ان شاء الله تعالى (فان قلت) بين لنا معنى التفويض وحكمه (فاعلم) أن ههنا فصلين بهما يتضح الكلام أحدهما موضع التفويض وحكمه والثاني معناه وحده وضابطه أما موضعه فاعلم ان المرادات ثلاثة مراد تعلم يقينا انه فساد وشر لا شك فيه البتة كالنار والعذاب وفي الافعال كالكفر والبدعة والمعصية فلا سبيل الى ارادة ذلك والثاني مراد تعلم قطعا انه صلاح كالجنة والايمان والسنة ونحو ذلك فذلك ارادتم بالحكم لا موضع للتفويض فيه اذ لا خطر فيه ولا شك انه خير وصلاح والثالث مراد لا تعلم يقينا ان ذلك فيه صلاحا أو فسادا وذلك نحو الدواء والمباحات فهذا موضع التفويض فليس لك ان تريدها قطعا بل بالاستثناء وشرط الخير والصلاح فان قيدت ارادتك بالاستثناء فهو تفويض وان أردت دون الاستثناء فهو طمع مذموم منهي عنه فموضع التفويض اذن كل مراد فيه الخطر وعوان لا تستيقن صلاحك فيه وأما معنى التفويض فقد قال بعض شيوخنا رحمهم الله هو ترك اختيارك مع فيه مخاطرة الى المختار المدبر العالم بمصلحة الخلق لا اله الا هو وعبارة الشيخ أبي محمد الجويني رحمه الله هو ترك اختيارك المخاطرة على المختار لاختيارك ما هو خير لك وقال الشيخ أبو عمر رحمه الله هو ترك الطمع والطمع هو ارادة الشيء المخاطر بالحكم فهذه عبارات المشايخ (والذي نقول لك) ان التفويض ارادة ان يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن فيه الخطر وضد التفويض الطمع والطمع في الجملة يجري على وجهين أحدهما في معنى الرجاء تريد شيأ لا خطر فيه أو مخاطرة بالاستثناء وذلك محمود وخير مذموم كما قال الله تعالى والذي أطمع ان يغفر لي

على التقوى فاذا أكلت عيش ما فاتك فقد تداركت به ما فاتك فلا فائدة في صومك وقد ثقلت عليك معدتك وما من وعاء أبغض الى الله من بطن ملئ من حلال فكيف اذا كان من حرام فاذا عرفت معنى الصوم فاستكثر منه ما استطعت فانه أساس العبادات ومفتاح القربات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى كل حسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الا الصوم فانه لي وأنا أجزي به وقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك يقول الله عز وجل انما يذر شهوته وطعامه وشرابه من أجلي فالصوم لي وأنا أجزي به وقال صلى الله عليه وسلم للجنة باب يقال له الريان لا يدخل الا الصائمون فهذا القدر يكفيك من شرح الطاعات من بداية الهداية فاذا احتجت الى الزكاة والى الحج أو الى مزيد شرح الصلاة والصيام فاطلبه مما أوردناه في كتاب احياء علوم الدين

(القسم الثاني القول في اجتناب المعاصي)

اعلم أن الدين شطران أحدهما

خطيئتي يوم الدين وقال انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا وهذا القسم ليس مما نحن فيه بسبيل ههنا والثاني طمع مذموم قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والطمع فانه فقر حاضر (وقيل) هلاك الدين وفساده الطمع وملاكه الورع (قال) شيخنا رحمه الله الطمع المذموم شيآن سكون القلب الى منفعة مشكوكة والثاني ارادة الشيء الخاطر بالحكم وهذه الارادة تقابل التفويض لا غير (فاعلم) ذلك وأما حسن التفويض فهو ذكر خطر الامور وامكان الهلاك والفساد فيها وحسن حمله ذكر عجزك عن الاعتصام عن ضروب الخطر والامتناع عن الوقوع فيها بجهلك وغفلتك وضعفك والمواظبة على هذين الذكرين تحملك على تفويض الامور كلها الى الله سبحانه والتحفظ من الحكم فيها والامتناع عن ارادتها الا بشرط الظهور والصلاح فهذه هذه وبالله التوفيق (فان قيل لك) ما هذا الخطر الذي توجبون التفويض لاجله في الامور (فاعلم) ان الخطر في الجملة خطران خطر الشك بانه يكون أو لا يكون وأنك تصل اليه أو لا تصل اليه وهذا يحتاج الى الاستثناء ويقع في باب النية والامل والثاني خطر الفساد بان لا تستيقن فيه الصلاح لنفسك وهذا الذي يحتاج فيه الى التفويض (ثم) اختلفت عبارات الائمة في الخطر فمن بعضهم ان الخطر في الفعل هو أن تكون دونه نجاة ويمكن ان يجامعه ذنب فالايمان والاستقامة والسنة لا خطر فيها اذ لا يمكن دون الايمان نجاة البتة والاستقامة لا يجامعها ذنب فاذن تصح ارادة الايمان والاستقامة بالحكم (وقال) الاستاذ رحمه الله الخطر في الفعل ما يمكن أن يعترض فيه ما يكون الاشتغال بالعارض أولى من الاقدام على ذلك الفعل وذلك يقع في المباحات والسنن والفرائض الا ترى ان من تضيق عليه وقت الصلاة وقصد أداءها فعرض له حريق أو غريم يمكنه انقاذه فالاشتغال بانقاذه أولى من الاقبال على صلاته فلا تصح اذن ارادة المباحات والنوافل والكثير من الفرائض بالحكم (فان قيل) كيف يصح ان يفترض الله على عبده شيأ ويوعده على تركه ثم لا يكون له صلاح في فعله (فاعلم) ان شيخنا رحمه الله قال ان الله تعالى لا يأمر العبد بشيء الا وفيه صلاحه اذا تجرد عن العوارض ولا يضيق عليه فعلا فرضا بحيث لا معدل له عن ذلك الا وله فيه صلاح وانما يعلم بسبب الله تعالى له عذرا لاجله يكون العدول عن أحد المأمورين أولى من الاشتغال بالآخر كما ذكرنا فيكون العبد في ذلك معذورا بل مأجورا لا يترك هذا الفرض بل يفعل الفرض الثاني الذي هو أولى (ولقد سمعت) الامام رحمه الله في هذه المسئلة يقول ان كل ما افترض الله على عباده من الصلاة والصوم والحج ونحوه ففيها صلاح لا محالة للعبد وصحت ارادتها بالحكم قال فاتفق رأيانا على ذلك فبقي المباحات والنوافل اذن في هذا الحكم فاعلم ذلك فانه من غوامض الباب وبالله التوفيق (فان قيل) هل يأمن المفوض الهلاك والفساد والدار دار محنة (فاعلم) ان في الاغلب لا ينفعل بالمفوض الا الصلاح وقد ينفعل به في النادر غير الصلاح ولذلك ربما يخذله فيقع عن منزلة التفويض ولا صلاح للعبد في الخذلان والوقوع عن منزلة التفويض وبه قال الشيخ أبو عمرو رحمه الله (وقيل) لا يفعل بالمفوض الا ما فيه صلاحه فيما فوض الى الله سبحانه والخذلان والقصور عن منزلة التفويض مما يقع فيه التفويض اذ لا شك في فساد ذلك والتفويض انما يقع فيما يشك في فساده وصلاحه وهذا أولى القولين عند شيخنا رحمه الله اذ

لك المناهي والآخر فعل الطاعات وترك المناهي هو الاشق فان الطاعات يقدر عليها كل أحد وترك الشهوات لا يقدر عليها الا الصديقون ولذلك قال صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه واعلم أنك انما تعصي الله بجوارحك وانما هي نعمة من الله عليك وأمانة لديك فاستعانتك بنعمة الله على معصيته غاية الكفران وخيانتك في أمانته ودعكها الله غاية الطغيان فاعرض ذلك وعاوده فانظر كيف ترعاها فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته * واعلم أن جميع أعضائك ستشهد عليك في عرصات القيامة بلسان ملق ذلق أي فصيح تفضحك به على رؤس الخلائق قال الله تعالى يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقال تعالى اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون فاحفظ جميع ذلك وخصوصا أعضاءك السبعة فان جهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم

(ولاذلك لما قويت الباعثة على التفويض (فان قيل) هل يجب ان يفعل بالمفوض ماهو الافضل (فاعلم) ان الايجاب مستحيل فى حق الله تعالى فلا يجب لعباده عليه شئ وقد يفعل بالعبد الاصلح دون الافضل حكمة من فعله الا ترى انه قدر للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ان ناموا طول الليل الى طلوع الشمس فى بعض الاسفار حتى فاتتهم صلاة الليل وصلاة الفجر والصلاة أفضل من النوم وربما يقدر للعبد الغنى والنعمة فى الدنيا وان كان الفقر أفضل وربما يقدر له الاشتغال بالازواج والاولاد وان كان التجرد لعبادة الله عز وجل أفضل فانه بعباده خبير بصير وهذا كما ان الطبيب الحاذق الناصح يختار للمريض ماء الشعير وان كان ماء السكر أفضل وأنفس لما علم ان صلاح علته فى ماء الشعير والمقصود للعبد النجاة من الهلاك لا الفضل والشرف مع الفساد والهلاك (فان قيل) فهل يكون المفوض مختارا (فاعلم) ان الصحيح عند علمائنا انه يكون مختارا ولا يقدح فى تفويضه وذلك ان المعنى فيه اذا كان له صلاح فى المفضول والافضل فهو يريد من الله تعالى ان يسبب له الافضل كما ان المريض يقول للطبيب اجعل دوائى ماء السكر دون ماء الشعير اذا كان لى صلاح فى كليهما اجعل لى الفضل والصلاح جميعا فكذلك العبد اذا سأل الله تعالى ان يجعل له صلاحه فيما هو الافضل ويسبب له ذلك ليجمع له الفضل والصلاح جميعا ولكن بشرط انه ان اختار الله له الصلاح فى غير الافضل ان يكون راضيا بذلك (فان قيل) فلماذا كان للعبد ان يختار الافضل وليس له ان يختار الاصلح (فاعلم) ان الفرق بينهما ان العبد يعرف الافضل من المفضول ولا يعرف الصلاح من الفساد لمريده بالحكم ثم ان معنى اختياره الافضل ان يريد من الله تعالى ان يجعل صلاحه فيما هو الافضل ويختار له ذلك ويقدره لا أن للعبد تحكما فى شئ من ذلك فاعلمه (فهذه) جملة من دقيق هذا العلم وأسراره ولولا ان الحاجة مست اليه لما تعرضنا لايراده لانه تلاطم بحار علوم المكاشفة مع انى اقتصرت على النكتة المقنعة فى هذا الكتاب وقصدت الايضاح لينتفع به فحول العلماء والمبتدون ان شاء الله تعالى وبالله التوفيق (العارض الثالث القضاء ورود أنواعه) وانما كفايته فى الرضا به فعليك ان ترضى بقضاء الله عز وجل وذلك لامرين (أحدهما) للتفرغ للعبادة لانك اذا لم ترض بالقضاء فتكون مهموما مشغول القلب أبدا بانه لم كان كذا ولم لا يكون كذا فاذا اشتغل القلب بشئ من هذه الهموم كيف يتفرغ للعبادة اذ ليس لك الا قلب واحد وقد ملأته من الهموم وما كان وما يكون من أمر الدنيا فأى موضع بقى فيه لذكر الله ولعبادته وفكر الآخرة (ولقد صدق) شقيق رحمه الله حيث قال ان حسرة الامور الماضية وتدبير الآتية قد ذهبت ببركة ساعتك هذه (والثانى) من الامرين خطر مالى السخط من غضب الله تعالى ولقد روينا فى الاخبار ان نبيا من الانبياء شكا بعض ما نالهم من المكروه الى الله تعالى فأوحى الله تعالى اليه أتشكونى ولست بأهل ذم ولا شكوى هكذا ابدا شأنك فى علم الغيب فلم تسخط قضائى عليك أتريد ان أغير لدنياك لاجلك أم أبدل اللوح المحفوظ بسببك فأقضى ما تريد دون ما أريد ويكون ما تحب دون ما أحب فبعزتى حلفت لان تطيع هذا فى صدرك مرة أخرى لاسلبنك ثوب النبوة ولاوردنك النار ولا أبالى (قلت) فليستمع العاقل هذه السياسة العظيمة والوعيد الهائل مع أنبيائه وأصفيائه فكيف مع غيرهم ثم استمع قوله عز وجل لان تطيع هذا فى صدرك مرة أخرى فهذا فى حديث النفس وترتد القلب فكيف

جوم مقسوم ولا يتعين لتلك الابواب الا من عصى الله بهذه الاعضاء السبعة وهى العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل (أما العين) فانما خلقت لك لتهتدى بها فى الظلمات وتستعين بها فى الحاجات وتعتبر بها الى عجائب ملكوت الارض والسموات وتعتبر بما فيها من الآيات فاحفظها عن ثلاث أو أربع أن تنظر بها الى غير محرم أو الى صورة مليحة بشهوة نفس أو تنظر بها الى مسلم بعين الاحتقار أو تطلع بها على عيب مسلم (وأما الاذن) فاحفظها عن أن تصغى بها الى البدعة أو الغيبة أو الفحش أو الخوض فى الباطل أو ذكر مساوى الناس فانما خلقت لك لتسمع بها كلام الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمة أوليائه وتتوصل باستفادة العلم بها الى الملك المقيم والنعيم الدائم فاذا أصغيت بها الى شئ من المكاره صار ما كان لك عليك وانقلب ما كان سبب فوزك سبب هلاكك فهذه غاية الخسران ولا تظن ان الاثم مختص به القائل دون المستمع

بمن يصرخ ويستغيث ويشكو وينادي بالويل والصراخ من ربه الكريم المحسن على رؤس الملا
ويتخذله أعوانا وأصحابا وهذا لمن سخط مرة فكيف بمن هو في السخط على الله تعالى جميع عمره
وهذا لمن شكا اليه فكيف بمن شكا الى غيره نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا
ونسأله ان يعفو عنا ويغفر لنا سوء آدابنا ويصلحنا بحسن نظره انه أرحم الراحمين (فان قيل) فما
معنى الرضا بالقضاء وحقيقة ذلك وحكمه (فاعلم) ان علماءنا قالوا ان الرضا ترك السخط والسخط
ذكر غير ما قضى الله تعالى بانه أولى به وأصلح له فيما لا يشق فساده وصلاحه فهذا شرط فيه
فاعلم ذلك (فان قلت) أليس الشر وروا المعاصي بقضاء الله تعالى وقدره فكيف يرضى العبد بالشر
ويلزمه ذلك (فاعلم) ان الرضا انما يلزم بالقضاء وقضاء الشر ليس بشر وانما الشر هو المقضى فلا
يكون رضا بالشر (وقد قال) شيوخنا رحمهم الله تعالى ان المقضيات أربعة نعمة وشدة وخير وشر
(فالنعمة) يجب الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضي ويجب عليه الشكر من حيث انها نعمة
واظهار النعمة عليه بادراء أثر النعمة (والشدة) يجب أيضا الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضي
ويجب عليه الصبر من حيث انها شدة (والخير) يجب فيه الرضا بالقاضي والقضاء والمقضي ويجب
عليه ذكر المنة من حيث انه خير وفق له (والشر) يجب عليه فيه الرضا بالقاضي والقضاء
والمقضي من حيث انه مقضي لا من حيث انه شر وكونه مقضيا يرجع الى القضاء والقاضي
بالحقيقة وهذا كما أنك ترضى مذهب المخالف أن يكون معلوما لك لا أن يكون مذهبا لك ثم كونه
معلوما يرجع الى العلم فالرضا والمحبة انما يكونان بالحقيقة للعلم بمذهب المخالف لا بمذهبه فكذلك
الرضا بالمقضي فان قيل فالراضي هل يكون مستزيدا قيل له نعم بشرط الخير والصلاح دون الحكم
فلا يخرجه ذلك عن الرضا بل يدل على الرضا فهو أولى لان من أعجبه شيء ورضي ذلك استزاده منه
(وكان النبي) صلى الله عليه وسلم اذا حضر اللبن يقول اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه وفي غيره يقول
وزدنا خيرا منه وفي موضع من الموضعين لم يدل على انه غير راض بما قدر الله تعالى له من ذلك
(فان قلت) فلم يذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم الاستثناء وشرط الخير والصلاح (فاعلم) ان هذه
الامور انما تكون بالقلب وأن ما يقال باللسان عبارة عن ذلك فلا معتبر بترك عبارته مع حصوله
بالقلب فاعلم ذلك موفقا (العارض الرابع الشدائد والمصائب) وانما كفايتها بالصبر (فعليك)
بالصبر في المواطن كلها وانما ذلك لامرين أحدهما الوصول الى العبادة وحصول المقصود منها
فان مبنى أمر العبادة كلها على الصبر واحتمال المشقات فمن لم يكن صبورا لم يصل الى شيء منها
بالحقيقة وذلك ان من قصد عبادة الله تعالى وتجرد لها محققا استقبلته شدائد ومحن ومصائب من
وجوه (أحدها) انه لا عبادة الا وفي نفسها مشقة ولذلك كان كل هذا الترغيب فيه ووعد الثواب
عليه اذ لا يأتي فعل العبادة الا بقمع الهوى وقهر النفس اذ هي زابوة عن الخير ومخالفة
الهوى وقهر النفس من أشد الامور على الانسان (وثانيها) ان العبد اذا فعل الخير مع المشقة
لزمه الاحتياط له حتى لا يفسد عليه والاتقاء على العمل أشد من العمل (وثالثها) ان الدار دار
محنة فمن كان فيها فلا بد له من الابتلاء بشدائدها ومصائبها وذلك أقسام فمنها المصيبة في الاهل
والقرابات والاخوان والاصحاب بالموت والفقد والفراق وفي النفس بأنواع الامراض والاوجاع
وفي العرض بقتال الناس اياه والطمع فيه والازدراء به والغيبة والكذب عليه وفي المال

في الخبران المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين (وأما اللسان) فانما خلق لك لتكثر به ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه وترشد به خلق الله تعالى الى طريقه وتظهر به ما في ضميرك من حاجات دينك ودنياك فاذا استعملته في غير ما خلق له فقد كفرت نعمة الله تعالى فيه وهو أغلب أعضائك عليك وعلى سائر الخلق ولا يكب الناس في النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم فاستظهر عليه بغاية قوتك حتى لا يكبك في قعر جهنم ففي الخبران الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها أصحابه فيهوي بها في قعر جهنم سبعين خريفا وقتل شهيد في المعركة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قائل هنيأ له الجنة فقال صلى الله عليه وسلم ما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه فاحفظ لسانك من ثمانية (الاول) الكذب فاحفظ منه لسانك في الجد والهزل ولا تعود نفسك الكذب هزلا فيدعوك الى الكذب في الجد والكذب من أمهات الكبائر ثم انك اذا عرفت ذلك سقطت عدالتك واتقى

بالذهاب والزوال ولكل واحد من هذه المصائب لذعة وحرقة من نوع غير نوع الآخر فيحتاج الى الصبر عليها كلها والافيمنعه الجزع والتلهف من التفرغ للعبادة (ورابعها) ان طالب الآخرة أشد ابتلاء وأكثر محنة أبدا ومن كان الى الله أقرب فالمصائب له فى الدنيا أكثر والبلاء عليه أشد أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم أشد الناس بلاء الانبياء ثم العلماء ثم الامثل فالامثل فاذن من قصد الخير وتجرد لطريق الآخرة استقبلته هذه المحن فان لم يصبر عليها ولا يكون بحيث لا يلتفت اليها انقطع عن الطريق واشتغل عن العبادة فلا يصل الى شئ من ذلك (ولقد) أعلمنا الله سبحانه وتعالى بانتقاء المحن والمصائب وابتلائنا بها وحقق ذلك وأكده فقال تعالى لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا اذى كثيرا ثم قال وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور فكأنه يقول وطنوا أنفسكم على انه لا بد لكم من أنواع البلايا فان تصبروا فأنتم الرجال وعزائمكم عزائم الرجال فاذن من عزم على عبادة الله سبحانه يجب أولا ان يعزم على الصبر الطويل ويوطن نفسه على احتمال المشاق العظيمة المتوالية الى الموت والا فقد قصد الامر بغير آلته وأتاه من غير وجهه (ولقد ذكر) عن الفضيل رحمه الله انه قال من عزم على قطع طريق الآخرة فليجعل فى نفسه أربعة ألوان من الموت الابيض والاحمر والاسود والاخضر فالموت الابيض الجوع والاسود ذم الناس والاحمر مخالفة الشيطان والاخضر الوقائع بعضها على بعض (والثانى) من الامرين ما فى الصبر من خير الدنيا والآخرة فمن ذلك النجاة والنجاح قال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب معناه من يتق الله تعالى بالصبر يجعل له مخرجا من الشدائد (ومنها) الظفر بالاعداء قال الله تعالى فاصبروا ان العاقبة للمتقين (ومنها) الظفر بالمراد قال الله تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا (وقيل) كتب يوسف فى جواب يعقوب عليهما السلام ان آباءك صبروا فظفروا فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا وفى هذا المعنى قيل

لا تيأسن وان طالت مطالبة * اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته * ومدمن القرع للابواب ان يلجا

(ومنها) التقدم على الناس والامامة قال تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا (ومنها) الثناء من الله سبحانه وتعالى قال سبحانه انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب (ومنها) البشارة والصلاة والرحمة قال الله تعالى وبشر الصابرين الى قوله تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة الآية (ومنها) المحبة من الله تعالى قال الله تعالى والله يحب الصابرين (ومنها) الدرجات العلا فى الجنة قال الله تعالى أولئك يجزون الغرفة بما صبروا (ومنها) الكرامة العظيمة قال تعالى سلام عليكم بما صبرتم (ومنها) ثواب بلا غاية ولا نهاية خارجا عن اوهام الخلق واعدادهم وتحصيلهم قال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (فسبحانه) من اله سيدما جد ما أكرمه وكل هذه الكرامات فى الدنيا والآخرة يعطيها عبده على صبر ساعة فبان لك ان خير الدنيا والآخرة فى الصبر قال صلى الله عليه وسلم ما أعطى أحد من عطاء خيرا وأوسع من الصبر وعن عمر رضى الله عنه انه قال جميع خير المؤمنين فى صبر ساعة واحدة ولقد أحسن القائل

الصبر مفتاح ما يرجى * وكل خير به يكون

قولك وتزدريك الاعين وتحتقرك واذا أردت أن تعرف قبح الكذب من نفسك فانظر الى كذب غيرك والى نفرة نفسك عنه واستحقارك لصاحبه واستقباحك لما جاء به وكذلك فافعل فى جميع عيوب نفسك فانك لا تدرى قبيح عيوبك من نفسك بل من غيرك فما استقبحته من غيرك يستقبحه غيرك منك لا محالة فلا ترض لنفسك ذلك (الثالث) الخلف فى الوعد فاياك أن تعد بشئ ولا تفى به بل ينبغى أن يكون احسانك الى الناس فعلا بلا قول فان اضطررت الى الوعد فاياك أن تخلف الا لعجز او ضرورة فان ذلك من أمارات النفاق وخبائث الاخلاق قال عليه السلام ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان (الثالث) حفظ اللسان من الغيبة والغيبة أشد من ثلاثين زنية فى الاسلام كذلك ورد فى الخبر ومعنى الغيبة ان تذكر انسانا بما يكرهه لو سمعه فأنت مغتاب ظالم وان كنت صادقا واياك وغيبة القراء

فاصبروان طالت الليالى * فربما أمكن المحذور
وربما نيل باضطبار * ماقيل هيهات لايكون

(ولقائل آخر)

صبرت وكان الصبر منى سجية * وحسبك أن الله أثنى على الصبر
سأصبر حتى يحكم الله بيننا * فاما الى يسر واما الى عسر

(فعليك) باغتنام هذه الخصلة الشريفة المحمودة وبذل المجهود فيها لتكن من الفائزين والله تعالى ولى التوفيق (فان قلت) فما حقيقة الصبر وحكمه (فاعلم) ان لفظة الصبر من طريق اللغة الحبس قال الله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم الآية أى احبس نفسك معهم واغا يوصف الله تعالى بالصبر على معنى حبسه العذاب عن المجرمين فلا يعاجلهم به ثم المعنى الذى هو من مساعى القلب سمى صبرا لانه حبس النفس عن الجزع والجزع فيما قاله العلماء ذكر اضطراب فى الشدة وقيل بل ارادة الخروج عن الشدة بالحكم والصبر تركه وحسن الصبر ذكر مقدار الشدة ووقتها وانها لاتزيد ولاتنقص ولاتتقدم ولاتتأخر ولافائدة فى الجزع بل فيه الضرر والخطر وحسن هذا الحسن ذكر حسن عوض الله تعالى عليه وكريم الذخر فى ذلك لديه فهذه هذه وبالله التوفيق

(فصل)

(فعليك) بقطع هذه العقبة الشديدة المنيعة بدفع هذه العوارض الاربعة وازاحة علتها والافلا تدعك تذكر مقصودك من العبادة وتتفكر فيها فضلا عن ان تدركها فتحصلها وان لكل واحد منها شغلا شاغلا عاجلا وآجلا (ثم) ان أعظمها وأعضلها أمر الرزق وتدبيره فانه البلية الكبرى العامة الخلق أتعبت نفوسهم وشغلت قلوبهم وأكثرت همومهم وضيعت أعمارهم وأعظمت تعلاتهم وأوزارهم وعدلت بهم عن باب الله تعالى وخدمته الى خدمة الدنيا وخدمة المخلوقين فعاشوا فى الدنيا فى غفلة وظلمة وتعب ونصب ومهانة وذل وقدموا الى الآخرة فالبس بين أيديهم الحساب والعذاب ان لم يرحم الله تعالى بفضله وانظركم آية أنزل الله تعالى فى ذلك وكم ذكر من وعده وضمانه وقسمه على ذلك ولم تزل الانبياء والعلماء يعظون الناس ويبينون لهم الطريق ويصنفون لهم الكتب ويضربون لهم الامثال ويحذرونهم بالله تعالى وهم مع ذلك لايهتدون ولايتقون ولايطمئنون بل هم فى غمرة من ذلك لايزالون يخافون أن يفوتهم غدا أو عشاء وأصل ذلك كله قلة التدبر لآيات الله سبحانه وقلة التفكر فى صنائع الله وترك التذكر لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك التأمل لاقوال الصالحين مع الاسترسال لوساوس الشيطان والاصغاء الى كلام الجاهلين والاغترار بعادات الغافلين حتى تمكن الشيطان منهم ورسخت العادات فى قلوبهم فتأدى بهم ذلك الى ضعف القلب ورقة اليقين (واما الاخيار) الذين هم أولو الابصار وأرباب الجد والاجتهاد فابصروا طريق السعادة فلم يعبؤا بأسباب الارض واعتصموا بحبل الله فلم يكترثوا بعلائق الخلق وتيقنوا بآيات الله تعالى فابصروا طريقه فلم يلتفتوا الى وساوس الشيطان والخلق والنفس فاذا وسوس لهم شيطان أو نفس أو انسان بشئ قاموا معه بالمناقشة والمدافعة والمخالفة هتى ولى الخلق عنهم واعتزل عنهم الشيطان وانقادت لهم النفس واستقام

لهم

المراثين وهو أن تفهم المقصود من غير تصريح فتقول أصلحه الله فقد أساء الى وغمنى ما جرى عليه فتسأل الله أن يصلحنا واياه فان هذا جمع بين خيرين أحدهما الغيبة اذ بها حصل التفهم والآخر تزكية النفس والثناء عليها بالتحرج والصلاح ولكن ان كان مقصودك من قولك أصلحه الله الدعاء فادع له فى السر وان اغتممت بسببه فعلامته انك لاتريد فضيحته واظهار غيبته وفى اظهارك الغم بسببه اظهار الغيبة ويكفيك زاجرا عن الغيبة قوله تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه فقد شبهك الله باكل لحم الميتة فما أجد لك أن تحتقر نفسها وينهاك عن غيبة المسلمين أمر لو تفكرت فيه وهو أن تنظر فى نفسك هل فيك عيب ظاهر أو باطن وهل أنت مقارف معصية سرا أو جهرا فاذا عرفت ذلك من نفسك فاعلم أن عجزه عن التنزه عما نسبته اليه كعجزك وعذره كعذرك وكما تكره أن تفتضح وتذكر عيوبك فهو أيضا يكره فان

لهم الطريق المستقيم على مذهب وعن ابراهيم بن أدهم رحمه الله انه لما أراد ان يدخل البادية أتاه الشيطان فخوفه بأن هذه بادية مهلكة ولا زاد معك ولا سبب فعزم على نفسه رحمه الله ان يقطع البادية على تجرده ذلك وان لا يقطعها حتى يصلي تحت كل ميل من أميالها ألف ركعة وقام بما عزم عليه وبقي في البادية اثنتي عشرة سنة حتى ان الرشيد حج في بعض تلك السنين فرآه تحت ميل يصلي فقيل له هذا ابراهيم بن أدهم يصلي فأتاه فقال له كيف تجدك يا أبا اسحق فأنشأ ابراهيم يقول

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فطوبى لعبد آثر الله ربه * وجاد بدنياه لما يتوقع

وعن بعض الصالحين رحمه الله انه كان في بعض البوادي فوسوس له الشيطان بأنك متجرد وهذه بادية مهلكة لا عمران فيها ولا ناس فعزم على نفسه بأن يمضي صلى تجرده وان يترك الطريق حتى لا يأخذ من الناس ولا يأكل شيأ حتى يجعل في فمه السمن والعسل ثم عدل عن الشارع ومر على وجهه سائحا قال رحمه الله فسرت ما شاء الله فاذا بقافلة قد أضلت الطريق وهم يسيرون فلما أبصرتهم رميت بنفسي الى الارض لعلهم لا يبصرونني فسيرهم الله عز وجل حتى وقفوا علي فغمضت عيني فدنوا مني وقالوا هذا منقطع عشي عليه من الجوع والعطش فهاتوا سمنا وعسلا نجعله في فمه لعله يفيق فاتوا بسمن وعسل فسددت في وأسناني فاتوا بسكين يعالجون في حتى يفتحوه فضحكت ففتحت فاي فلما رأوا ذلك مني قالوا مجنون أنت قلت لا والحمد لله تعالى وأخبرتهم ببعض ما جرى لي مع الشيطان فتعجبوا من ذلك (وعن بعض مشايخنا) رحمهم الله قال نزلت في بعض أسفاري في أيام التعليم مسجدا بعيدا عن الناس وكنت متجردا على عادة أولئك فوسوس لي الشيطان بان هذا مسجد بعيد عن الناس لو سرت الى مسجد بين الناس لرآك أهله وقاموا بكفايتك فقلت لا أبيت الا هنا وعلى عهد الله ان لا آكل شيأ الا ما لوا ولا آكل حتى يوضع في فمي لقمة فتحة فصلت العتمة وأغلقت الباب فلما مضى صدر من الليل اذا أنا بانسان يدق الباب ومعه سراج فلما أكثر الدق فتحت الباب فاذا أنا بعجوز معها شاب وقد دخلت فوضعت بين يدي طبقا من الخبيص وقالت هذا الشاب ولدي صنعت له هذا الخبيص وجرى بيننا كلام فحلف ان لا يأكل حتى يأكل معه رجل غريب أو قالت هذا الغريب الذي في المسجد فكل رحمك الله فأخذت تضع في فمي لقمة وفي فم ولدها لقمة حتى اكتفينا ثم انصرفا واغلقت الباب على متعجبا مما جرى فهذه وامثالها من مجاهدات الصالحين ومناقضتهم للشيطان فان لك في ذلك فوائد ثلاثة احداها ان تعلم ان الرزق لا يفوت من قدر له بحال والثانية ان تعلم ان أمر الرزق والتوكل لهم جدا وان للشيطان فيه غوائل ووساوس عظيمة حتى ان مثل أولئك الائمة الزهاد لم يتخلصوا من ذلك ولم يئس منهم الشيطان بعد طول تلك الرياضات وكثرة المجاهدات التي سبقت لهم حتى يحتاجوا الى دفعه بهذه المناقضات واعلم ان من جاهد النفس والشيطان سبعين سنة لا يأمن ان يوسوسا له كما يوسوسان للمبتدي في العبادة بل لغافل لم يجتهد ساعة في الرياضة ولو ظفر به لغضاه وأهلكه هلاك الغافلين المغترين وفي ذلك عبرة لأولي الابصار والثالثة أن تعلم ان الامر لا يتم الا بالجد المحض والمجاهدة البالغة فانهم كانوا لحسادة ما وبدنا ورياضة بل كانوا انحف ابدانا وأضعف أركانا واوفر عظاما منك ولكن كانت لهم قوة العلم ونور اليقين وهمة أعلى

ستره ستر الله عليك وان فضحته سلط الله عليك ألسنة حداد يمزقون عرضك في الدنيا ثم يفضحك الله في الآخرة على رؤس الخلائق يوم القيامة وان نظرت الى ظاهرك وباطنك فلم تطلع فيهما على عيب ونقص في دين ولا دنيا فاعلم أن جهلك بعيوب نفسك أقبح أنواع الحماقة ولا عيب أعظم من الحمق ولو أراد الله بك خيرا لبصرك بعيوب نفسك فرؤيتك نفسك بعين الرضا غاية غباوتك وجهلك ثم ان كنت صادقا في ظنك فاشكر الله تعالى عليه ولا تفسده بسبب الناس والتمحض في اعراضهم فان ذلك من أعظم العيوب (الرابع) المراء والجدال ومناقشة الناس في الكلام فذلك فيه ايذاء للمخاطب وتجهيل له وطعن فيه وفيه ثناء على النفس وتزكية لها بتزيد الفطنة والعلم ثم هو مشوش للعيش فانك لا تماري سفيها الا ويؤذيك ولا تماري حليما الا ويقليك ويحقد عليك وقد قال صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتا في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى

الله بيتا في أعلى الجنة ولا ينبغي أن يخدعك الشيطان ويقول لك أظهر الحق ولا تداهن فيه فان الشيطان أبدا يستجر الحق الى الشر في معرض الخير فلا تكن ضحكة للشيطان يسخر بك فاظهار الحق حسن مع من يقبله منك وذلك بطريق النصيحة في الخفية لا بطريق المماراة والنصيحة صعبة وهيئة ويحتاج فيها الى تلطف والا صارت فضيحة وصار فسادها أكثر من صلاحها * ومن خالط من فقهة العصر غلب على طبعه المراء والجدال وعمر عليه الصمت اذ ألقى اليوم علماء السوء أن ذلك هو الفضل والقدرة على المحاجة والمناقشة هو الذي يتدح به فقر منهم فرارك من الاسد واعلم ان المراءب المقت عند الله وعند الخلق (الخامس) تزكية النفس قال الله تعالى فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى وقيل لبعض الحكماء ما الصدق القبيح فقال ثناء المرء على نفسه فاياك أن تتعود ذلك واعلم أن ذلك ينقص من قدرك عند الناس ويوجب مقتك عند الله فاذا أردت ان تعرف

الدين حق قيامه على مثل تلك المجاهدات والقيام بحق تلك المقامات فانظر لنفسك رحمنا الله واياك ودواها من هذا الداء المعضل لعلك تفلح ان شاء الله تعالى

(فصل)

ثم اعلم بعد هذه الجملة أني مجرد ذلك فكأنك وجدتها بحيث تمكث في القلب اذا تذكرتها وتكفيك مؤنة هذا الباب وتدعك على واضحة من الحق ان تأملتها وعملت بها والله سبحانه الموفق الاولى أن تعلم ان الله تعالى ضمن الرزق لعباده في كتابه فقد ضمن رزقك وتكفل لك به فما تقول لو وعدك ملك من ملوك الدنيا انه يضمن لك الليلة ويعطيك وأنت حسن الظن به أنه صادق ولا يكذب ولا يخلف الوعد بل لو وعدك بذلك سوقي أو يهودي أو نصراني أو مجوسي مستور عندك بظاهره عفيف في مقالته ألست تثق به وبوعده وتطمئن بقوله ولا تهتم لعشائك تلك الليلة اتكالا عليه فمالك وقد وعدك الله تعالى وضمن لك رزقك وتكفل به بل أقسم عليه في غير موضع وأنت لا تطمئن بوعده ولا تسكن الى قوله وضمانه ولا تنظر الى قسمه بل يضطرب قلبك وهمك فيما لها من فضيحة لو رأيت وبالها ومن مصيبة لو علمت حالها وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال

أتطلب رزق الله من عند غيره * وتصبح من خوف العواقب آمنا
ورزقي بصراف وان كان معسرا * ضمينا ولا ترضى بربك ضامنا
حتى انك لم تقرأ بما في كتابه * فأصبحت منحول اليقين مباينا

ولهذا المعنى يجر هذا الامر الى الشك والشبهة ويخاف على صاحبه والعياذ بالله سلب المعرفة والدين ولهذا المعنى قال سبحانه وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين وعلى الله فليتوكل المؤمنون فحسب المؤمن المهتم لامر دينه هذه النكتة الواحدة ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والثانية أن تعلم ان الرزق مقسوم صح ذلك في كتاب الله تعالى وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلم أن قسمته لا تتبدل ولا تتغير فان أنكرت القسمة أو جوزت نقضها فذلك باب الكفر تقرعه نعوذ بالله وان علمت أنه حق لا يتغير فأي فائدة في الاهتمام والطلب الا الذل والهوان في الدنيا والشدة والخسران في الآخرة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم مكتوب على ظهر الحوت والثور رزق فلان بن فلان فلا يزداد المريض الا جهدا وفي ذلك يقول شيخنا رحمه الله ان ما قدر لك صعب أن يضعاه فلا يضعه غيرك فكل رزقك ويحك بالعز ولا تأكله بالذل وهذه نكتة مقنعة للرجال والثالثة ما سمعت من شيخي الامام رحمه الله يحكي عن الاستاذ رحمه الله انه كان يقول ان مما يقنعني في أمر الرزق اني تذكرت وقلت في نفسي أليس هذا الرزق للحياة والعيش والميت ما يصنع بالرزق فاذا كان حياة العبد في خزانة الله تعالى وبيده فكذلك الرزق ان شاء يعطيني وان شاء يمنعني وهو غيب عني موكول الى الله تعالى يدبره كيف يشاء وأنا ساكن النفس بذلك وهذه نكتة لطيفة مقنعة لاهل التحقيق والرابعة عاذكرنا في هذا الفصل أن الله تعالى ضمن رزق العباد ولم يضمن الا الرزق المضمون الذي هو الغذاء والتربية وفيه القوام والعدة (واما الاسباب) من الطعام والشراب فالعبد اذا تجرد لعبادة الله تعالى وتوكل على الله فربما يحبس عنه الاسباب فلا يعبأ بذلك ولا يضجر لما علم من حقيقة الامر أن الضمان لقوام البنية والتوكل على الله سبحانه انما هو في هذا المعنى لا غير والمنتظر من الله تعالى هذا المعنى وأن الله تعالى لا محالة يمده بالقوة

ليقوم بحق العبادة والخدمة مادام له أجل وتكليف بالعبادة وهذا هو المقصود والله سبحانه قادر على ما يشاء ان شاء أن يقيم بنية عبده بطعام وشراب أو بطين وتراب أو بتسبيح وتهليل كالملائكة وان شاء بغير هذا كله فليس مطلوب العبد الا القوام والقوة للعبادة ليس الا كل والشرب وشدة الشهوة وميل اللذة فلا اعتبار اذن بالاسباب ولهذا المعنى قويت العباد والزهاد على الاسفار وطي الليالي والايام فمنهم من لم يأكل عشرة أيام ومنهم من لم يأكل شهرا وشهرين وهو على قوته ومنهم من كان يستف الرمل فيجعله الله تعالى غذاء فمما ذكر عن سفيان الثوري رحمه الله انه نفدت نفقته بمكة فمكث خمسة عشر يوما يستف الرمل وقال أبو معاوية الاسود رأيت ابراهيم بن أدهم يأكل الطين عشرين يوما وعن الاعمش قال قال لي ابراهيم التيمي رحمه الله تعالى ما أكلت منذ شهر قلت منذ شهر قال ولا شهرين الا ان انسانا ناشدني الله على عنقود من عنب فأكلته فأنا أشتكي بطني (قلت) أنا ولا تعجبن من ذلك فان لله تعالى القدرة على ما يشاء مثل هذا المريض تراه لا يأكل شهرا وهو حي يعيش والمريض على كل حال أضعف نفسا وأرق طبعا من القوي (واما) الذي يموت جوعا فذلك أجل حضره كالذي يموت شبعا وتخمة ولقد بلغني عن أبي سعيد الخراز رحمه الله انه قال كان حالي مع الله سبحانه أن يطعمني في كل ثلاثة أيام فدخلت البادية فمضت علي ثلاثة أيام ما طعمت فلما كان في اليوم الرابع وجدت ضعفا فجلست مكاني فاذا بهاتف يقول يا أبا سعيد أيما أحب اليك أسبب أو قوى فقلت لا الا القوى فقمت من وقتي وقد استقللت فأقمت اثني عشر يوما ما طعمت ولم أجد ألما لذلك (فاما اذا) رأى العبد احتباس الاسباب عنه وعلم من نفسه التوكل على الله فليستيقن أن يمده الله تعالى بالقوة فلا يضجرن لذلك بل حقه ان يشكر الله تعالى على ذلك شكرا كثيرا فان له المنة والصنع اللطيف اذ رفع عنه المؤنة وأعطاه المعونة وحصل له الاصل والمقصود ودفع عنه الثقل والواسطة وخرق له علائق العادة وأراه طريق القدرة وشبه حاله بحال الملائكة ورفعه عن حالة البهائم والعامة في تلك الكرامة فتأمل هذا الاصل الكبير تغنم الربح الكثير العظيم ان شاء الله تعالى (قلت أيضا) ولعلك تقول انك أطنبت في هذا الفصل خلاف شرط الكتاب (فأقول) لعمر الله انه لطفل في جنب ما يحتاج اليه في هذا المعنى اذ هو أهم شأنا في العبادة بل عليه مدار أمر الدين والدنيا والعبودية فمن له همة في هذا الشأن فليستمسك بذلك ولير اعه حقه والافهو عن المقصود بمعزل والذي يدلك على بصيرة علماء الآخرة العارفين بالله أنهم بنى أمرهم على التوكل على الله والتفرغ لعبادة الله وقطع العلائق كلها فكم صنفوا من كتاب وكم أوصوا بوصية وقبض الله لهم أعوانا من السادة وأصحابا حتى تمشى لهم من الخير المحض ما لم يمش لطائفة من طوائف الائمة الازهاد الكرامية فانهم بنوا مذهبهم على أصول غير مستقيمة وما زلنا أعز مما صنا على منهاج أئمتنا يخرج من معابدنا ومدارسنا كل حين اما امام في العلم كالاستاذ أبي اسحق وأبي حامد وأبي الطيب وابن فورك وشيخنا الامام واشباههم من السادة (واما) صديق في العبادة كأبي اسحق الشيرازي وأبي سعيد الصوفي ونصر المقدسي وغيرهم ممن فاق الامة علما وزهدا حتى ضعفت القلوب من بعضنا وتلطخنا بشيء من العلائق التي ضررها أكثر من نفعها فتراجعت الامور ونقاعدت الهمم وطارت البركات وزالت اللذات والحلاوات فلا يكاد يصفو لاحد عبادة أو يحصل له علم وحقيقة وان اللمعة التي تظهر منا الآن ليست الا

أن تناقش على نفسك لا يزيد في قدرك عند غيرك فانظر الى أقرانك اذا أثنوا على أنفسهم بالفضل والجاه والمال وكيف يستكبره قلبك عليهم ويستقله طبعك وكيف تذمهم عليه اذا فارقتهم فاعلم أنهم أيضا في حال تزكيتك لنفسك يذمونك في قلوبهم فاجزا وسيظهرونه بألسنتهم اذا فارقتهم (السادس) اللعن فاياك ان تلعن شيأ مما خلق الله تعالى من حيوان أو طعام أو انسان بعينه ولا تقطع بشهادتك على أحد من أهل القبلة بشرك أو كفر أو نفاق فان المطلع على السر انما هو الله تعالى فلا تدخل بين العباد وبين الله تعالى * واعلم أنك يوم القيامة لا يقال لك لم تلعن فلانا ولم سكت عنه بل لو لم تلعن ابليس طول عمرك ولم تشغل لسانك بذكره لم تسئل عنه ولم تطالب به يوم القيامة واذا لعنت أحدا من خلق الله تعالى طولبت ولا تلعن شيأ مما خلق الله تعالى فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يذم الطعام الردي قط بل ان كان اذا اشتهى شيأ أكله والا تركه (السابع) الدعاء

على الخلق احفظ لسانك عن الدعاء على أحد من خلق الله تعالى وان ظلمك فكل أمره الى الله تعالى ففى الحديث ان المظلوم ليدعو على ظالمه حتى يكافئه ثم يكون للظالم فضل عنده يطالبه به يوم القيامة وطول بعض الناس لسانه على الحجاج فقال بعض السلف ان الله لينتقم للحجاج ممن يتعرض له بلسانه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه (الثامن) المزاح والسخرية والاستهزاء بالناس فاحفظ لسانك منه فى الجد والهزل فانه يريق ماء الوجه ويسقط المهابة ويستجر الوحشة ويؤذى القلوب وهو مبدأ اللجاج والغضب والتمارى ويغرس الحقد فى القلوب فلا تمازح أحدا وان مازحك فلا تجبه وأعرض عنه حتى يخوض فى حديث غيره وكن من الذين اذا مروا باللغو مروا كراما فهذه فى مجامع آفات اللسان ولا يعينك عليه الا العزلة وملازمة الصمت الا بقدر الضرورة فقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يضع حجرا فى فيه ليمنعه ذلك من الكلام بغير ضرورة ويشير الى لسانه ويقول

من بقى على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحارث المحاسبى ومحمد بن ادريس الشافعى والمزنى وحرملة وغيرهم من أئمة الدين رحمهم الله أجمعين فهم كما قال القائل

وما صحبوا الايام الا تعففا * وما وجدوا من حب سيدهم بدا
أفاضل صديقون أهل ولاية * الى سيد السادات قد جعلوا القصدا
تحال عقد الصبر من كل صابر * وما حلت الايام من عقدهم عقدا

وكان الصدر الاول ما كانوا فصرنا سرقة وكنا فرسانا فصرنا رجالة ولينتا لا تستطاع عن الطريق بمرة والله المستعان على المصائب وهو المسؤل أن لا يسلبنا هذا الرمق انه جواد كريم منان رحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم (وأما التفويض) فتأمل فيه أصلين أحدهما انك تعلم ان الاختيار لا يصلح الا لمن كان عالما بالامور بجميع جهاتها ظاهرها وباطنها ومالها وعاقبتها والا فلا يأمن أن يختار الفساد والهلاك على ما فيه الخير والصلاح ألا ترى انك لو قلت لبدوى أو قروى أو راعى غنم انقد لى هذه الدراهم وميز لى بين جيدها ورديئها فانه لا يهتدى لذلك ولو قلت لاسوقى غير صيرفى فربما يعسر أيضا فلا تأمن اذن الا بأن تعرضها على الصيرفى الخبير بالذهب والفضة وما فيهما من الخواص والاسرار وهذا العلم المحيط بالامور من جميع الوجوه لا يصلح الا لله رب العالمين فلا يستحق اذن أحد أن يكون له الاختيار والتدبير الا الله وحده لا شريك له ولذلك يقول عز من قائل وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ثم قال تعالى وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون (وحكى) ان بعض الصالحين قيل له من قبل الله تعالى سل تعط وكان موفقا فقال ان عالما هو مع الوجوه يقول الجاهل من جميع الوجوه سل تعط ايش أعلم ماذا يصلح لى فأسأله ولكن اختر أنت لى فهذه هذه (والاصل الثانى) ما تقول لو أن رجلا قال لك أنا أقوم بجميع أمورك وأدبر جميع ما تحتاج اليه من مصالحك ففوض الامر كله الى واشتغل أنت بشأنك الذى يعنيك وهو عندك اعلم أهل زمانك واحكمهم واقواهم وأرحمهم واتقاهم واصدقهم وأوفاهم الست تغتنم ذلك وتعده أعظم نعمة وتمتن منه أكبر منة وتقدم له أوفر شكر وأجل ثناء ثم اذا اختار للشىء ألا تعرف وجه الصلاح فيه فلا تضجر لذلك بل تثق وتطمئن الى تدبيره وتعلم انه لا يختار لك الا ما هو الخير وما ينظر لك الا الصلاح كيف ما كان الامر بعد ما وكلت الامر اليه وضمن ذلك فمالك اذن لا تفوض الامر الى الله رب العالمين سبحانه فهو الذى يدبر الامر كله من السماء الى الارض فهو أعلم كل عالم وأقدر كل قادر وأرحم كل راحم واغنى كل غنى يختار لك بلطيف علمه وحسن تدبيره ما لا يبلغه عملك ولا يدركه فهمك واشتغل أنت بشأنك الذى يعنيك فى عاقبتك واذا اختار لك أمرا لا تعلم وجه مصيره رضيت بذلك واطمأنت اليه كيف ما كان فهو الصلاح والخير فتأمل راشدك الله ان شاء الله وبالله التوفيق (وأما) الرضا بالقضاء فتأمل فيه أصلين مقنعين لا مزيد عليهما أحدهما ما فى الرضا من الفائدة فى الحال والمآل (اما) الفائدة فى الحال ففراغ القلب وقلة الهم من غير فائدة ولذلك قال بعض الزهاد رحمه الله اذا كان القدر حقا فالهم فضل وأصله الخبر المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن مسعود رضى الله عنه ليقل همك وما قدر يكن وما لم يقدر لم يأتك هذا هو الكلام الجامع النبوى البالغ فى قلة لفظه وكثرة فائدة معناه (واما) الفائدة فى المآل فثواب الله تعالى ورضوانه قال الله تعالى رضى الله عنهم

ورضوا عنه وما فى السخط من الهم والحزن والضجر فى المال والوزر والعقوبة فى المآل بلا فائدة اذ القضاء نافذ فلا ينصرف بهمك وسخطك كما قيل

ما قد قضى يا نفس فاصطبرى له * وبك الامان من الذى لم يقدر

وتحققى أن المقدر كائن * حتما عليك صبرت أم لم تصبر

(والعاقل) لا يختار الهم بلا فائدة مع الوزر والعقوبة على راحة القلب وثواب الجنة (والاصل الثانى) ما فى السخط من عظم الخطر والضرر والكفر والنفاق الا ان يتداركه الله تعالى وتأمل قوله تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما فنفى الايمان واقسم على فقد الايمان عن سخط وجد فى نفسه حرجا من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف حال من سخط قضاء الله تعالى وقدره يا أن الله تعالى يقول من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر على نعمائى فليتخذ الها سوائى (قيل) كانه يقول هذا الا يرضانى رباحين يسخط فليتخذ ربا آخر يرضاه وهذا غاية الوعيد والتهديد لمن عقل ولقد صدق بعض السلف اذ قيل له ما العبودية وما الربوبية فقال للرب أن يقضى وللعبد أن يرضى فاذا قضى الرب ولم يرض العبد فهناك العبودية ولا ربوبية فتأمل هذا الاصل وانظر لنفسك لعلك تسلم بعون الله وتربح فيقسه (واما الصبر) فانه دواء مر وشربة كريهة مباركة تجلب كل منفعة وتدفع عنك كل مضرة فاذا كان الدواء بهذه الصفة فالانسان العاقل يكره النفس على شربه وتجرعه ويغص على مرارته وحدته ويقول مرارة ساعة راحة سنة (واما) المنافع التى يجلبها الصبر فاعلم أن الصبر أربعة أقسام صبر على الطاعة وصبر عن المعصية وصبر عن فضول الدنيا وصبر على المحن والمصائب فاذا احتمل مرارة الصبر وصبر فى هذه المواطن الاربعة تحصل له الطاعات ومنازلها من الاستقامة وثوابها الجزيل فى العاقبة ثم لا يقع فى المعاصى وبليتها فى الدنيا وتبعاتها فى الآخرة ثم لا يبتلى بطلب الدنيا ومالها من الشغل فى الحال والتبعة فى المآل ثم لا يحبط أجره على ما ابتلى به وذهب عنه فحصل اذن بسبب الصبر الطاعة ومنازلها الشريفة وثوابها والتقوى والزهد والعوض والثواب الجزيل من الله سبحانه وتفصيل ذلك أمر لا يعلمه الا الله عز وجل (وأما) دفع المضار فبين لصحة أولا من مؤنة الجزع ومقاساته فى الدنيا ثم وزره وعقوبته فى العقبى (واما) ان هو ضعف عن الصبر وسلك طريق الجزع فانه كل منفعة وطلقه كل مضرة اذ لا يصبر على مشقة الطاعة فلا يفعل الطاعة ولا يصبر على حفظها فيحبطها أولا يصبر على المواظبة عليها فلا يصل الى منزلة شريفة فيها من درجات الاستقامة أولا يصبر عن معصية فيقع فيها أو عن فضول فيشتغل به أولا يصبر على مصيبة فيحرم ثواب الصبر ويأكثر الجزع حتى يفوت العوض بسبب ذلك فتكون له مصيبتان احداهما فوت الشئ والاخرى فوت الاجر والعوض ومحاول المكروه وحرمان الصبر ولقد قيل حرمان الصبر على المصيبة أشد من المصيبة فأى فائدة فى شئ يذهب بالحاصل الموجود ولا يرد عليك الذاهب المفقود فاجتهد اذا فاتك أحد هما ان لا يفوتك الآخر (ومن الكلام الجامع) ما ذكر ان عليا رضى الله عنه عزى رجلا فقال ان صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور وان جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور (ثم أقول) جملة الامر ان قطع القلب عن العلائق المألوفة ومنع النفس عن العادات الراسخة

هذا الذى اوردنى الموارد كلها فاحترز منه فانه أقوى أسباب هلاكك فى الدنيا والآخرة (وأما البطن) فاحفظه من تناول الحرام والشبهة واحرص على طلب الحلال فاذا وجدته فاحرص على أن تقتصر منه على ما دون الشبع فان الشبع يقسى القلب ويفسد الذهن ويبطل الحفظ ويثقل الاعضاء عن العبادة والعلم ويقوى الشهوات وينصر جنود الشيطان والشبع من الحلال مبدأ كل شر فكيف من الحرام وطلب الحلال فريضة على كل مسلم والعبادة والعلم مع أكل الحرام كالبناء على السرجين فاذا قنعت فى السنة بقميص خشن وفى اليوم والليل برغيفين من الخشكار وتركت التلذذ بأطيب الادم لم يعوزك من الحلال ما يكفيك والحلال كثير وليس عليك أن تتفقد من بواطن الامور بل عليك أن تحترز مما تعلم أنه حرام أو تظن أنه حرام فان ما حصل من علامة ناجزة مقتدرة بالمثال أما المعلوم فظاهر وأما المظنون بعلامة فهو مال السلطان وعماله ومال من لا كسبه الا من

بالتوكل المحض على الله جل اسمه وترك التدبير فى الامور وتفويضها الى الله سبحانه من غير علم بما هو الصرف فيها وكبح النفس عن السخط والجزع مع تسارع النفس اليه واكراهها على لجام الرضا وتجرع مرارة الصبر مع نفرتها عن ذلك لامر مر وعلاج شديد وحمل ثقيل ولكنه تدبير سديد وطريق مستقيم وله عاقبة محمودة واحوال سعيدة مسعودة وما تقول فى الوالد المشفق الغنى اذا منع ولده العزيز رطبة أو تفاحة يأكلها وهو أرمد وسلها الى المعلم الغليظ السائس ويحبسه طول النهار عنده ويضجره ويحمله الى الطعام ليجمعه فيوبخه ويقلقله أترى أنه منع ذلك من بخل فيه فكيف وهو يعطى الاجانب ويوسع عليهم أو هو ان لهذا الولد عنده كيف وهو يكنزله جميع ما فى يديه أو قصد بذلك اتعابه وايذاءه ابغض له كيف وهو قرة عينه وثمرة فؤاده ولو هبت عليه ريح اعز عليه ذلك كلا ولكن لما علم أن صلاحه فى ذلك وان بهذا التعب القليل يصل الى خير كثير ونفع عظيم (وما تقول) فى الطبيب الحاذق الناصح الحب اذا منع المريض الدنف شربة ماء وهو ظمآن يتقلى كبده وسقاه شربة اهليلج كريهة تجزع عن ذلك نفسه وطبعه أترى أن ذلك منه معاداة وايذاء كلا بل هو نصح واحسان فاعلم يقينا أن فى اعطائه شهوته ساعة هلاكه وعطبه رأسا وفى منع ذلك شفاءه وبقاءه فتأمل أيها الرجل اذا حبس الله عنك رغيفا أو درهما فاعلم يقينا أنه علك ما تريد ويقدر على ايصاله اليك وله الجود والفضل وبعلم حالك فلا يخفى عليه شئ فلا عدم ولا عجز ولا خفا ولا بخل تعالى عن ذلك وتقدس فانه أغنى الاغنياء واقدر القادرين وأعلم العلماء وأجود الاجودين فتعلم اذن بالحقيقة أنه لم يمنعك الا لصلاح واختيار كيف وهو الذى يقول خلق لكم ما فى الارض جميعا كيف وهو الذى جاد عليك بمعرفته وهى التى تتلاشى فى جنبها الدنيا بأسرها وفى الخبر المشهور ان الله تعالى يقول انى لاذود أوليائى عن نعيم الدنيا كما يذود الراعى الشفيق ابله عن مبارك العرة واذا امتلأ بشرة فاعلم يقينا أنه غنى عن امتحانك وابتلائك عالم بحالك بصير بضعفك وهو بك رؤف رحيم أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم الله تعالى أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها فاذا علمت هذا علمت انه لم ينزل بك هذا المكروه الا لصلاح لكن جهلته أنت وهو عليم بذلك ولهذا المعنى تراه يكثر ابتلاء أوليائه وأصفيائه الذين هم أعز عباده حتى يقول صلى الله عليه وسلم اذا أحب الله قوما ابتلاهم ويقول النبى ان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الشهداء ثم الامثل فالامثل فاذا رأيت الله يحبس عنك الدنيا أو يكثر عليك الشدائد والبلوى فاعلم أنك عنده عزيز وانك عنده بمكان على وانه يسلك بك طريق أوليائه فانه يراك ولا يحتاج الى ذلك اما تسمع قوله تعالى واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا بل اعرف منته عليك فيما يحفظه عليك من صلاحك ويكثر من أجرك وثوابك وينزلك منازل الابرار والاعزة عنده فكم ترى من عواقب حميدة ومواهب كريمة والله ولى التوفيق بمنه وفضله

(فصل)

وبالجملة اذا علمت يقينا أن الله تعالى هو المتكفل بضمان رزقك الذى لا بد لك منه فى بقائك وقيامك بعبادته وانه القادر على ما يشاء كيف شاء وهو البصير بحالك حالا فحالا لساعة فساعة اتكلت على ضمانه الحق ووعده الصدق وسكن قلبك بذلك وانصرفت عن ذكر العلائق والاسباب

الدباغة أو بيع الخمر أو الربا أو المزامير وغير ذلك من الآلات اللهو الحرام حتى من علمت أن أكثر ماله حرام قطعا فلا تأخذه من يده وان أمكن أن يكون حلالا نادرا فهو حرام لانه الغالب على الظن ومن الحرام المحض ما يؤكل من الاوقاف من غير شرط الواقف فمن لم يشتغل بالتفقه فما يأخذه من المدارس حرام ومن ارتكب معصية ترتب عليها شهادته فلا يأخذه باسم الصوفية من وقف أو غيره حرام وقد ذكرنا مدا من أصل الشبهات والحلال والحرام فى كتاب مفرد من كتب احياء علوم الدين فعليك بطلبه فان معرفة الحلال وطلبه فريضة على كل مسلم كالصلوات الخمس (وأما الفرج) فاحفظه عن كل ما حرم الله تعالى وكن كما قال الله تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ولا تصل الى حفظ الفرج الا بحفظ العين عن النظر وحفظ القلب عن الفكر وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشبع فان هذه

وتعلق قلبك بها اذا العلائق لا تغسلك ولا تكفلك دون الله عز وجل فانه تعالى ييسر أكلها وشربها ثم هو الذى يميتها ويحييها ثم هو الذى يخلقك قوتها ونفعها ويدفع عنك ثقلها وضررها وهو تعالى يغنيك ويكفلك دونها اذا شاء فالامر كله الله وحده لا شريك له فتوكل عليه لا غير وكذلك تترك التدبير فى أمورك الى من يدبر السماء والارض وترجع نفسك عن شئ لا يبلغه علمك وفكرك من أمر غد ونظرك فى أمر يكون غدا ولا يكون وأنه كيف يكون وتكف عن أصل ولو اذ ليس فيه الا شغل القلب وتضييع الوقت ولعله تكون أمور لم تخطر ببالك فيكون ما سبق فى فكرك وتدبيرك وتضييعك الوقت العزيز فيه لغوا بلا فائدة بل خسرانا تندم عليه وتغبن فيه لكان شغل القلب فيه وتضييع العمر فى ذلك وفى هذا المعنى لبعض الزهاد رضى الله عنه

سبقت مقادير الاله وحكمه * فارح فؤادك من أجل ومن لو

وقال الآخر

سيكون ما هو كائن فى وقته * وأخو الجهالة متعب محزون

فلعل ما تخشاه ليس بكائن * ولعل ما ترجوه ليس يكون

وتقول لنفسك فى الجملة يا نفس ان يصبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وهو حسبنا ونعم الوكيل اذ هو قدير لا نهاية لقدرته حكيم لا نهاية لحكمه رحيم لا نهاية لرحمته ومن كان بهذه الصفات حقيق أن يتوكل عليه ويفوض الامر كله اليه فعليك بالتفويض وكذلك توطن قلبك على أن ما قضى الله ويقضى لك فهو الاوفق والاصلح وان كان ذلك لا يبلغ علمنا كيفيته وسره وتقول يا نفس المقدور كائن لا محالة فلا فائدة فى السخط والضجرة فيما يصنع الله فلا وجه للسخط ألست تقولين رضيت بالله ربا فكيف لا ترضين بقضائه والقضاء من شأن الربوبية وحقها فعليك بالرضاء وكذلك اذا أصابتك مصيبة وحل بك مكروه فتراعى نفسك عند ذلك وتضبط قلبك حتى لا تجزع ولا تظهر منك شكاية وقلق لا سيما عند الصدمة الاولى فان الشأن هناك والنفس متسارعة جدا الى عادة الجزع عند ذلك وتقول يا نفس هذه قد وقعت فلا حيلة لدفعها وقد دفع الله تعالى ما هو أكبر منها فان أنواع البلاء فى خزائنه لكثيرة وان هذه ستنقضى فلا تبقى وانها سحابة ستنقشع فتجلدى يا نفس قليلا تجدى لذلك سرورا طويلا وثوابا جزيلا بعد أن لا دفع للنازل ولا فائدة فى الجزع ولا مصيبة فى الحقيقة مع العزاء والصبر فتشغل لسانك بالاسترجاع وقلبك بذكر ما يحصل لك عند الله تعالى من الاجر وتتذكر صبر أولى العزم على المصائب العظام من الانبياء والاولياء الا عزة على الله تعالى واذا حبس عنك الدنيا فى وقت فتقول يا نفس هو أعلم بالحال وأرحم بك وأكرم وماله الذى يطعم الكلب فى خسته ويطعم الكافر فى عداوته وأنا عبده العارف الموحد ألا أساوى عنده وغيفا هذا محال أيضا فاعلى بالحقيقة أنه لم يحبس ذلك عنك الا لانفع عظيم وسيجعل الله بعد عسر يسرا فاصبرى قليلا ترى العجب من لطيف صنعه اما سمعت قول القائل

توقع صنع ربك سوف يأتى * بما تهواه من فرج قريب

ولا تيأس اذا ما نابك خطب * فكم فى الغيب من عجب عجيب

(وقول الآخر مثله)

ألا أيها المحزون الذى الهم به يبرح

اذا اشتد بك العسرى * فتفكر فى ألم نشرح

محركات الشهوة فى مغارسها (وأما اليدان) فاحفظهما عن أن تضرب بهما مسلما أو تتناول بهما ما لا حراما أو تؤذى بهما أحدا من الخلق أو تخون بهما فى أمانة أو وديعة أو تكتب بهما ما لا يجوز النطق به فان القلم أحد اللسانين فاحفظ القلم مما يجب حفظ اللسان عنه (وأما الرجلان) فاحفظهما عن أن تمشى بهما الى حرام أو تسعى بهما الى باب سلطان ظالم فالماشى الى السلاطين الظلمة من غير ضرورة وارهاق معصية كبيرة فانه تواضع لهم واكرام لهم على ظلمهم وقد أمر الله تعالى بالاعراض عنهم فى قوله تعالى ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار الآية وان كان ذلك لسبب طلب ما لهم فهو سعى الى الحرام وقد قال صلى الله عليه وسلم من تواضع لغنى صالح ذهب ثلثا دينه هذا فى غنى صالح فما ظنك بالغنى الظالم وعلى الجملة فكر كاتبا وسكاتبا يا عضائك نعمة من نعم الله تعالى عليك فلا تحرك شيأ منها فى معصية الله تعالى أصلا واستعملها فى طاعة الله تعالى (واعلم) أنك ان صرت تعليك يرجع

فصبر بين يسرين * اذا كررته فافرح

فاذا أجريت هذه الاذكار ونحوها واظبت عليها بالتكرير والقرين فان ذلك سيهون عليك اذا كانت لك همة واجتهاد زمانا غير طويل (ولقد) دفعت هذه العوارض الاربعة عن نفسك وكفيت مؤنتها وصرت عند الله تعالى من المتوكلين المفوضين الراضين بقضائه الصابرين على بلائه وحصلت لنفسك راحة القلب والبدن في الدنيا وعظيم الثواب والذخر في العقبى وجاءك القدر والمحبة عند رب العالمين فيجتمع لك خير الدارين وتستقيم لك طريق العبادة اذ لا عائق ولا شاغل وكنت حينئذ قد قطعت هذه العقبة العسرة والله تعالى المسؤل ان يعدك وايانا بحسن توفيقه فان الامر كله بيده وهو أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(الباب الخامس في العقبة الخامسة وهي عقبة البواعث)

ثم عليك يا أخي بالسير اذا استقام لك الطريق وسهلت السبيل وارتفعت العوائق وزالت العوارض ولا يحصل لك السير المستقيم الا باستشعار الخوف والرجاء والتزامهما حقوقهما على حدهما اما الخوف فانما يجب التزامه لامرين أحدهما الزجر عن المعاصي فان هذه النفس الامارة بالسوء مائلة الى الشر طماحة الى الفتنة فلا تنتهي عن ذلك الا بتخويف عظيم وتهديد بالغ وليست هي في طبعها مرتبة مهما الوفاء وبمنعها الحياء عن الجفاء اغاهي كما قال القائل

العبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه الملامه

والتدبير في أمرها أن تقرعها أبدا بسوط التخويف قولا وفعلا وفكرا ونحو ماذكر عن بعض العالمين أن نفسه دعته الى معصية فانطلق ونزع ثيابه وجعل يتمرغ في الرمضاء ويقول لنفسه ذوقي فنار جهنم أشد حرا من هذه أي جيفة بالليل بطالة بالنهار والثاني لئلا يعجب بالطاعات فيهلك بل يقمعها بالذم والعيب والنقص بما فيها من الاسواء والاوزار التي فيها ضروب الاخطار ونحو ذلك ونحو ماذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لو أني وعيسى أخذنا بما اكتسبت هاتان لعذبنا عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين وأشار بأصبعيه وعن الحسن انه كان يقول ما يأمن أحدنا أن يكون قد أهاب ذنبا فطبق باب المغفرة دونه فهو يعمل في غير معمل وعن ابن المبارك فيما يعاتب نفسه تقولين قول الزاهدين وتعملين عمل المنافقين وفي الجنة تطمعين هيهات هيهات ان للجنة قوما آخرين ولهم أعمال غير ما تعملين فهذه وأمثالها مما يلزم العبد تذكيرها النفس وتكريرها عليها لئلا تجب بطاعة أو تقع في معصية وبالله التوفيق (واما) الرجاء فانما يلزمك استشعاره لامرين أحدهما للبعث على الطاعات وذلك أن الخير ثقيل والشيطان عنه زاجر والهوى الى ضده داع وحال أهل الغفلة من عامة الخلق في النفس منطبع مشاهدة الثواب الذي يطلب بالطاعات عن العين غائب وأمد الوصول اليه فيما يحسبه بعيد واذا كان الحال على هذه الحالة فلا تنبعث النفس للخير ولا ترغب فيه حقه ولا تهتز له الا بامر قابل كل هذه الموانع ويساورها بل يزيد عليها وذلك الامر هو الرجاء القوي في رحمة الله والترغيب البالغ في حسن ثوابه وكريم أجره ولقد قال شيخنا رحمه الله الحزن يمنع عن الطعام والخوف يمنع من الذنوب والرجاء يقوى على الطاعات وذكر الموت يزهد في الفضول والثاني ليهون عليك احتمال الشدائد والمشقات (واعلم) ان من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ومن طلب لهفي رغب فيه حق رغبته احتمل

وبالله ان عثرت فاليك ترجع ثمرته والله غني عنك وعن عملك وانما كل نفس بما كسبت رهينة واياك ان تقول ان الله كريم رحيم يغفر الذنوب للعصاة فان هذه كلمة حق أريد بها باطل وصاحبها ملقب بالمهلكة بتلقيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني (واعلم) ان قولك هذا ايضا هي قول من يريد أن يصير فقيها في علوم الدين واشتغل بالبطالة وقال ان الله كريم رحيم قادر على أن يفيض على قلبي من العلوم ما أفاضه على قلوب أنبيائه وأوليائه من غير جهد وتكرار وتعلق وهو كقول من يريد مالا فترك الحراثة والتجارة والكسب وتعطل وقال ان الله كريم رحيم وله خزائن السموات والارض وهو قادر على أن يطعمني على حصير من الكنوز أستغني به عن الكسب فقد فعل ذلك لبعض عباده فانت اذا سمعت كلام هذين الرجلين استحمقتهما وسخرت منهما وان كان ما وعداه من كرم

شدته ولم يبال بما يلقى من مؤنته ومن أحب أحدا احتمل محنته أحب أيضا احتمال محنته حتى انه ليجد بتلك المحنة ضروبا من اللذة ألا ترى مشتار العسل لا يبالى بلسع النحل لما يتذكر من حلاوة العسل والاجير لا يعبأ بارتقاء السلم الطويل مع الحمل الثقيل طول النهار الصائف المديد لما يتذكر من أخذ درهمين بالعشى وان الفلاح لا يتفكر بقساوة الحر والبرد ومباشرة الشقاء والكد طول السنة لما يتذكر من البيدر أوان الغلة وكذلك يا أخى العباد الذين هم أهل الاجتهاد اذا ذكروا الجنة فى طيب مقيلها وأنواع نعيمها من حورها وقصورها وطعامها وشرابها وحليها وحللها وسائر ما أعده الله تعالى لاهلها هان عليهم ما احتملوه من تعب فى عبادة أو ما فاتهم فى الدنيا من لذة ونعمة أو نالهم من ضرر وذلة أو نقمة أو مشقة لاجلها (ولقد حكى) أن أصحاب سفيان الثورى رحمه الله تعالى كلموه فيما كانوا يرون من خوفه واجتهاده ورثاثة حاله فقالوا يا أستاذ لو نقصت من هذا الجهد لنلت مرادك أيضا ان شاء الله تعالى فقال سفيان كيف لا أجتهد وقد بلغنى ان أهل الجنة يكونون فى منازلهم فيتجلى لهم نور تضىء له الجنان الثمانية فيظنون أن ذلك نور من قبل الرب سبحانه فيخرون ساجدين فينادون أن ارفعوا رؤسكم ليس الذى تظنون انما هو نور جارية تبسمت فى وجه زوجها ثم أنشأ يقول

ما ضر من كانت الفردوس مسكنه * ماذا تحمل من بؤس واقتار
تراه يمشى كئيبا خائفا وجلا * الى المساجد يمشى بين اطمار
يا نفس مالك من صبر على لهب * قد حان أن تقبلى من بعد ادبار

(قلت أنا) فاذا كان هذا مقدار أهل العبودية على الامرين القيام بالطاعة والانتهاء عن المعصية وذلك لا يتم مع هذه النفس الامارة بالسوء الا بترغيب وترهيب وترجية وتخويف فان الدابة الحرون تحتاج الى قائد يقودها والى سائق يسوقها واذا وقعت فى مهواة فربما تضرب بالسوط من جانب ويلوح لها التعير من جانب آخر حتى تنهض وتتخلص مما وقعت فيه وان الصبى العرم لا يمر الى الكتاب الا بترجية من الوالدين وتخويف من المعلم فكذلك هذه النفس دابة حرون وقعت فى مهواة الدنيا فالخوف سوطها وسائقها والرجاء شعيرها وقائدها واتم الصبى العرم يحمل الى كتاب العبادة والتقوى فذكر النار والعقاب تخويفه وذكر الجنة وثوابها ترجيته وترغيبه فكذلك يلزم العبد الطالب للعبادة والرياضة أن يشعر النفس بالامرين اللذين هما الخوف والرجاء والا فلا تساعد النفس الجموح على ذلك وبهذا المعنى ورد الذكر الحكيم بجموع الامرين الوعد والوعيد والترغيب والتهديد وبالغ فى كل واحد منهما فذكر من الثواب الكريم ما لا صبر عنه وذكر من العقاب الاليم ما لا صبر عليه فعليك اذن بالتزام هذين المعنيين يحصل لك مرادك من العبادة ويسهل عليك احتمال المشقة والله تعالى ولى التوفيق بفضله ورحمته (فان قلت) فما حقيقة الرجاء والخوف وحكمهما فاعلم ان الخوف والرجاء عند علمائنا رحمهم الله تعالى يرجعان الى قبيل الخواطر وانما المقدور للعبد مقدماتهما قالوا فالخوف رعدة تحدث فى القلب عن ظن مكروه يناله والخشية نحوه لكن الخشية تقتضى ضربا من الاستعظام والمهابة وضد الخوف الجراءة ولكن قد يقابل بالامن يقال خائف وآمن وخوف وأمن لان الآمن الذى يجترئ على الله سبحانه والحقيقة ان الجراءة تضاد ومقدمات الخوف أربع الاولى ذكر الذنوب

الله تعالى وقدرته صدقا حقا فكذلك يفعل عليك أرباب البصائر فى الدين اذا طلبت المغفرة بغير سعى لها والله تعالى يقول وأن ليس للانسان الا ما سعى ويقول انما تجزون ما كنتم تعملون ويقول ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم فاذا لم تترك السعى فى طلب العلم والمال اعتمادا على كرمه فكذلك لا تترك التزود للآخرة ولا تغتر فان رب الدنيا والآخرة واحد وهو فيهما كريم ورحيم ليس يزيده كرم بطاعتك وانما كرمه فى أن يسر لك طريق الوصول الى الملك المقيم الخالد بالصبر على ترك الشهوات أياما قلائل وهذا نهاية الكرم فلا تحدث نفسك بتهويسات المبطلين واقتد بأولى العزم والنهى من الانبياء والصالحين ولا تطمع فى أن تحصد ما لم تزرع وليت من صام وصلى وجاهد واتقى غفر له فهذه سبل ما ينبغى أن تحفظ عنه جوارحك الظاهرة وأعمال هذه الجوارح انما تنشأ من صفات القلب فان أردت حفظ الجوارح فعليك بتطهير القلب وهو

الكثيرة التي سبقت وكثرة الخصوم الذين مضوا الى المظالم وأنت مرتهن لم يقين لك الخلاص بعد والثانية ذكر شدة عقوبة الله سبحانه التي لا طاقة لك بها والثالثة ذكر ضعف نفسك عن احتمال العقوبة والرابعة ذكر قدرة الله تعالى عليك متى شاء وكيف شاء *(وأما الرجاء)* فهو ابتهاج القلب بمعرفة فضل الله سبحانه واستروائه الى سعة رحمة الله تعالى وهذا من جملة الخواطر غير مقدور للعبد ورجاء هو مقدور للعبد وهو تذكر فضل الله وسعة رحمته وقد سمى أيضا ارادة الخاطرة بالاستبشار رجاء والمراد من هذا الباب هو الاول وهو التذكر على حسب الابتهاج والاستروائح وضده اليأس وهو تذكر فوات رحمة الله وفضله وقطع القلب عن ذلك وهو معصية محضة وهذا الرجاء فرض اذا لم يكن للعبد سبيل الى الامتناع عن اليأس الا به والا فهو نفل بعد اعتقاد الجملة في فضل الله وسعة رحمته ومقدمات الرجاء أربع الاولى ذكر سوابق فضله اليك من غير قدم أو شفيع والثانية ذكر ما وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرامته على حسب فضله وكرمه دون استحقاقك اياه بالفعل اذ لو كان على حسب الفعل لكان أقل شئ وأصغر أمر والثالثة ذكر كثرة نعمة الله عليك في أمر دينك ودنياك في الحال من أنواع الامداد والالطاف من غير استحقاق أو سؤال والرابعة ذكر سعة رحمة الله تعالى وسبقها غضبه وانه الرحمن الرحيم الغني الكريم الرؤف بعباده المؤمنين فاذا واظبت على هذين النوعين من الاذكار أفضى بك الى استشعار الخوف والرجاء بكل حال والله تعالى ولي التوفيق منه وفضله

(فصل)

فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة في تمام الاحتياط والتحرز وحسن الرعاية فانها عقبة دقيقة المسلك خطرة الطريق وذلك ان طريقها بين طريقين مخوفين مهلكين أحدهما طريق الأمن والثاني طريق اليأس وطريق الرجاء والخوف هو الطريق العدل بين الطريقين الجائرين فان غلب الرجاء عليك حتى فقدت الخوف البتة وقعت في طريق الأمن ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون وان غلب عليك الخوف حتى فقدت الرجاء البتة وقعت في طريق اليأس ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون فان كنت ركبت بين الخوف والرجاء واعتصمت بهما جميعا فهو الطريق العدل المستقيم التي هي سبيل أولياء الله وأصفيائه الذين وصفهم الله تعالى بقوله انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين فاذا ظهرت لك في هذه العقبة طرق ثلاثة طريق الامن واطراءه وطريق اليأس والقنوط وطريق الخوف والرجاء معتدلا بينهما فان ملت عنه بقدم الى يمينك أو يسارك وقعت في المهلكين وهلكت مع الهالكين ثم الشأن أن الطريقين الجائرين المهلكين أوسع مجالا وأكثر داعيا وأسهل سلوكا من الطريق العدل لانك اذا نظرت من جانب الامن رأيت من سعة رحمة الله وكثرة فضله وغاية جوده ما لا يليق للسمع خوف فتتكل على ذلك بمرة وتأمن وان نظرت من جانب الخوف رأيت من عظيم قدرة الله تعالى وسياسته وكثرة هيبته ودقة أمره وغاية مناقشته مع أوليائه وأصفيائه ما لا يكاد يبقى معه رجاء فتيأس بمرة وتقنط فتحتاج اذن أن لا تنظر الى سعة رحمة الله فقط حتى تتكل وتأمن ولا الى عظيم الهيبة والمناقشة فقط حتى تقنط وتيأس بل تنظر الى هذا والى هذا جميعا وتأخذ من هذا بعضا ومن هذا بعضا فتركب بينهما طريقا دقيقا وتسلك ذلك التسلم فان

طريق

العقوى الباطن والقلب هو المضغة التي اذا صلحت صلح لها الجسد كله فاشتغل بصلاحه لتصلح به جوارحك

(القول في معاصي القلب)

اعلم أن الصفات المذمومة في القلب كثيرة وتطهير القلب من رذائلها طويل وسبيل العلاج فيها غامض وقد اندرس بالكلية علمه وعمله لغفلة الخلق عن أنفسهم واشتغالهم بزخارف الدنيا وقد استقصينا ذلك كله في كتاب احياء علوم الدين في ربع المهلكات وربع المنجيات ولكنا نحذرك الآن ثلاثا من خبائث القلب هي الغالبة على متفقهة العصر لتأخذ منها حذرك فانها مهلكات في أنفسها وهي امهات لجملة من الخبائث سواها وهي الحسد والرياء والعجب فاجتهد في تطهير قلبك منها فان قدرت عليها فتعلم كيفية الحذر من بقيتها من ربع المهلكات فان عجزت عن هذا فأنت عن غيره أعجز ولا تظن أنك تسلم بنية صالحة في ذوات العلم وفي قلبك شئ من الحسد والرياء والعجب وقد قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع

طريق الرجاء المحض سهل واسع عريض وعاقبته تؤدي الى الأمن والخسران وطريق الخوف المحض واسع عريض وعاقبته تؤدي الى الضلال وطريق العدل بينهما أعني طريق الخوف والرجاء وذلك وان كان طريقا دقيقا عسرا فانه سبيل سالم ومنهج بين يؤدي الى الغفران والاحسان ثم الى الجنان والرضوان ولقاء الملك الرحمن سبحانه أما تسمع قوله تعالى في أثناء هذا السبيل يدعون ربهم خوفا وطمعا ثم قال فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون فتأمل هذه الجملة جيدا وتشمر وتنبه للأمر فانه لا يجتبى بالهوينا والله ولي التوفيق ثم اعلم أنه لا يتأتى لك سلوك هذه الطريق وحل هذه النفس الجموح الكسلى عن الخير باجتناب المحبوب عندها واكتساب الطاعات الثقيلة عليها الا بالتحفظ بثلاثة أصول والتذكر لها على سبيل الدوام من غير فترة ولا غفلة أحدها ذكر أقواله تعالى سبحانه في الترغيب والترهيب والثاني ذكر أفعاله سبحانه في الاخذ والعفو والثالث ذكر جزائه للعباد في المعاد من الثواب والعقاب وتفصيل كل أصل منها يحتاج الى صحف كثيرة ولاجلها صنفنا كتاب تنبيه الغافلين ونحن نشير في هذا الكتاب الى كلمات توقفك على المقصود ان شاء الله عز وجل والله ولي التوفيق (الاصل الاول أقواله سبحانه وتعالى) تدبر أيها الرجل ما في الكتاب العزيز من آيات الترغيب والترهيب والترجية والتخويف فمن آيات الرجاء قوله تعالى لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ومن يغفر الذنوب الا الله غافر الذنب وقابل التوب وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت كتب ربكم على نفسه الرحمة ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ان الله بالناس لرؤف رحيم وكان بالمؤمنين رحيما فهذه ونحوها آيات الرجاء ومن آيات الخوف والسياسة قوله تعالى يا عبادي فاتقون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون أيحسب الانسان أن يترك سدى ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوأ يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وبدى لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا نسأل الله تعالى أن يسلمنا برحمته ومن الآيات اللطيفة الجامعة بين الخوف والرجاء قوله تعالى نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ثم قال في عقبه وأن عذابي هو العذاب الأليم لئلا يستولي عليك الرجاء مرة وقوله تعالى شديد العقاب ثم قال في عقبه ذي الطول لا اله الا هو لئلا يستولي عليك الخوف مرة وأعجب منه قوله سبحانه وتعالى ويحذركم الله نفسه ثم قال في عقبه والله رؤف بالعباد وأعجب منه قوله سبحانه وتعالى من خشي الرحمن بالغيب علق الخشية باسم الرحمن دون اسم الجبار والمنتقم والمتكبر ونحوه لتكون الخشية مع ذكر الرحمة فلا تكون الخشية تطير قلبك بمرة فتكون تخويفا في تأمين وتحزين كما في تسكين كما تقول أما تخشى الوالدة الرحيمة أما تخاف الوالد المشفق أما تحذر الامير الكريم والمراد من ذلك أن يكون الطريق عدلا فلا تذهب الى أمن وقنوط جعلنا الله وإياكم من المتدبرين لهذا الذكر الحكيم والعاملين بما فيه برحمته انه هو الجواد الكريم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (الاصل الثاني في أفعاله عز وجل ومعاملاته) اما من جانب الخوف فاعلم ان ابليس عبد ستمائة ألف سنة فلم يترك فيما قيل موضع قدم الا وسجد لله تعالى فيه سجدة ثم ترك أمرا واحدا فطرده عن بابه وضرب بوجهه عبادة ستمائة ألف سنة ولعنه الى يوم الدين وأعده عذابا أليما الى أبد الآبدين حتى روي ان

وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه (أما الحسد) فهو متشعب من الشح فان البخيل هو الذي يبخل بما في يده على غيره والشحيح هو الذي يبخل بنعمة الله وهي في خزائن قدرته لا في خزائنه على عباد الله تعالى فشحه أعظم والحسود هو الذي يشق عليه انعام الله تعالى من خزائن قدرته على عبد من عباده بعلم أو مال أو رحمة في قلوب الناس أو حفظ من الحفاظ حتى انه ليحب زوالها عنه وان لم يحصل له من ذلك مصلحة وهذا منتهى الخبث فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والمحسود هو المعذب الذي لا يرحم ولا يزال في عذاب دائم في الدنيا فان الدنيا لا تخلو قط عن خلق كثير من أقرانه وممارفه ممن أنعم الله عليهم بعلم أو مال أو رجاه فلا يزال في عذاب دائم في الدنيا الى موته ولعذاب الآخرة أشد وأكبر بل لا يصل العبد الى حقيقة الايمان ما لم يحب لسائر المسلمين ما يحب لنفسه بل ينبغي أن يساويهم في الضراء

والضراء فالمسلمون كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضا وكالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو اشتكى سائر الجسد فان كنت لا تصادف هذا من قلبك فاشتغالك بطلب التخلص عن الهلاك أهم من اشتغالك بنوادر الفروع وعلم الخصومات (وأما الرياء) فهو الشرك الخفي وهو أحد الشركين وذلك طلبك منزلة في قلوب الخلق لتنال بها الجاه والحشمة وحب الجاه من الهوى المتبع وفيه هلك أكثر الناس فما أهلك الناس الا الناس فلو أنصف الناس حقيقة لعلموا أن أكثر ما هم فيه من العلوم والعبادات فضلا عن أعمال العادات ليس يحملهم عليها لا مر الآخرة الناس وهي محبطة للاعمال كما ورد في الخبر ان الشهيد يؤمر به يوم القيامة الى النار فيقول يارب استشهدت في سبيلك فيقول الله تعالى أردت أن يقال فلان شجاع وقد قيل ذلك وذلك أجرك وكذا يقال للعالم والحاج والقارئ (وأما العجب والكبر والفخر) فهو الداء العضال وهو نظر العبد الى نفسه بعين العز والاستعظام

الصادق الامين صلوات الله عليه وسلامه رأى جبريل عليه السلام منعلقا بأستار الكعبة وهو يصرخ وينادي الهي وسيدي لا تغير اسمي ولا تبدل جسمي ثم آدم صلى الله عليه وسلم صفيه ونبيه الذي خلقه بيده وأسجد له ملائكته وحمله على أصنافهم الى جواره انبسط فأكل أكلة واحدة لم يؤذن له فيها فنودي ألا لا يجاورني من عصاني وأمر الملائكة الذين حملوا سريره يرجعونه من سماء الى سماء حتى أوقعوه بالارض ولم يقبل توبته فما روي حتى بكى على ذلك مائتي سنة ولحقه من الهوان والبلاء ما لحقه وبقيت ذريته في تبعات ذلك على الابد ثم ان نوحا عليه السلام شيخ المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين الذي احتمل في أمر دينه ما احتمل لم يقل الا كلمة واحدة على غير وجهها اذ نودي فلا تسألني ما ليس لك به علم اني أعظك أن تكون من الجاهلين حتى روي في بعض الاخبار أنه لم يرفع رأسه الى السماء حياء من الله أربعين سنة ثم ان ابراهيم خليل الله عليه السلام لم يكن منه الا هفوة واحدة فكم خاف وتضرع وقال والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين حتى روي انه كان يبكي من شدة الخوف فيرسل الله تعالى اليه الامين جبريل عليه السلام فيقول يا ابراهيم هل رأيت خليلا يعذب خليله بالنار فيقول يا جبريل اذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي ثم موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم لم يكن منه الا لطمة واحدة من حدة فكم خاف وتضرع واستغفر وقال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي ثم في زمانه بلعم بن باعورا كان بحيث اذا نظر الى السماء يرى العرش وهو المعني بقوله تعالى واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ولم يكن منه الا أنه مال الى الدنيا وأهلها ميلة واحدة ونزل لولي من أوليائه حرمة واحدة فسلبه الله معرفته وجعله بمنزلة الكلب المطرود فقال فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث الآية فأوقعه في بحر الضلال والهلاك الى آخر الابد حتى سمعت بعض العلماء يقول انه كان في أول أمره بحيث يكون في مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا وذكر فيه أن ليس للعالم صانع نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه ومن عذابه الاليم وفظيع خذلانه الذي لا طاقة لنا به فانظر الى خبث الدنيا وشؤمها ماذا يجلب للعلماء خاصة فتنبه فان الامر خطير والعمر قصير وفي العمل تقصيروا فان قصيرا فان ختم بالخير اعمالنا وأقالنا عثراتنا فما ذلك عليه بعسير ثم ان داود عليه السلام خليفته في أرضه أذنب ذنبا واحدا فبكى على ذلك حتى نبت العشب في الارض من دموعه وقال الهي أما ترحم بكائي وتضرعي فأجيب يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ولم يقبل توبته أربعين يوما وقيل أربعين سنة ثم ان يونس نبيه عليه السلام غضب غضبة واحدة في غير موضعها فسجنه في بطن الحوت تحت قعر البحار أربعين يوما وهو ينادي أن لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين وسمعت الملائكة صوته فقالوا الهنا وسيدنا صوت معروف من موضع مجهول فقال الله تعالى ذلك صوت عبدي يونس فشفعت فيه الملائكة ثم مع ذلك كله غير اسمه فقال وذا النون فنسبه الى سجنه ثم قال فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون ثم ذكر نعمته ومنته فقال لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فانظر الى هذه السياسة أيها المسكين وكذلك فلتجر الى سيد المرسلين أكرم خلقه عليه يقول له فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول

شيبتني هود واخواتها قيل عنى هذه الآية وأشكالها في القرآن فقال الله تعالى واستغفر لذنبك الى أن من الله عليه بالغفران فقال ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك وقال تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وكان بعد ذلك صلوات الله عليه يصلي الليل حتى تورمت قدماه فيقولون أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول أفلا أكون عبدا شكورا وكان عليه السلام يقول لو أني وعيسى أخذنا بما كسبت هاتان لعذبنا عذابا لم يعذبه أحد من العالمين وكان يصلي الليل ويبكي ويقول أعوذ بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ثم الصحابة الذين هم خير قرن في خير أمة كان بينهم شيء من المزاح فنزل قوله تعالى ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله الآية ثم وضع في هذه الامة مع كثرتها مرحومة الحدود والسياسات العظيمة والآداب حتى كان يونس بن عبيد يقول لا تأمن من قطع في خمسة دراهم خير عضو منك أن يكون غدا عذابه هكذا نسأل الله تعالى الرحيم الكريم سبحانه أن لا يعاملنا الا بمحض كرمه انه أرحم الراحمين وأما من جانب الرجاء فحدث عن رحمة الله الواسعة ولا حرج ومن الذي يعرف غايتها أو يعرف وصفها ونهايتها فانه الذي يهب كفر سبعين سنة بايمان ساعة قال الله تعالى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف أما ترى في أمر سحرة فرعون الذين جاؤا لحربه وحاضروا بعزة فرعون عند وقوعها كان الا أن رأوا آية موسى عليه السلام فعرفوا الحق فقالوا آمنا برب العالمين ولم يذكر أنهم زادوا عليها علما ثم انظركم كرر ذكرهم في معنى المدح في كتابه العزيز وكم كاثر وصغائر غفرها لهم بايمان ساعة بل لحظة فما قالوا الا أن آمنا برب العالمين عن صدق القلوب كيف قبلهم ووهب لهم جميع ما سلف ثم كيف جعلهم رؤس الشهداء في الجنة أبدا لا يبدين فهذا حال من عرفه ووحده ساعة بعد كل ذلك السحر والكفر والضلال والفساد فكيف حال من أفنى عمره في توحيده ولا يرى لذلك أهلا في الدارين غيره أما ترى أصحاب الكهف وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها والتجؤا اليه كيف قبلهم ووهب لهم ثم أعزهم وأكرمهم فقال ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكيف أعظم لهم الحرمة وألبسهم المهابة والخشية حتى يقول لأكرم الخلق عليه لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا بل كيف أكرم كلبانتهم حتى ذكره في كتابه العزيز مرات ثم جعله معهم في الدنيا محجوبا ويدخله الجنة في الآخرة مكرما وهذا فضله مع كلب خطا خطوات مع قوم عرفوه ووحدوه أياما معدودة من غير عبادة أو خدمة فكيف فضله مع عبده المؤمن الذي خدمه ووحده وعبده ستين سنة وكيف لو عاش سبعين ألف سنة لكان قاصد اللعبودية أما ترى كيف عاتب ابراهيم عليه السلام في دعائه على المجرمين بالهلاك وكيف عاتب موسى في أمر قارون فقال استغاث بك قارون فلم تغثه فوعزتي لو استغاث بي لاغثته وعفوت عنه وكيف عاتب يونس عليه السلام في شأن قومه بأنك تحزن على شجرة من يقطين أنبتها في ساعة وأيبستها في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون ثم كيف قبل عذرهم وصرف عذابه العظيم عنهم بعد ما أشلهم ثم كيف عاتب سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله أجمعين فيما روي انه دخل من باب بني شيبة فرأى قوما يضحكون فقال لم تضحكون لا أراكم تضحكون حتى اذا كان عند الحجر الاسود

والى غيره بعين الاحتقار وتتجه على اللسان أن يقول أنا وأنا كما قال ابليس اللعين أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين وغرته في المجالس الترفع والتقدم وطلب التصدر في المحاورة والاستنكاف من أن يرد كلامه عليه والمتكبر هو الذي ان وعظ أنف أو وعظ عنف وكل من رأى نفسه خيرا من أحد من خلق الله تعالى فهو متكبر بل ينبغي لك أن تعلم أن الخير من هو خير عند الله في دار الآخرة وذلك غيب وهو موقوف على الخاتمة فاعتقادك في نفسك أنك خير من غيرك جهل محض بل ينبغي أن لا تنظر الى أحد الا وترى أنه خير منك وأن الفضل له على نفسك فان رأيت صغيرا قلت هذا لم يعص الله وأنا عصيته فلا شك أنه خير مني وان رأيت كبيرا قلت هذا قد عبد الله قبلي فلا شك أنه خير مني وان كان عالما قلت هذا قد أعطي ما لم أعط وبلغ ما لم أبلغ وعلم ما جهلت فكيف أكون مثله وان كان جاهلا قلت هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فحجة الله علي آكد وما

أدرى بما يختم لى وبما يختم
له وان كان مكافرا قات
لا أدرى عسى أن يسلم
ويختم له بخير العمل ويسلم
باسلامه من الذنوب كما
تسل الشعرة من العجين
واما أنا والعياذ بالله فعسى
أن يضاف الله فأكفر فيختم
لى بشر العمل فيكون غدا
هو من المقربين وأنا أكون
من المعذبين فلا يخرج الكبر
من قلبك الا بأن تعرف أن
الكبير من هو كبير عند الله
تعالى وذلك موقوف على
الخاتمة وهى مشكوك فيها
فيشغلك خوف الخاتمة عن
أن تتكبر مع الشك فيها
على عباد الله تعالى فيقينك
وايمانك فى الحال لا يناقض
تجويزك التغير فى الاستقبال
فان الله مقلب القلوب يه
يهدى من يشاء ويضل من
يشاء والاخبار فى الحسد
والكبر والرياء والعجب كثيرة
ويكفيك فيها حديث واحد
جامع فقد روى ابن المبارك
باسناده عن رجل أنه قال
لمعاذ يا معاذ حدثنى حديثا
سمعته من رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال فبكى معاذ
حتى ظننت أنه لا يسكت ثم
سكت ثم قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم

رجع البهم القهقرى وقال جاءنى جبريل فقال يا محمد ان الله تعالى يقول للك لم تقنط عبادى من
رحمتى نبئ عبادى أنى انا الغفور الرحيم وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله أرحم بالعبد
المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها وفى الخبر المشهور عن النبى صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى
مائة رحمة فواحدة منها قسمها بين الجن والانس والبهائم فبها يتعاطفون وبها يتراحمون واذا خر
منها تسعة وتسعين لنفسه ليرحم بها عباده يوم القيامة واذا قد أعطاك من الرحمة الواحدة كل
هذه العطايا الكريمة العزيزة من معرفته سبحانه والكون من هذه الامة المرحومة مع معرفة السنة
والجماعة الى سائر ما لديك من النعم الظاهرة والباطنة فرجوك من فضله العظيم أن يتم ذلك فانه من
بدأ بالاحسان فعليه الاتمام ويجعل من تسع وتسعين رحمة لك الحظ الوافر فنسأل الله سبحانه
أن لا يخيب آمالنا من فضله العظيم بفضله انه السيد الكريم الجواد الرحيم (وأما الاصل الثالث) فى
ذكر ما وعد وأوعد فى المعاد فلنذكر فى ذلك الاحوال الخمسة الموت والقبر والقيامة والجنة والنار
وما فى كل مقام منها من اخطار العظيم للمطيعين والعاصين والمقصرين والمجتهدين (أما الموت)
فأذكر فيه حال رجلين أحدهما ما روى عن ابن شبرمة انه قال دخلت مع الشعبى على مريض
نعوده وهو يمانيه وعنده رجل آخر يلقنه لا اله الا الله وحده لا شريك له فقال له الشعبى ارفق به
فتكلم المريض فقال ان تلقنى أو لم تلقنى فانى لا أدعها ثم قرأ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق
بها وأهلها فقال الشعبى الحمد لله الذى نجا صاحبنا والآخر ما حكى أن تلميذ الفضيل بن عياض
حضرته الوفاة فدخل عليه الفضيل وجلس عند رأسه وقرأ سورة يس فقال يا أستاذ لا تقرأ هذا
فسكت ثم لقنه فقال له قل لا اله الا الله فقال لا أقولها الا التى سمعتها برى ومات على ذلك فدخل الفضيل
منزله وجعل يبكى أربعين يوما لم يخرج من البيت ثم رآه فى النوم وهو يسحب الى جهنم فقال بأى
شئ نزع الله المعرفة منك وكنت أعلم تلامذتى فقال بثلاثة أشياء أولها بالنميمة فانى قلت لاصحابى
بخلاف ما قلت لك والثانى بالحسد حسدت أصحابى والثالث كان بى علة فجئت الى الطبيب
فسألته عنها فقال تشرب فى كل سنة قدحا من خمر فان لم تفعل تبقى بك العلة فكنت أشربه نعوذ بالله
من سخطه الذى لا طاقة لنا به ثم أذكر حال رجلين آخرين أحدهما ما حكى عن عبد الله بن المبارك
رحمه الله تعالى انه لما احتضر نظر الى السماء فضحك وقال لمثل هذا فليعمل العاملون وسمعت
امام الحرمين رضى الله عنه يحكى عن الاستاذ أبى بكر رحمه الله انه قال كان لى صاحب أيام التعليم
وكان مبتديا كثير الجهد فى التعلم فقام متعبدا وكان لا يحصل له مع الاجتهاد الا القليل فكنا
نتعجب من حاله فرض فلازم مكانه بين الاولياء فى الرباط ولم يدخل الى بيت المرضى وكان يجتهد مع
مرضه فاشتد به الحال وأنا الى جانبه فبينما هو كذلك اذ شخص ببصره الى السماء ثم قال لى يا ابن فورك
لمثل هذا فليعمل العاملون وتوفى عند ذلك رحمة الله عليه وأما الآخر فهو ما روى عن مالك بن
دينار رحمه الله انه دخل على جار له محتضر فقال له يا مالك جبلان من نار بين يدى أكلف الصعود
عليهما قال فسألت أهله فقالوا كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فدعوت بهما
فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ثم سألت الرجل فقال ما يزداد الامر على الا عظما
(وأما القبر) والحال بعد الموت فأذكر فيه حال رجلين أحدهما ما ذكر عن بعض الصالحين قال
رأيت سفيان الثورى فى النوم بعد موته فقلت كيف حالك يا أبا عبد الله فأعرض عنى وقال ليس

هذا زمان الكنى فقلت كيف حالك ياسنبان فأنشأ يقول

تطلعت الى ربى عيانا فقال لى ✻ هنيأ رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواما اذا الليل قد دجا ✻ بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر تريده ✻ وزرنى فانى عنك غير بعيد

والرجل الثانى ماذكر ان بعضهم رؤى فى النوم شاحب اللون مغلولة يداه الى عنقه فقيل له مافعل الله بك فأنشأ يقول

تولى زمان لهو بالبه ✻ وهذا زمان بنا يلعب

وحال رجلين آخرين أحدهما ماروى عن بعض الصالحين انه قال كان لى ابن استشهد ولم أره فى المنام الى ليلة توفى فيها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اذ رأيته تلك الليلة فقلت يابنى ألم تكن ميتا فقال لا ولكنى استشهدت وأنا حى عند الله تعالى ارزق فقلت ماجاء بك قال نودى فى أهل السماء ألا لايبقى نبى ولا صديق ولا شهيد الا وحضر الصلاة على عمر بن عبد العزيز فجئت لأشهد الصلاة عليه ثم جئتكم لأسلم عليكم والآخر ماروى عن هشام بن حسان أنه قال مات لى ابن حدث فرأيته فى النوم فاذا هو أشيب فقلت يابنى ماهذا الشيب قال لما قدم علينا فلان نفرت جهنم لقدومه نفرة لم يبق منا أحد الا شاب نعوذ بالله الرحيم من العذاب الاليم (وأما القيامة) فتأمل قول الله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فواحد يخرج من قبره فاذا البرق على رأس القبر والتاج والحلل فيلبس ويركب الى جنات النعيم لايخلى من عزته أن يمشى الى الجنة برجليه وآخر يخرج من قبره فاذا الزبانية والاغلال والانكال لايخلون الشقى يمشى الى النار برجليه بل يسحب به الى سواء الجحيم على وجهه نعوذ بالله من سخطه ولقد سمعت بعض العلماء يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا كان يوم القيامة يخرج قوم من قبورهم اوهم نجب يركبونها لها أجنحة خضر فتطير بهم فى عرصات القيامة حتى اذا أتوا على حيطان الجنة فاذا رأتهم الملائكة قال بعضهم لبعض من هؤلاء فيقولون مانرى لهاهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيأتيهم بعض الملائكة فيقول من أنتم ومن أى الامم أنتم فيقولون نحن من امة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول لهم الملائكة هل حوسبتم فيقولون لا فتقول الملائكة هل وزنتم فيقولون لا فتقول الملائكة هل قرأتم كتبكم فيقولون لا فتقول الملائكة ارجعوا فكل ذلك وراءكم فيقولون هل أعطيتمونا شيأ فنحاسب عليه وفى خبر آخر ماملكنا شيأ فنعدل أو نجور ولكن عبدنا ربنا حتى دعانا فاجبناه فينادى منادصدق عبادى ماعلى المحسنين من سبيل والله غفور رحيم أما تسمع قوله تعالى أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة فأعظم برجل يشاهد تلك الاهوال والزلازل والوقائع وهو آمن لايدخل قلبه فزع ولا يكون على قلبه ثقل نسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياكم من أولئك السعداء وذلك على الله جل جلاله بعزيز (وأما الجنة والنار) فتأمل فيهما آيتين من كتاب الله تعالى احداهما قوله تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا وقال تعالى حكاية عن آخرين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال اخسؤا فيها ولا تكلمون وروى انهم يصيرون عند ذلك كالبايعاروين فى النار نعوذ بالله الرؤف الرحيم من عذابه الاليم فان الامر كما قال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله

يقول لى ياعاذ انى محدثك بحديث ان أنت حفظته نفعك عند الله وان أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة ياعاذ ان الله تبارك وتعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والارض فجعل لكل سماء من السبع ملكا بوابا عليها فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح الى حين أمسى له نور كنور الشمس حتى اذا طلعت به الى سماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرنى ربى أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزنى الى غيرى قال ثم تأتى الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به الى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه أراد بعمله عرض الدنيا أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى الى غيرى انه كان يغتر على الناس فى مجالسهم أنا ملك الفخر فيقال وتصعد الحفظة بعمل العبد يتهيج نورا من صدقة وصلاة

لا ندري أي المصيبتين أعظم فوت الجنان أم دخول النيران أما الجنة فلا صبر عنها وأما النار فلا صبر عليها وعلى كل حال ففوت النعيم أيسر من مقاساة الجحيم ثم الطامة الكبرى والمصيبة العظمى هي الخلود اذ لو كان الامر على كل حال منقطعا لكان هينا ولكن الشأن في أبد بلا آخر فأي قلب يحتمل ذلك وأي نفس تصبر على ذلك ولذلك قال عيسى عليه السلام ذكر خلود الخالدين يقطع قلوب الخائفين وذكر عند الحسن أن آخر من يخرج من النار رجل يقال له هناد عذب ألف عام ينادي يا حنان يا منان فبكى الحسن وقال يا ليتني كنت هنادا فتعجبوا منه فقال ويحكم أليس يوما يخرج (قلت) فرجع الامر كله اذن الى أصل واحد وهي النكتة التي تقصم الظهور وتصفر الوجوه وتذيب الاكباد وتقطع القلوب وتدمي العيون من العباد وهي خوف نزع المعرفة فهذه الغاية التي ينتهي اليها خوف الخائفين وتبكي عليها أعين الباكين ولقد قال بعضهم ان الغموم ثلاثة غم الطاعة ان لا تقبل وغم المعصية أن لا تغفر وغم المعرفة ان تسلب وقال المخلصون بل الهم كله واحد بالحقيقة وهو غم سلب المعرفة وكل غم دونه جلل اذ له انقضاء ولقد بلغنا عن يوسف بن اسباط رحمه الله تعالى انه قال دخلت على سفيان رحمه الله تعالى فبكى ليلة أجمع فقلت بكاؤك لهذا على الذنوب قال فمهما بنا وقال الذنوب أهون على الله من هذا انما أخشى أن يسلبني الله الاسلام نسأل الله ربنا المنان سبحانه أن لا يبتلينا بمصيبة وأن يتم علينا بفضله كثير نعمته وأن يتوفانا على ملة الاسلام انه أرحم الراحمين وقد ذكرنا سبب سوء الخاتمة ومعناها في كتاب احياء علوم الدين فتأمله هنالك فان الخوض فيه ههنا خروج الى الاكثار فتأمل هذه الجملة راشدا فان التفصيل أكثر مما يأتي عليه الوهم والذكر لعلك تفلح بعون الله وحسن توفيقه (فان قلت) فاي الطريقين أسلك طريق الخوف أو طريق الرجاء (يقال لك) بل المركب بينهما فلقد قيل من غلب عليه الرجاء صار مرجئا بل ربما يخاف عليه أن يصير حروريا ومن غلب عليه الخوف صار حروريا والمراد أن لا يتفرد بأحدهما دون الآخر فان بالحقيقة الرجاء الحقيقي لا ينفك عن الخوف الحقيقي والخوف الحقيقي لا ينفك عن الرجاء الحقيقي ولذلك قيل الرجاء كله لاهل الخوف لا الامن والخوف كله لاهل الرجاء لا اليأس (فان قلت) فهل يكون أحدهما أرجح من الآخر أو أكثر ذكرا بحال فاعلم ان العبد اذا كان صحيحا قويا فالخوف أولى به واذا مرض وضعف لاسيما اذا أشرف على الآخرة فالرجاء أولى كذا سمعت العلماء يقولون قلت وذلك لما روى ان الله سبحانه وتعالى يقول أنا عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي فيصير رجاؤه أولى في ذلك الوقت لانكسار قلبه وخوفه المتقدم زمان الصحة والقوة والامكان ولذلك يقال لهم ألا تخافوا ولا تحزنوا (فان قلت) أليس قد جاءت الاخبار الكثيرة في حسن الظن بالله والترغيب في ذلك فاعلم ان من حسن الظن بالله تعالى الحذر من معصيته والخوف من عقابه والاجتهاد في خدمته واعلم ان ههنا أصلا أصيلا ونكتة عزيزة يغلط فيها الكثير من الناس وهو ان الفرق بين الرجاء والامنية ان الرجاء يكون على أصل والتمني لا يكون على أصل مثاله من زرع زرعا واجتهد وجمع بيدرا ثم يقول ارجو أن يحصل لي منه مائة قفيز فذلك منه رجاء وآخر لا يزرع زرعا ولا يعمل عملا فذهب ونام وأغفل سقيه فاذا جاء وقت الحصاد يقول أرجو أن يحصل لي منه مائة قفيز فيقال له من أين لك هذا الرجاء وانما ذلك أمنية بلا أصل فكذلك العبد اذا اجتهد في عبادة

وصيام قد أعجب الحفظة فيجاوزون به الى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري انه كان يتكبر على الناس في مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهو كما يزهو الكوكب الدري له دوي من تسبيح وصلاة وصيام وحج وعمرة حتى يجاوزون به الى السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وظهره وبطنه أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري انه كان اذا عمل عملا أدخل العجب فيه قال وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزون الى السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة الى بعلها فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه واجعلوه على عاتقه أنا ملك الحسد انه كان يحسد من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا على العباد كان

الله وانتهى عن معصية الله تعالى يقول أرجو أن يتقبل الله مني هذا اليسير ويتم هذا التقصير ويعظم هذا الثواب ويعفو عن الزلل وأحسن الظن فهذا منه رجاء (وأما) اذا غفل عن ذلك وترك الطاعات وارتكب المعاصي ولم يبال بسخط الله تعالى ولا رضاه ولا وعده ووعيده ثم أخذ يقول أرجو من الله الجنة والنجاة من النار فذلك منه أمنية لا حاصل تحتها سماها رجاء وحسن ظن وذلك منه خطأ وضلال وقد نظم المعنى القائل

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليبس

(قلت) ومما يبين هذا الاصل ما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل الاماني وفي ذلك قال الحسن البصري رحمه الله ان أقواما ألهتهم اماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا مفاليس وليست لهم حسنة فيقول أحدهم اني أحسن الظن بربي وكذب لو أحسن الظن به لاحسن العمل له ثم تلا قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا الآية وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين وعن جعفر الضبعي رحمه الله انه قال قال رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد قلت يرحمك الله ان رحمة الله واسعة فغضب وقال هل رأيت مني ما يدل على القنوط ان رحمة الله قريب من المحسنين قال جعفر فأبكاني قوله فاذا كان كل الرسل والابدال والاولياء مع كل هذا الاجتهاد في الطاعة والحذر عن المعصية مرتبطين بأيش تقول أما كان لهم حسن ظن بالله بلى فانهم كانوا أعلم بسعة رحمته وأحسن ظنا بجوده منك ولكن علموا ان ذلك دون الاجتهاد امنية وغرور فاعتبر بهذه النكتة وتأمل حالهم وانتبه من رقدتك والله تعالى ولي التوفيق

(فصل)

وجملة الامر انك اذا تذكرت سعة رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه ووسعت كل شئ ثم أن كنت من هذه الامة المرحومة المكرمة على الله تعالى ثم غاية فضله العظيم وكمال جوده القديم وجعل عنوان كتابه اليك بسم الله الرحمن الرحيم ثم كثرة أياديه اليك ونعمته عليك ظاهرة وباطنة من غير شفيع أو قدم سابقة لك وتذكرت من جانب آخر كمال جلاله وعظمته وعظم سلطانه وهيبته ثم شدة غضبه الذي لا تقوم له السموات والارض ثم غاية غفلتك وكثرة ذنوبك وعقوبتك مع دقة أمره وخطر معاملته في احاطة علمه وبصره بالعيوب والغيوب ثم حسن وعده وثوابه الذي لا يبلغ كنهه الاوهام وشدة وعيده وأليم عقابه الذي لا يحتمل ذكره القلوب تارة تنظر الى فضله وتارة تنظر الى عذابه وتارة تنظر الى رأفته ورحمته وتارة تنظر الى نفسك في جفواتها وجناياتها فاذا فعلت أدنى بل جميع ذلك الى الخوف والرجاء وكنت قد سلكت السبيل الشارع القصد وعدلت عن الجانبين المهلكين الامن واليأس ولا تتيه فيهما مع التائهين ولا تهلك مع الهالكين وشربت الشراب الممزوج العدل فلا تهلك ببرودة الرجاء الصرف ولا بحرارة الخوف الصرف وكأني بك قد وصلت الى المقصود غانما وشفيت من العلتين سالما ووجدت النفس قد انبعثت للطاعة ودانت في الخدمة ليلا ونهارا من غير فترة ولا غفلة واجتنبت المعاصي والمخازي وهجرتها هجرة (كما قال نوف البكالي) ان نوفا اذا ذكر الجنة طال شوقه واذا ذكر النار طار نومه وصرت حينئذ

يحسنهم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري قال وتصعد الملفظة بعمل العبد له ضوء كضوء القمر من صلاة وزكاة وحج وعمرة وجهاد وصيام فيجاوزون به الى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه كان لا يرحم انسانا قط من عباد الله أصابه بلاء أو مرض بل كان يشمت بهم أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري قال وتصعد الملفظة بعمل العبد من صلاة وصيام ونفقة وجهاد وورع له دوي كدوي النحل وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به الى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واضربوا به جوارحه واقفلوا على قلبه أنا أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به ربي انما أراد بعمله غير الله تعالى انه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكرا

من الاصفياء الخواص العابدين الذى وصفهم الله تعالى بقوله انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين وكنت قد خلفت هذه العقبة الخطيرة وراءك باذن الله تعالى وحسن توفيقه فكم لك من حلاوة ومسرة فى الدنيا وكم لك من ذخر كريم وأجر عظيم فى العقبى والله سبحانه وتعالى مسؤل ان يمدك وايانا بحسن توفيقه وتسديده انه أرحم الراحمين وأجود الاجودين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

(الباب السادس فى العقبة السادسة وهى عقبة القوادح)

ثم عليك يا أخى أيدك الله وايانا بحسن توفيقه بعد ما استبان لك السبيل واستقام لك المسير بتمييز عملك وصيانته عما يفسده ويضيعه عليك وانما لزمك ذلك باقامة الاخلاص وذكر المنة والاجتناب عن ضده لامرين (أحدهما) لما فى فعله من الفائدة وهى حسن القبول من الله تعالى وفوز الثواب عليه والا فتكون مردودا ذاهب الثواب كلا أو بعضا على ما روى فى الحديث المشهور عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه يقول أنا أغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا فأشرك فيه غيرى فنصيبى له فانى لا أقبل الا ما كان لى خالصا (وقيل) ان الله تعالى يقول لعبده يوم القيامة اذا اقتص ثواب عمله ألم يوسع لك فى المجالس ألم تكن المرؤس فى الدنيا ألم يرخص بعملك وشرائك ألم تكرم هذا وأشباهه من الخطر والضرر (قلت) ومن خطر الرياء فضيحتان ومصيبتان (أما) الفضيحتان فاحداهما فضيحة السر وهى اللوم على رؤس الملائكة وذلك لما روى ان الملائكة تصعد بعمل العبد مبتهجين به فيقول الله تعالى ردوه الى سجين فانه لم يرد فى به فيقتضح ذلك العمل والعبد عند الملائكة والثانية فضيحة العلانية وهى يوم القيامة على رؤس الخلائق روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة اسماء يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر ضل سعيك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم التمس الاجر ممن كنت تعمل له يا ماكر يا خادع وروى انه ينادى منادى يوم القيامة يسمع الخلائق أين الذين كانوا يعبدون الناس قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له فانى لا أقبل عملا خالطه شئ (واما) المصيبتان فاحداهما فوت الجنة وذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الجنة تكلمت وقالت أنا حرام على كل بخيل ومراء والخبر يحتمل معنيين أحدهما ان هذا البخيل من يبخل بأحسن قول وهو قول لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا المرائى من يرائى بأقبح رياء وهو المنافق الذى يرائى بايمانه وتوحيده وفى هذا القول ترجيحة والمعنى الثانى ان من لم ينته عن البخل والرياء ولم يراع نفسه ففيه خطران أحدهما أن يلحقه شؤم ذلك فيقع فى الكفر فتحرم عليه الجنة رأسا والعياذ بالله والآخر سلب الايمان الذى يستحق به النار نعوذ بالله من سخطه وشديد غضبه (والمصيبة الثانية) دخول النار وذلك لما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أول من يدعى يوم القيامة رجل قد جمع القرآن ورجل قد قاتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله تعالى للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى فيقول بلى يا رب فيقول ماذا عملت فيما علمت فيقول يا رب قمت به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت فيقول الله سبحانه بل أردت ان يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج الى أحد فيقول بلى يا رب فيقول فماذا عملت فيما آتيتك

عند العلماء وصيانة المدائن أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى الى غيرى وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائى قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السبع السموات حتى يقطعوا الحجب كلها الى الله تعالى فيقفون بين يديه يشهدون له بالعمل الصالح الخالص لله تعالى فيقول الله تعالى أنتم الحفظة على عمل عبدى وأنا الرقيب على قلبه انه لم يرد بى بهذا العمل وأراد به غيرى فعليه لعنتى فتقول الملائكة كلها عليه لعنتك ولعنتنا والعنه السبع السموات ومن فيهن فيبكى معاذ فقال معاذ قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ فكيف لى بالاخلاص والنجاة قال اقتد بى وان كان فى عملك نقص يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة فى اخوانك من حملة القرآن

فيقول كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت فيقول الله سبحانه بل أردت أن يقال انك جواد فقد قيل ذلك ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله ما فعلت فيقول أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت ان يقال فلان جرى وشجاع فقد قيل ذلك قال ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على ركبتى وقال يا أبا هريرة أولئك أول خلق الله تسعر بهم نار جهنم وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان النار وأهلها يعجون من أهل الرياء قيل يا رسول الله وكيف تعج النار قال من حر النار التى يعذبون بها وفى هذه الفضائح عبرة لأولى الابصار والله سبحانه ولى الهداية بفضله (فان قلت) فأخبرنا عن حقيقة الاخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما فى العمل فاعلم ان الاخلاص عند علمائنا اخلاصان اخلاص العمل واخلاص طلب الاجر (فاما) اخلاص العمل فهو ارادة التقرب الى الله عز وجل وتعظيم أمره واجابة دعوته والباعث عليه الاعتقاد الصحيح وضد هذا الاخلاص النفاق وهو التقرب الى ما دون الله سبحانه وقال شيخنا رحمه الله النفاق هو الاعتقاد الفاسد الذى هو للمنافق فى الله عز وجل وليس هو من قبيل الارادات لما قد ذكرناها فى موضعها (واما) الاخلاص فى طلب الاجر فهو ارادة نفع الآخرة بعمل الخير وكان شيخنا رحمه الله يقول انه ارادة نفع الآخرة بخير لم يرد ذكره يتعذر عليه خيره بحيث ترجى به تلك المنفعة وقد شرحنا هذه الشرائط وقال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام ما الخالص من الاعمال قال الذى يعمل لله لا يحب ان يحمده عليه أحد وهذا تعريض لترك الرياء وانما خصه بالذكر لانه أقوى الاسباب المشوشة للاخلاص وقال الجنيد الاخلاص نسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والاقاويل فى هذا كثيرة فلا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقائق وقد قال سيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم انه سئل عن الاخلاص فقال تقول ربى الله تعالى ثم تستقيم كما أمرت أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد الا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت وهذه اشارة الى قطع كل ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا وضد الاخلاص الرياء وهو ارادة نفع الدنيا بعمل الآخرة ثم الرياء ضربان رياء محض ورياء مخلط فالمحض أن تريد به نفع الدنيا لا غير والمخلط أن تريدهما جميعا نفع الدنيا ونفع الآخرة هذا حدهما وأما تأثيرهما فان اخلاص العمل ان تجعل الفعل قربة وانما اخلاص طلب الاجر أن تجعل له مقبولا وافر الاجر والتعظيم والنفاق يحبط العمل ويخرجه عن كونه قربة مستحقا عليه الثواب بالوعد من الله تعالى فالرياء المحض لا يكون من العارف عند بعض العلماء وان كان أبطل نصف الثواب وعند آخرين قد يكون الرياء المحض من العارف وانه يذهب نصف الاضعاف والمخلط يذهب ربع الاضعاف والصحيح عند شيخنا رحمه الله ان الرياء المحض لا يكون من العارف عند تذكر الآخرة ويكون مع السهو والمختار ان من تأثير الرياء رفع القبول والنقصان فى الثواب ولا تقدير له بنصف ولا ربع وشرح هذه المسائل يطول وقد شرحناها فى كتاب احياء علوم الدين شرحا مستقصى وأشبعنا القول فى أسرارها وعلامات الدين (فان قلت) فما موضع الاخلاص وفى أى طاعة يقع ويجب فاعلم أن الاعمال عند بعض العلماء ثلاثة أقسام قسم يقع فيه

واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تزل نفسك وتذمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا فى عمل الآخرة ولا تتكبر فى مجلسك لكى يحذر الناس من سوء خلقك ولا تناج رجلا وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فتقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة ولا تفرق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة فى النار قال الله تعالى والناشطات نشطا هل تدرى ما هن يا معاذ قلت ما هن بأبى أنت وأمى يا رسول الله قال كلاب فى النار تنشط اللحم من العظم قلت بأبى وأمى أنت يا رسول الله من يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها قال يا معاذ انه ليسير على من يسره الله عليه قال خالد بن معدان فما رأيت أحدا أكثر تلاوة للقرآن العظيم من معاذ لهذا الحديث العظيم فتأمل أيها الراغب فى العلم هذه الخصال واعلم ان أعظم الاسباب فى رسوخ هذه الخبائث فى

الاخلاص جميعا وهو العبادة الظاهرة الاصلية وقسم لا يقع فيه شئ منهما وهو العبادة الباطنة الاصلية وقسم يقع فيه اخلاص طلب الاجر دون اخلاص العمل وهو المباحات المأخوذة للعدة قال شيخنا رحمه الله ان كل عمل يحتمل الصرف الى غير الله تعالى من العبادات الاصلية يقع فيها اخلاص العمل فالعبادات الباطنة أكثرها يقع فيه اخلاص العمل (واما) اخلاص طلب الاجر قال مشايخ الكرامية لا يقع فى العبادات الباطنة اذ لا يطلع عليها أحد الا الله سبحانه فامتنع فيها دواعى الرياء فلم يحتج الى اخلاص طلب الاجر وكان شيخنا رحمه الله يقول اذا أراد العبد المتقرب من الله بالعبادات الباطنة نفع الدنيا فهو أيضا رياء (قلت أنا) ولا يبعد ان يقع فى كثير من العبادات الباطنة الاخلاصان وكذلك النوافل يجب فيها الاخلاصان جميعا عند الشروع واما المباحات المأخوذة للعدة فانما يقع فيها اخلاص طلب الاجر دون اخلاص العمل اذ هى لا تصلح ان تكون بنفسها قربة بل هى عدة على القربة (فان قلت) هذا موضعهما فبين لنا وقتهما من العمل فاعلم ان اخلاص العمل مع الفعل يقارنه لا محالة ولا يتأخر عنه وأما اخلاص طلب الاجر ربما يتأخر عنه وعند بعض العلماء يعتبرون فيه وقت الفراغ من العمل فاذا فرغ على اخلاص أو رياء فقد انقضى الامر ولا يمكنه استدراكه بعد وعند غيرنا من مشايخ الكرامية ما لم ينل المنفعة المطلوبة بالرياء يمكنه اقامة الاخلاص فى ذلك العمل فاذا نال المطلوب فقد فات وقال بعض العلماء ان الفريضة يمكن اقامة الاخلاص فيها الى الموت (واما) النوافل فلا سبيل الى ذلك قال والفرق بينهما ان الله تعالى أدخل العبد فى الفريضة فأمره ان منه التفضل والتيسير فيها واما النفل فالعبد الذى أدخل نفسه فيه وتكلفه فطالب بحق ما تكلف (قلت) أنا وفى المسألة فائدة وهى ان من سبق منه الرياء أو ترك الاخلاص فى عمل فيمكنه استدراك ذلك وتلافيه على أحد الوجوه التى ذكرناها قبل والمقصود من نقل مذاهب الناس فى هذه الدقائق علمنا الآن بقلة العاملين وقلة الرغبة فى سلوك هذا الطريق والتقريب على المبتدى فى العبادة فان لم يجد لعلته دواء فى هذا القول يجده فى الآخر لاختلاف الامراض والاغراض وعلل الاعمال وآفاتها فافهم راشدا ان شاء الله تعالى (فان قلت) أكل عمل يحتاج الى اخلاص مفرد فاعلم انه قد اختلفوا فى ذلك فقيل انه يجب لكل عمل اخلاص مفرد وقيل انه يجوز تناول اخلاص واحد بجملة من العبادات اما العمل ذو الاركان كالصلاة والوضوء يكفيهما اخلاص واحد لان بعضها متعلق ببعض صلاحا وفسادا فصارت كشئ واحد (فان قلت) ان أراد بعمله الخير تقربا من الله تعالى ولا يريد من الناس شيأ من مدحة أو سمعة أو منفعة أيكون ذلك رياء (فاعلم) ان ذلك محض الرياء قال علماؤنا رحمهم الله الاعتبار فى الرياء بالمراد لا بالذى يريد منه فان كان مرادك من عمل الخير تنعما دنيويا فانه رياء سواء اردته من الله أو من الناس قال الله تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب وليس الاعتبار بلفظة الرياء واشتقاقها من معنى الرؤية وانما سميت هذه الارادة الفاسدة بهذا الاسم لانها أكثر ما تقع وتكون من قبل الناس ورؤيتهم فافهم (فان قلت) اذا كان القصد من الدنيا التى تريدها من الله التعفف عن الناس والعدة على عبادة الله يكون ذلك رياء فاعلم ان التعفف ليس فى كثرة المال والجاه والحطام وانما هو فى القناعة

القلب طلب العلم لاجل المباهاة والمناقشة فالعالم يعزل عن أكثر هذه الخصال والمتفقه مستهدف لها وهو معرض للهلاك بسببها فانظر أى أمورك أهم ان تتعلم كيفية الحذر من هذه المهلكات وتشتغل باصلاح قلبك وعمارة آخرتك أم الاهم أن تخوض مع الخائضين فتطلب من العلم ما هو سبب زيادة الكبر والرياء والحسد والعجب حتى تهلك مع الهالكين * واعلم ان هذه الخصال الثلاث من أمهات خبائث القلب ولها مغرس واحد وهو حب الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة ومع هذا فالدنيا مزرعة للآخرة فمن أخذ من الدنيا بقدر الضرورة يستعين به على الآخرة فالدنيا مزرعته ومن أراد الدنيا لتتنعم بها فالدنيا مهلكته فهذه نبذة يسيرة من ظاهر علم التقوى وهى بداية

والثقة بكفاية الله سبحانه (واما) العدة على عبادة الله تعالى فاذا كان مراده ذلك فلا يكون رياء وذلك مما يتصل بأمر الآخرة واسبابها ويصرف قصده قطعا لذلك فان أريد بعمل الخير هذا النوع لا تكون تلك الارادة رياء لان هذه الامور تصير تلك النية خيرا أو تصير في حكم أعمال الآخرة ولا يكون ارادة الخير رياء وكذلك ان أردت ان يكون لك تعظيم عند الناس أو محبة عند المشايخ والائمة ويكون قصدك من ذلك التمكن من تأييد مذهب أهل الحق أو الرد على أهل البدع أو النشر للعلم أو حض الناس على العبادة ونحو ذلك دون أن تقصد بذلك شرف نفسك من حيث هي أو دنيا تنالها فان هذه كلها ارادة سديدة ونيات محمودة لا يدخل شئ منها في باب الرياء اذ المقصود منها أمر الآخرة بالحقيقة واعلم أني سألت بعض مشايخنا عما يعتاده أولياؤنا من قراءة سورة الواقعة في أيام العسرة أليس المراد بذلك أن يدفع الله تلك الشدة عنهم ويوسع عليهم شيأ من الدنيا على ما جرت به العادة فكيف تصح ارادة متاع الدنيا بعمل الآخرة فقال في جوابه رحمه الله كلاما معناه ان المراد منهم أن يرزقهم الله قناعة أو قوتا يكون لهم عدة على عبادة الله وقوة على درس العلم وهذه من جملة ارادات المريدون الدنيا واعلم أن هذه السورة أعني قراءة هذه السورة عند الشدة في أمر الرزق والخصاصة انما هو شئ وردت به الاخبار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حتى ان ابن مسعود حين عرتب في أمر ولده اذ لم يترك لهم من الدنيا شيأ قال لقد خلفت لهم سورة الواقعة ومن ذلك الاصل في السنة جرت هذه الخصلة في سير علمائنا رحمهم الله والافلا مبالاة لهم بحمد الله تعالى بشدة في أمر الدنيا أو سعة وهم الذين يغتمون ضيق الدنيا وعسرها ويتغالون في ذلك فيما بينهم ويعدونه من الله تعالى منة عظيمة ويخافون اذا بدا لهم من الله سعة من الدنيا التي لا يعدها أكثر الناس الا الاحسان والنعمة أن يكون ذلك استدراجا من الله تعالى ومصيبة كيف وبطانتهم الاشرار والطمع في عموم الاحوال ومقدموهم يقولون الجوع رأس مالنا فهذا وضع مذهب أهل التصوف وهو مذهبي ومذهب أشياخي وبذلك جرت سيرة سلفنا وأما تصرف بعض المتأخرين فلا يعتبر به وانما ذكرنا هذا الفصل لئلا يغمز فيهم مخالف جهلا منه بمقاصد القوم في أمورهم أو يغلط فيهم مبتدئ سليم الصدر لم يأخذ من العلم حقه (فان قيل) كيف يليق هذا بحال أهل العلم والتجرد والزهد وأدب باب الصبر والرياضة فاعلم أن هذا شئ ماخوذ من السنة ثم المقصود حصول القناعة والعدة لا اتباع الشره والشهوة والضعف عن احتمال العسرة والشدة وأكثر ما تراه في عقب ذلك قناعة القلب وفقد كلب الجوع وضعفه وسلوة عن الطعام وهمته وقد علم ذلك من امتحنه فاعلم هذه الجملة موفقا ان شاء الله تعالى (القادح الثاني) العجب وانما يلزمنا اجتنابه لامرين أحدهما أنه يحجب عن التوفيق والتأييد من الله تعالى فان المعجب مخذول فاذا انقطع عن العبد التأييد والتوفيق من الله تعالى فما أسرع ما يهلك ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه والثاني انه يفسد العمل الصالح ولذلك قال المسيح عليه السلام يا معشر الحواريين كم من سراج قد أطفأته الريح وكم من عابد قد أفسده العجب واذا كان المقصود والفائدة العبادة وهذه الخصلة تحرم العبد حتى لا يحصل له شئ فان حصل له شئ قليل من ذلك يفسده حتى لا يبقى بيده شئ فحقيق ان يحذر من ذلك ويتحفظ والله تعالى ولي التوفيق والعصمة

الهداية فان جربت نفسك فيها وطاوعتك عليها فعليك بكتاب احياء علوم الدين لتعرف كيفية الوصول الى باطن التقوى فاذا عمرت بالتقوى باطن قلبك فعند ذلك ترتفع الحجب بينك وبين ربك وتنكشف لك أنوار المعارف وتتفجر من قلبك ينابيع الحكمة وتتضح لك اسرار الملك والملكوت ويتيسر لك من العلوم ما تستحقر به هذه العلوم المحدثة التي لم يكن لها ذكر في زمن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وان كنت تطلب العلم من القيل والقال والمراء والجدال فما أعظم مصيبتك وما أطول تعبك وما أعظم حرمانك وخسرانك فاعمل ما شئت فان الدنيا التي تطلبها بالدين لا تسلم لك والآخرة تسلب منك ومن طلب الدنيا بالدين خسر هما جميعا ومن ترك الدنيا للدين ربحهما جميعا فهذه جمل الهداية الى بداية الطريق في معاملتك مع الله

(فان قيل) فما حقيقة العجب وما معناه وما تأثيره وحكمه فبين لنا ذلك فاعلم ان حقيقة العجب استعظام العمل الصالح وتفصيل عند علمائنا رحمهم الله ذكر العبد حصول شرف العمل الصالح بشيء دون الله عز وجل أو الناس أو النفس قالوا وقد يكون العجب متلفا بأن يذكر ذلك من هذه الثلاثة جميعا النفس والخلق والشيء ومتى بأن يذكر من اثنين وموحدا بان يذكر من واحد وضد العجب ذكر المنة وهو أن يذكر أنه بتوفيق الله سبحانه وأنه الذي شرفه وعظم ثوابه وقدره وهذا الذكر فرض عند دواعي العجب نفل في سائر الاوقات (واما) تأثير العجب في العمل فقال بعض علمائنا المعجب ينتظر الاحباط فان تاب قبل موته سلم والا أحبط واليه ذهب محمد بن صابر من شيوخ الكرامية والاحباط عنده أن يذهب عن العمل جميع الاسماء الحسنة حتى لا يستحق بذلك ثوابا ولا مدحة البتة وفي قول غيره هو ذهاب الاضعاف لا غير (فان قلت) كيف يلتبس على العبد العارف أن الله تعالى هو الذي وفق للعمل الصالح وعظم قدره وأكثر ثوابه بفضله ومنه فاعلم ان ههنا نكتة لطيفة وذخيرة شريفة وهو ان الناس في العجب ثلاثة أصناف صنفهم المعجبون بكل حال وهم المعتزلة والقدرية الذين لا يرون لله عليهم منة في أفعالهم ويذكرون العون والتوفيق الخاص واللطف وذلك اشبهة استولت عليهم وصنفهم الذاكرون لله المنة بكل حال وهم المستقيمون لا يعجبون بشيء من الاعمال وذلك لبصيرة أكرموا بها وتأييد خصوا به والثالث وهم المخلطون وهم عامة أهل السنة تارة ينتبهون فيذكرون منة الله وتارة يغفلون فيعجبون بذلك لمكان الغفلة العارضة والفترة في الاجتهاد والنقص في البصيرة (فان قلت) كيف حال القدرية والمعتزلة في أفعالهم فاعلم أن في ذلك اختلافات فقيل انه محبط لمكان اعتقادهم (وقيل) لا يحبط عمل باعتقاد في الجملة من فرق الاسلام حتى يخص كل عمل باعجاب كما أن اعتقاد أهل السنة لا يمنع العجب في كل عمل حتى يخصه بذكر المنة (فان قيل) فهل سوى العجب والرياء من قادح في العمل قيل له أجل ان فيه لقوادح سواهما لكنا خصصناهما بالذكر لانهما الاصل الذي يدور عليهما معظم الابواب وقد قال بعض المشايخ ان حق العبد ان يحفظ في العمل من عشرة أشياء النفاق والرياء والتخليط والمن والاذى والندامة والعجب والحسرة والتهاون وخوف ملامة الناس ثم ذكر شيخنا رحمه الله ضد كل خصلة منها واضرارها بالعمل فضد النفاق اخلاص العمل وضد الرياء اخلاص طلب الاجر وضد التخليط التفريد وضد المن تسليم العمل الى الله وضد الاذى تحصين العمل وضد الندامة تثبيت النفس وضد العجب ذكر المنة وضد الحسرة اغتنام الخير وضد التهاون تعظيم التوفيق وضد خوف الملامة الخشية واعلم أن النفاق يحبط العمل والرياء يوجب رده والمن والاذى يحبطان الصدقة أصلا في الوقت وعند بعض المشايخ رحمهم الله يبطلان اضعافها (وأما) الندامة فانها تحبط العمل في قولهم جميعا والعجب يذهب اضعاف العمل والحسرة والتهاون وخوف الملامة تخنف العمل فتذهب زنته (قلت) فالقبول والرد عند أهل التحصيل يرجعان الى ضروب من التعظيم والاستخفاف والاحباط ابطال منافع تكون بالفعل وبسببه ثم تارة يكون بابطال الثواب وأخرى بابطال التضعيف والثواب منفعة يقتضيها الفعل بعينه وقرائنه وأحواله والتضعيف زيادة على هذا والزيادة زيادة تحصل بمقتضى قرائن وأحوال أخر كالاحسان الى أحد من أهل الخير ثم الى الوالدين ثم الى

تعالى بادائها وأوامره واجتناب نواهيه وأشرعليك الآن بجمل من الآداب لتؤاخذ بها نفسك في مخالطتك مع عباد الله تعالى ومجتمعك معهم في الدنيا

(القول في آداب الصحبة والمعاشرة مع الخلائق سبحانه وتعالى ومع الخلق)

اعلم ان صاحبك الذي لا يفارقك في حضرك وسفرك ونومك ويقظتك بل في حياتك وموتك هو ربك وسيدك ومولاك وخالقك ومهما ذكرته فهو جليسك اذ قال الله تعالى أنا جليس من ذكرني ومهما انكسر قلبك حزنا على تقصيرك في حق ربك فهو صاحبك وملازمك اذ قال الله تعالى أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي فلو عرفته حق معرفته لاتخذته صاحبا وتركت الناس جانبا فان لم تقدر على ذلك في جميع أوقاتك فاياك ان تخلي ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه لمولاك وتتلذذ معه بمناجاتك وعند ذلك

نجى من الانبياء ففى الشئ يكون رزانة ولا يكون تضعيف فهذا تهذيب ما تحققت فى هذه المعانى فاعلم ذلك وبالله التوفيق

(فصل)

فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة ذات المقاطع والمتالف فى غاية التحرز فان صاحب بضاعة الطاعات قد قطع كل تلك العقبات وتحمل تلك المشقات حتى حصلت له بضاعة من السيادة عزيزة شريفة فانه لا يخاف على بضاعته تلك الا فى هذه العقبة فان فيها مقاطع يحذر أن تسلب فيها بضاعته ومتالف يحذر ان يدوسها آفات تفسد عليه طاعته ثم أعظمها خطرا وأعمها وقوعا هذان القاطعان اللذان هما الرياء والعجب فلنذكر فى كل واحد منهما أصولا مقنعة نجرد بها لعلك تكفى مؤنتها باذن الله ان شاء الله (أما) الرياء فأذكر فيه أولا قول الله سبحانه الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما كان الله سبحانه يقول انى خلقت السموات والارض وما بينهما فى كل هذه الصنائع والبدائع وكشفت بنظرك لتعلم انى قادر عالم وأنت تصلى ركعتين مع ما فيهما من المعايب والتقصير فلا تكتفى بنظرى اليك وبعلمى بك وثنائى عليك وشكرى لك حتى تحب ان يعلم الخلق ليحمدوك بذلك أيكون ذلك وفاء أيكون ذلك عقلا برضاء أحد لنفسه ويحك افلا تعقل (الاصل الثانى) أن من كان له جوهر نفيس يمكنه ان يأخذ فى ثمنه ألف ألف دينار فباعه بفلس أليس يكون ذلك غبنا عظيما ورغبنا قطعيا ودليلا بينا على خسة الهمة وقصور العلم وضعف الرأى وركه العقل فما ينالك العبد بعمله من الخلق من مدحة وحطام بالاضافة الى رضا رب العالمين وشكره وثنائه وثوابه لاقل من فلس فى جنب ألف ألف دينار وأضعاف ذلك بل فى جنب الدنيا وما فيها وأكثر وأكبر ألا يكون من الخسران المبين أن تفوت نفسك تلك الكرامات العزيزة الشريفة بهذه الامور الحقيرة الدنية ثم ان كان ولا بد لك من هذه الهمة الخسيسة فاقصد أنت الآخرة تتبعك الدنيا بل اطلب الرب وحده يعطك الدارين اذ هو مالكهما جميعا وذلك قوله تعالى من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وقال عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى ليعطى الدنيا بعمل الآخرة ولا يعطى الآخرة بعمل الدنيا فاذا أنت أخلصت النية وجردت الهمة للآخرة حصلت لك الآخرة والدنيا جميعا وان أنت أردت الدنيا ذهبت عنك الآخرة فى الوقت وربما لا تنال فى الدنيا كما تريد وان نلتها فلا تبقى لك فتكون قد خسرت الدنيا والآخرة فتأمل أيها العاقل (الاصل الثالث أن) المخلوق الذى لاجله تعمل ورضاه تطلب لو علم انك تعمل لاجله لا بغضك ولسخط عليك واستهان بك واستخف بك فكيف يعمل الرجل العاقل العمل لاجل من لو علم به أنه يطلب رضاه لسخط عليه واهانه فاعمل يا مسكين لاجل من اذا عملت لاجله وقصدته بسعيك وطلبت رضاه بذلك أحبك وأعطاك وأكرمك حتى أرضاك وأغناك عن الكل وكفاك فهذه هذه فافطن لها ان كنت تعقل (الاصل الرابع) ان من حصل له سعى فما يمكن ان يكتسب به رضا أعظم ملك فى الدنيا فطلب به رضا كناس خسيس بين الناس فيكون ذلك دليلا على السفه ورداءة الرأى منه وسوء الحظ له ويقال لما حاجتك الى رضا هذا الكناس مع امكانك من رضا الملك فكيف وقد سخط الكناس عليك بسبب سخط الملك فقائك الكل فهذا حال المرائى فأى حاجة الى ارضاء مخلوق حقير

فعليك ان تتعلم آداب الصحبة مع الله تعالى (وآدابها) اطراق الرأس وغض الطرف وجمع الهم ودوام الصمت وسكون الجوارح ومبادرة الامر واجتناب النهى وقلة الاعتراض على القدر ودوام الذكر وملازمة الفكر وايثار الحق على الباطل والاياس عن الخلق والخضوع تحت الهيبة والانكسار تحت الحياء والسكون عن حيل الكسب ثقة بالضمان والتوكل على فضل الله معرفة بحسن الاختيار وهذا كله ينبغى أن يكون شعارك فى جميع ليلك ونهارك فانه آداب الصحبة مع صاحب لا يفارقك والخلق يفارقونك فى بعض أوقاتك وان كنت عالما فآداب العلم سبعة عشر الاحتمال ولزوم الحلم والجلوس بالهيبة على سمت الوقار مع اطراق الرأس وترك التكبر على جميع العباد الاعلى الظلمة زجرا لهم عن الظلم وايثار التواضع فى المحافل والمجالس وترك الهزل والدعابة والرفق بالمتعلم والتأنى بالمتعرف

ضعيف مهين وأنت متمكن من تحصيل رضوان الله رب العالمين الكافي عن الكل فان ضعفت الهمة وكلت البصيرة حتى طلبت رضا مخلوق لاعالة نفسيلك ان تجرد ارادتك وتخلص سعيك لله سبحانه فان القلوب والنواصي بيده فهو يميل اليك القلوب ويجمع لك النفوس ويشحن من حبك الصدور فتنال من ذلك ما لا تنال بجهدك وقصدك فان لم تفعل وقصدت بعملك رضا المخلوقين دونه سبحانه وتعالى فانه يصرف عنك القلوب وينفر عنك النفوس ويسخط عليك الخلق فيحصل لك بهذا الامر سخط الله وسخط الناس جميعا فياله من خسران وحرمان ولقد ذكر عن الحسن أنه قال كان رجل يقول والله لاعبدن الله عبادة أذكر بها وكان أول داخل المسجد وآخر خارج منه لا يراه أحد من الصلاة الا قائما يصلي وصائما لا يفطر ويجلس الى حلق الذكر فلبث كذا سبعة أشهر فكان لا يمر بقوم الا قالوا فعل الله بهذا المرائي وصنع فأقبل على نفسه باللوم وقال لها الى أراني في غير شيء لأجعلن عملي كله لله فلم يزد على عمله الذي كان يعمل قبل ذلك شيأ الا انه تغيرت نيته الى الخير فكان بعد ذلك يمر بالناس فيقولون رحم الله فلانا الآن قد أقبل على الخير ثم قرأ الحسن ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداقال يحبهم ويحببهم الى المؤمنين ولقد صدق القائل

يا مبتغي الحمد والثوابا * في عمل تبتغي محالا
قد خيب الله ذا رياء * وأبطل السعي والكلالا
من كان يرجو لقاء رب * اخلص من خوفه الفعالا
الخلد والنار في يديه * فراه يعطيك النوالا
والناس لا يملكون شيأ * فكيف راءيتهم ضلالا

وأما العجب فلنذكر فيه أصولا أحدها ان فعل العبد انما صارت له قيمة لما وقع من الله موقع الرضا والقبول والا فترى الاجير يعمل طول النهار بدرهمين والمارس يسهر طول الليل بدانقين وكذلك أصحاب الصناعات والحرف كل واحد يعمل في الليل والنهار فيكون قيمة ذلك دراهم معدودة فان صرفت الفعل الى الله تعالى فصمت لله تعالى يوما فيكون صومك ذلك اليوم لا قيمة له اذا رضيه وتقبله قال الله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وفي الخبر أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهذا يومك الذي قيمته درهمان مع احتمال ان تعب العظيم صار له كل هذه القيمة بتأخير غدائه الى عشاء ولوقت ليلة لله تعالى وأخلصته له كان قيامك لا قيمة له في الشرف والنفاسة قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون فهذا الذي قيمته دانقان أو درهمان صار له كل هذه القيمة والقدر بل لو صمت لله ساعة تصلي فيها ركعتين خفيفتين بل نفاقات فيه لا اله الا الله قال الله تعالى ومن يعمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب فهذا نفس من أنفاسك التي لا قيمة لها عند أهل الدنيا ولا عندك فكم تضيع أمثال ذلك في لاشيء وكم يمر عليك من الزمان بلا فائدة وصار له كل هذا القدر العظيم لما أنه وقع مرضيا لله تعالى فعظم قدره وكثرت قيمته بفضله فحق للعاقل اذن أن يرى حقارة عمله وقلة قدره من حيث هو وان لا يرى الا منة الله تعالى عليه فيما شرف من قدر عمله وأعظم من جزائه وان يحذر على

فعله

واصلاح البليد يحصل بالارشاد وترك الرد عليه وترك الانفة من قول لا أدري وصرف الهمة الى السائل عن فهم سؤاله وقبول الحجة والانقياد للحق بالرجوع اليه عن الهفوة ومنع المتعلم عن كل علم يضره وينجره من أن يريد بالعلم النافع غير وجه الله تعالى ومنع المتعلم عن أن يشتغل نفسه بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين وفرض عينه اصلاح ظاهره بباطنه بالتقوى ومؤاخذة نفسه أولا بالتقوى ليقتدي المتعلم أولا باعماله ويستفيد ثانيا من أقواله وان كنت متعلما فأدب المتعلم مع العالم ان يبدأ بالتحية والسلام وان يقل بين يديه الكلام ولا يتكلم ما لم يسأله استاذه ولا يسأل أولا ما لم يستأذن ولا يقول في معارضة قوله قال فلان بخلاف ما قلت ولا يشير عليه بخلاف رأيه فيرى انه أعلم بالصواب من استاذه ولا يشاور جليسه في مجلسه ولا يلتفت الى الجوانب بل يجلس مطرقا ساكتا متأدبا كأنه في الصلاة ولا يكثر عليه عند ملله واذا قام قام له ولا يتبعه بكلامه وسؤاله ولا يسأله في طريقه الى أن يبلغ الى منزله ولا

فعله من ان يقع على وجه لا يصلح لله ولا يقع منه موقع الرضا فتذهب عنه القيمة التي حصلت له ويعود الى ما كان في الاصل من الثمن الحقير من دراهم أو دوانق وأحقر وأخس من ذلك ومثاله أن العنقود من العنب والاضبارة من الريحان يكون قيمته في السوق دانقا فان أهداه واحد الى ملك مع خسته فوقع منه موقع الرضا يهب له على ذلك ألف دينار لما وقع منه موقع الرضا فصار ما قيمته حبة بألف دينار فاذا لم يرضه الملك ورده اليه رجع الى قيمته الخسيسة من حبة أو دانق فكذلك ما نحن فيه فتنبه وأبصر منة الله وصن فعلك عما يشينه عند الله عز وجل (والاصل الثاني) ما تعلم أن الملك في الدنيا اذا أجرى على أحد جراية من طعام أو شراب أو كسوة أو دراهم أو دنانير معدودة قانية فانه يستخدمه آناء الليل والنهار مع ما في ذلك من الذل والصغار ويقوم على رأسه حتى تحذر رجلاه وتسعى بين يديه اذا ركب وربما يحتاج ان يكون على بابه طول الليل حارسا وربما يبدو له عدو فيحتاج أن يقاتل عدوه فيبذل روحه التي لا خلاف عنها لاجله ويحتمل كل هذه الخدمة والكلفة والخطر والضرر لاجل تلك المذمة النكدة الحقيرة مع انها بالحقيقة من الله تعالى وانما هو بمنزلة سبب في ذلك فربك الذي خلقك ولم تك شيأ ثم ربالك فأحسن اليك التربية ثم أنعم عليك من النعم الظاهرة والباطنة في دينك ونفسك ودنياك ما لا يبلغ كنهها افهمك ووهمك قال عز من قائل وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها الآية ثم انك تصلي ركعتين مع ما فيهما من المعايب والآفات ومع ما وعد عليهما في المستقبل من حسن الثواب وضروب الكرامات حتى تستعظم ذلك وتعجب به فليس ذلك من شأن عاقل اذا نظر فهذه هذه (والاصل الثالث) أن الملك الذي من شأنه ان يخدمه الملوك والامراء ويقوم على رأسه السادات والعظماء ويتولى خدمته الالباء والحكماء ويطلب مدحته العقلاء والعلماء ويمشي بين يديه الاكابر والرؤساء اذا أذن لسوقي أو قروي بمقتضى رأفة وعناية له في بابه حتى فاسم أولئك الملوك والسادات والاكابر والافاضل في خدمته ومدحته وجعل له مقاما من حضرته معلوما ونظر الى خدمته بعين الرضا وان كانت مشوشة معيبة أليس يقال له لقد كبرت على هذا الحقير المنة من الملك وعظمت عنايته به فان أخذ هذا الحقير عين على الملك تلك الخدمة المعيبة وبتعظم ذلك ويعجب به ألا يقال ان ذلك لشيء جدا أو مجنون لا يعقل شيأ ولما تقرر هذا فان الهنا سبحانه هو الملك الذي يسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده والمعبود الذي يسجد له من في السموات والارض طوعا وكرها فمن الخدم على بابه جبريل الامين وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وحملة العرش والكروبيون والروحانيون وسائر الملائكة المقربين الذي لا يحصي عددهم الا الله رب العالمين في منازلهم الرفيعة وأنفسهم الطاهرة وعباداتهم العظيمة ثم من الذين هم خدمة على بابه آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد خير العالمين مع سائر الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في مراتبهم المنيفة ومناقبهم العزيزة الشريفة ومقاماتهم الكريمة وعباداتهم الجليلة الخطيرة ثم العلماء الائمة الابرار والزهاد في مراتبهم العظيمة الفاخرة وأبدانهم النقية الطاهرة وعباداتهم الكثيرة الخالصة المتظاهرة وأذل الخدم على بابه ملوك الدنيا وجبابرتها يخرون له على الاذقان ساجدين صاغرين يعفرون الوجوه في التراب خاضعين ويرفعون هوانجهم اليه باكين باهلين ضارعين

يسيء الظن به في أفعال ظاهرها منكرة عنده فهو أعلم بأسراره وليذكر عند ذلك قول موسى للخضر عليهما السلام أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيأ امرا وكونه مخطئا في انكاره اعتمادا على ظاهره وان كان لك والدان فأدب الولد مع الوالدين ان يسمع كلامهما ويقوم لقيامهما ويمتثل أمرهما ولا يمشي امامهما ولا يرفع صوته فوق أصواتهما ويلبي دعوتهما ويحرص على مرضاتهما ويخفض لهما الجناح ولا يمن عليهما بالبر لهما ولا بالقيام لامرهما ولا ينظر اليهما شزرا ولا يقطب وجهه في وجوههما ولا يسافر الا باذنهما واعلم ان الناس بعد هؤلاء في حقك ثلاثة أصناف اما اصدقاء واما معارف واما مجاهيل فان بليت بالعوام المجهولين فأدب مجالسة العامة ترك الخوض في حديثهم وقلة الاصغاء الى أراجيفهم والتغافل عما

ويعترفون له بالعبودية ولانفسهم بالنقص ساجدين صاغرين حتى ينظر اليهم نظرة ويقضي لهم بفضله حاجة أو يتجاوز عنهم بكرمه زلة وانه مع هذه العظمة والجلال والملك والكمال قد أذن لك في حضرتك وعرفك وقدارتك وأنت الذي لو استأذنت على رأس بالدلك فربما لا يأذن لك وان كنت أسيرا حبيسا لك فربما لا يكلمك وان جئت لسلطان بلدك بالارض فربما لا يلتفت اليك وقد أذن لك جل جلاله حتى تعبده وتثني عليه وتخاطبه بل تدل عليه بالمسئلة وتباسطه فتقتضيه حاجاتك وتستكفيه مهماتك ثم انه يرضى ركعتيك في معاييها بل يعدلك عليهما من الثواب ما لا يخطر بقلب بشر وأنت مع ذلك تحجب بهاتين الركعتين وتستكثر ذلك وتستعظمه ولا ترى منة الله عليك في ذلك فما أسوأ لك من عبد وما أجهلك من انسان والله تعالى المستعان واليه المشتكى من هذه النفس الجاهلة وعليه التكلان فهذه هذه

(فصل)

وعلى وجه آخر ان الملك العظيم اذا أذن في ادخال الهدايا اليه فتدخل بحضرته الامراء والكبراء والرؤساء والنبلاء والاغنياء بأنواع الهدايا من الجواهر الثمينة والذخائر النفيسة والاموال الجليلة فان جاء بقال بياقة بقل أو قروى بسلة عنب تساوى دانقا أو حبة فيدخل في حضرته ويزاحم أوائل الاكابر والاغنياء بهداياهم الكثيرة الشريفة وهذا الملك يقبل من هذا الفقير هديته وينظر اليه بنظر القبول والرضا ويأمره بأنفس خلعة وكرامة لا يكون ذلك منه غاية الفضل والكرم فان أخذ هذا الفقير يمن بذلك على الملك ويحجب به ويستعظمه وينسى ذكر منة الملك ألا يقال ان هذا المجنون مضطرب العقل أو سفيه سيئ الادب عظيم الجهل فالآن يجب أنك اذا قمت لله ليلة وصليت له ركعتين فاذا فرغت فتفكر كم قام لله سبحانه في هذه الليلة من الخدم في أقطار الارض برها وبحرها وجبالها وبلادها من أصناف المستقيمين والصديقين والخائفين والمشتاقين والمجتهدين والمتضرعين وكم حضرت في هذه الساعة ببابه سبحانه من عبادة صافية وخدمة خالصة عن أنفس خاشعة وألسن طاهرة وعيون باكية وقلوب عامرة وصدور نقية وأركان تقية وصلوات ان كنت بذلت الجهود في تحسينها واحكامها واخلاصها فلا تكاد تصلح لحضرة هذا الملك العظيم ولا تتبين في جنب تلك العبادات التي تعرض هنالك كيف وقد كانت صلاتك عن قلب غافل مختلط بأنواع العيوب وبدن نجس بأنذار الذنوب ولسان متلطخ بأنواع المعصية والفضول فكيف يصلح هذا أن يحمل الى تلك الحضرة وكيف يستأهل ان يهدى الى رب العزة قال شيخنا رحمه الله انظر أيها العاقل هل وجهت قط صلاة من صلواتك الى السماء كما ينبغي بعثتها الى بيوت بعض الاغنياء وكان أبو بكر الوراق يقول ما فرغت من صلاة الا استحييت منها حين فرغت منها الا صلاتي من امرأة فرغت من الزنا (ثم) ان الرب الكريم سبحانه بمحض كرمه وفضله عظم قدر هاتين الركعتين ووعد عليهما من جزيل الثواب ما وعد وأنت عبده وفي جرايته وعملت ما عملت بتوفيقه وتيسيره ثم مع ذلك كله تحجب بذلك وتنسى منة الله عليك هذا والله أعجب العجب لا يكاد يسمح به الا عن جاهل لا نكرة له وغافل لا ذهن له أو قلب ميت خاو لا خير فيه فهذه هذه نسأل الله حسن الكفاية بمنه وفضله

(فصل)

يجري من سوء ألفاظهم والاحتراز عن كثرة لثامهم والحاجة اليهم والتنبيه على منكراتهم باللطف والنصح عند رجاء القبول منهم وأما الاخوان والاصدقاء فعليك فيهم وظيفتان (احداهما) ان تطالب أولا شروط الصحبة والصداقة فلا تؤاخي الا من يصلح للاخوة والصداقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل فاذا طلبت رفيقا ليكون شريكك في التعلم وصاحبك في أمر دينك وذلك الفراغ فيه خمس خصال * الاولى العقل فلا خير في صحبة الاحمق قالي الوحشة والقطيعة يرجع آخرها وأحسن أحواله أن يضرك وهو يريد أن ينفعك والعدو العاقل خير من الصديق الاحمق قال علي رضي الله عنه ولا تصحب أخا الجهل وايالك واياه

ثم أقول بعد هذه الجملة تيقظ من رقدتك أيها الرجل فى هذه العقبة والا كنت من الخاسرين فان هذه العقبة أشد وأشق وأمر وأضر عقبة استقبلتك فى هذه الطريق اذا لها انتهى ثمرة كل ما مضى من العقبات فان سلمت غنمت وربحت وان كانت الاخرى فقد ضاع السعى كله وخاب الامل وبطل العمر ثم الشان كله أنه قد اجتمع فى هذه العقبة ههنا ثلاثة أمور الاول منها ان الامر دقيق جدا والغبن شديد والخطر عظيم امادقة الامر فان مجارى الرياء والعجب فى الاعمال دقيقة خفية بالغاية فلا يكاد يتنبه لذلك الا كل محرر فى أمر الدين بصير يقظان القلب متحرز وأنى يطلع عليه الجاهل اللعوب والغافل الشوم ولقد سمعت بعض علمائنا رحمهم الله ببنيسابور يحكى ان عطاء السلمى رحمة الله عليه ورضوانه نسج ثوبا فأحكمه وحسنه جدا ثم حمله الى السوق فعرضه فاستر خصه البزاز فقال ان فيه عيوبا كثيرة فأخذه عطاء وجلس يبكى بكاء شديدا فاقدم الرجل على ذلك وجعل يعتذر اليه ويبذل له فى ثمنه ما يريد فقال له عطاء ليس ذلك كما تظن انما أنا عامل فى هذه الصناعة وقد اجتهدت فى احكام هذا الثوب واصلاحه وتحسينه حتى لا يوجد به عيب فلما عرض على البصير بعيوبه أظهر فيه عيوبا كثيرة عنها غافلا فكيف اعمالنا هذه اذا عرضت غدا على الله كما يبدو فيها من العيوب والنقصان الذى نحن اليوم عنها غافلون وعن بعض الصالحين قال كنت ليلة فى وقت السحر فى غرفة لدى شارعة أقرأ سورة طه فلما أن ختمتها غفوت غفوة فرأيت شخصا نزل من السماء بيده صحيفة فنشرها بين يدى فاذا فيها سورة طه واذا تحت كل كلمة عشرة حسنات مثبتة الا كلمة واحدة فانى رأيت مكانها محوا ولم أر تحتها شيأ فقلت والله لقد قرأت هذه الكلمة ولا أرى لها ثوابا ولا أراها أثبتت فقال الشخص صدقت قد قرأتها وكتبناها الا أنا سمعنا مناديا ينادى من قبل العرش امحوها وأسقطوا ثوابها فمحوناها قال فبكيت فى منامى وقلت لم فعلتم ذلك قال مر رجل فرفعت بها صوتك لاجله فذهب ثوابها فهذه هذه (واما) شدة الغبن فلان الرياء والعجب آفة عظيمة تقع فى لحظة فربما تفسد عليك عبادة سبعين سنة (وحكى) أن رجلا أضاف سفيان الثورى رحمه الله وأصحابه فقال لاهله هاتوا الطبق لا الذى أتيتنا به فى الحجة الاولى بل الذى أتيت به فى الحجة الثانية فنظر اليه سفيان وقال مسكين قد أفسد عليه بهذا حجيه ووجه آخر فى الغبن ان أقل طاعة سلمت عن هذا الرياء والعجب يكون لها من الله عز وجل من القيمة ما لا نهاية له وأكثر طاعة اذا أصابتها هذه الآفة بقيت لا قيمة لها الا ان يتداركها الله تعالى على ما روى عن على رضى الله عنه انه قال لا يقبل عمل مقبول البته وكيف يقبل عمل مقبول وسئل النخعى عن عمل كذا وكذا ما ثوابه قال اذا قبل لا يحصى ثوابه وعن وهب قال كان فيمن كان قبلكم رجل عبد الله سبعين عاما صائما يفطر من بيت الى بيت فطلب الى الله حاجة فلم تقض له فأقبل على نفسه يلومها وقال من قبلك أوتيت لو كان عندك خير لقضيت حاجتك فأنزل الله تعالى ملكا فقال يا ابن آدم ساعتك التى ازدريت فيها نفسك خير من عبادتك التى مضت (قلت) فلينظر العاقل الى هذا الكلام أليس من الغبن ان واحدا يكدح ويتعب سبعين سنة وآخر يفكر ساعة واحدة فتكون فكرة ساعة أفضل عند الله من عبادة سبعين سنة أليس هذا من الغبن العظيم أنك تمكن من ساعة خير من سبعين سنة وتترك ذلك من غير حاجة بل والله انه لاعظم الغبن وان اغفاله لاشد خسرانا وان الخصلة التى لها هذه القيمة والخطر يجب ان

فكم من جاهل أردى
حليما حين راخاه
بقاس المرء بالمرء
اذا ما هو ماشاه
وللشئ على الشئ
مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب
دليل حين يلقاه
* الثانية حسن الخلق فلا تصحب من ساء خلقه وهو الذى لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة وقد جمعه علقمة العطاردى رحمه الله فى وصيته لابنه لما حضرته الوفاة فقال يا بنى اذا أردت صحبة انسان فاصحب من اذا خدمته صانك وان صحبته زانك واذا قعدت بك مؤنة مانك * اصحب من اذا مددت يدك للخير مدها وان رأى منك حسنة عدها وان رأى منك سيئة سدها * اصحب من اذا قلت صدق قولك وان حاولت أمرا أعانك ونصرك وان تنازعتما فى شئ آثرك * وقال على رضى الله عنه رحما

تحذر وتجتنب ولمثل هذا المعنى اغما وقع نظر أولى الابصار من العباد فى مثل هذه الدقائق فاهتموا لمثل هذه الاسرار بمعرفتها أولا ثم رعايتها والتحفظ عنها ثانيا ولم تفتهم كثرة الاعمال بالظاهر وقالوا الشأن فى الصفوة لا فى الكثرة وقالوا جوهرة واحدة خير من ألف خرزة وأما الذين قل عملهم وكل فى هذا الباب نظرهم فجهلوا المعالى وأغفلوا ما فى القلوب من العيوب واشتغلوا بانتهاب النفوس فى الركوع والسجود والامساك عن الطعام والشراب ونحوه ففرهم العدد والكثرة ولم ينظروا ما فيها من المخ والصفوة وما يبقى عبدا لجوز ولا لب فيه وما ينفع رفع التعرف ولم تحكم مبانيها وما يهدم هذه الحقائق الا العالمون بالله المكاشفون والله تعالى ولى الهداية بفضله

واما عظم الخطر فمن وجوه (أحدها) ان المعبود لك لانهاية لجلاله وعظمته وله عليك نعم لا تعد ولا تحصى ولك بدن معيب بعيوب خفيه موقف باآفات كثيرة وأمر مخوف ان وقع لك زال مع ذلك تسارع النفس اليه فيحتاج ان يستخرج عملا صافيا سالما من بدن معيب ونفس مبالة الى الشر أمارة بالسوء على وجه يصلح لرب العالمين فى جلاله وعظمته وكثرة أياديه ومننه ويقع منه موقع الرضا والقبول والا فيفوتك الربح العظيم الذى لا تسمح النفس بفوته بل ربما يصيل فيه معصية لا طاقة لك بها وهذا والله شان عظيم وخطب جسيم واما جلال الملك وعظمته بحيث ان الملائكة المقربين الابرار قائمون له بالخدمة آناء الليل والنهار حتى اذ منهم من هو منذ خلقه الله تعالى فى قيام ومنهم من هو فى ركوع ومنهم من هو فى سجود ومنهم من هو فى تسبيح وتهليل فلا يتم القائم قيامه ولا الراكع ركوعه ولا الساجد سجوده ولا المسبح تسبيحه ولا المهلل تهليله ما دام بنو آدم فى نفخ الصور ثم لما فرغوا من هذه الخدمة العظيمة نادوا بأجمعهم سبحانك ما عبدناك حق عبادتك وهذا سيد المرسلين وخير العالمين أعلم الخلق وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين يقول لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك يقول آنا لا أقدر ان أثنى عليك ثناء أنت له أهل فضلا عن أن أعبدك كما أنت له أهل وهو الذى يقول ليس أحد يدخل الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا ان يتغمدنى الله برحمته واما النعم والايادى فكما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وعلى ما روى انه يحشر الناس على ثلاثة دواوين ديوان الحسنات وديوان السيئات وديوان النعم فتقابل الحسنات بالنعم فلا يوفى بحسنة الا أتى بنعمة حتى تفنى الحسنات النعم وتبقى السيئات والذنوب فلله تعالى فيها المشيئة وأما عيوب النفس وآفاتها فقد قدمناها فى بابها والامر المخوف ان العبد يكدح فى العبادة ويد أب سبعين سنة غافلا عن عيوبه وآفاته فربما لا يكون واحد منها مقبولا وربما يعب اعواما فتفسده ساعة واحدة وأعظم خطرا من ذلك كله انه ربما ينظر الله تعالى الى العبد وهو يرائى الناس بعبادته ويخدمه بحيث جعل ظاهره لله وباطنه للخلق فيطرده طرد الامر له والعياذ بالله ولقد سمعت بعض العلماء يحكى عن الحسن البصرى رحمه الله انه رؤى فى المنام بعد موته فسئل عن حاله فقال أقامنى الله بين يديه وقال يا حسن أتذكر يوم كنت تصلى فى المسجد اذ مر بك الناس بأبصارهم فزدت حسنا الصلاتك فقلت أن أول صلاتك كان لى خالصا لطردتك اليوم عن بابى ولقطعتك عنى مرة واحدة ولما كان الامر فى الجملة من الدقة والصعوبة الى حد عظيم نظر أولوا الابصار فيه فخافوا على أنفسهم حتى ان منهم من لا يلتفت الى جميع ما يظهر للناس من أعماله حتى حكى عن رابعة انها قالت ما ظهر

ان أخاك الحق من كان معك
ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك
شتت فيك شمله ليجمعك
* الثالثة الصلاح فلا تصحب فاسقا مصرا على معصية كبيرة لان من يخاف الله لا يصر على معصية كبيرة ومن لا يخاف الله لا تؤمن غوائله بل يتغير بتغير الاعراض والاحوال قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه فاحذر صحبة الفاسق فان مشاهدة الفسق والمعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهة المعصية ويهون عليك أمرها وذلك هان على القلوب معصية الغيبة لانفهم لها اولوا أو عاقلا من ذهب أو ملبوسا من حرير على فقيه لاشتد انكارهم عليه والغيبة أشد من ذلك * الرابعة لا تصحب مريبا فصحبة المريب عدى الى السقم قال الطباع مجبولة

لي من اعمالي لأعدها شيأ وقال آخر اكتم حسناتك كما تكتم سيآتك وآخر يقول ان أمكنك ان تجعل لك خبأ من الخير فافعل ولقد حكي انه قيل لرابعة بم ترتجين أكثر ما ترتجين فالت بأي من جل عملي (وحكي) انه اجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار فقال مالك اما طاعة الله أو النار فقال محمد بن واسع اما رحمة الله أو النار فقال مالك ما أسوء حتى الى معلم مثلك (وعن) أبي يزيد البسطامي رحمه الله قال كابدت العبادة ثلاثين سنة فرأيت فائدة بقول لي يا أبا يزيد خزانته مملوءة من العبادة فان أردت الوصول اليه فعليك بالذلة والافتقار (وسمعت الاستاذ أبا الحسن) يحكي عن الاستاذ أبي الفضل رحمهما الله انه كان يقول اني أعلم ان ما أعمله من الطاعات غير مقبول عند الله تعالى فقيل له في ذلك فاجاب اني أعلم ما يحتاج اليه العمل حتى يكون مقبولا واعلم اني لست أقوم بذلك فعملت انها غير مقبولة قيل له فلم تفعلها قال عسى ان يلطف الله تعالى يوما فتكون النفس معتودة العمل الخير فلا احتاج الى ان أعودها ذلك من الرأس فهذه حال هؤلاء الاعلام وذوي المجاهدات والاخطار والاقدام فكنت أنت كما قال الشاعر

فاطلب لنفسك صحبة مع غيرهم * وقسع الاياس وخابت الآمال

هيهات تدرك بالتواني سادة * كدوا النفوس وساعدوا الاقبال

ثم رأيت الى أثبت ههنا الخبر المأثور عن الصادق المصدوق صلوات الله عليه وعلى آله وسلامه وقد ذكرناه في غير كتاب واحد (روى) عن ابن المبارك رحمه الله عن رجل وهو خالد بن معدان انه قال لمعاذ حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظته وذكرته في كل يوم من شدته ورقته قال نعم ثم بكى بكاء طويلا ثم قال واشرفا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى لقائه ثم قال بينا أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ ركب وأردفني خلفه ثم سرنا فرفع بصره الى السماء ثم قال الحمد لله الذي يقضي في خلقه ما يشاء يا معاذ قلت لبيك يا سيد المرسلين قال أحدثك بحديث ان أنت حفظته نفعك وان ضيعته انقطعت حجتك عند الله عز وجل يا معاذ ان الله تبارك وتعالى خلق سبعة املاك قبل ان يخلق السموات والارض لكل سماء ملك كالبوابا خازنا وجعل على كل باب من أبواب السموات ملكا قواما على قدر الباب وجلالته فتصعد الحفظة بعمل العبد وله نور وشعاع كالشمس حتى اذا بلغ السماء الدنيا والحفظة تستكثر عمله وتزكيه فاذا انتهى الى الباب قال الملك للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربي ان لا أدع عمل من يغتاب الناس يتجاوزني الى غيري ثم تصعد الحفظة من الغد معهم عمل صالح له نور تستكثره الحفظة وتزكيه حتى اذا انتهوا به الى السماء الثانية قال الملك قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه فانه أراد به عرض الدنيا أمرني ربي ان لا أدع عمله يتجاوزني الى غيري فتلعنه الملائكة حتى يمسي وتصعد الحفظة بعمل العبد معجبا به فيه صدقة وصيام وكثير من البر فتستكثره الحفظة وتزكيه فاذا انتهوا به الى السماء الثالثة قال الملك البواب قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك صاحب الكبر أمرني ربي ان لا أدع عمله يتجاوزني الى غيري انه كان يتكبر على الناس في مجالسهم وتصعد الحفظة بعمل العبد وهو يزهر كما تزهر الكوكب الدري له دوي وتسبيح بصوم وصلاة وحج وعمرة فاذا انتهوا الى السماء الرابعة قال الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك صاحب الاعجاب أمرني

على التشبه والاقتداء به بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري فجالسة المريض تزيد في حرصك ومجالسة الزاهدين تزيد في زهدك * اغلاسة الصدق فلا تصحب كذابا فانك منه على غرور فانه مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب ولعلك لا تعدم احتمال هذه الخصال في سكان المدارس والمساجد فعليك يا أحمد أمرين اما العزلة والانفراد فان فيها سلامتك واما أن تكون محالطتك مع شركائك بقدر خصالهم بان تعلم ان الاخوة ثلاثة أخ لا آخر لك فلا نزاع فيه الا الدين وأخ لدنياك فلا نزاع فيه الا الخلق الحسن وأخ تستأنس به فلا نزاع فيه الا السلامة من شره وفتنته وخبثه والناس ثلاثة أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغني عنه والآخر مثله مثل الدواء يحتاج اليه في وقت دون وقت والآخر مثله مثل الداء لا يحتاج اليه قط

ربى ان لا أدع عملا يتجاوزنى الى غيرى انه كان اذا عمل عملا أدخل العجب فيه وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما تزهر العروس الى أهلها حتى اذا انتهوا الى السماء الخامسة بذلك العمل الحسن من جهاد وحج وعمرة له ضوء كضوء الشمس فيقول الملك أنا ملك صاحب الحسد انه كان يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد سخط ما أرضى الله أمرنى ربى ان لا أدع عمله يتجاوزنى الى غيرى وتصعد الحفظة بعمل العبد بوضوء تام وصلاة كثيرة وصيام وحج وعمرة حتى يتجاوزوا به الى السماء السادسة فيقول الملك الموكل بالباب أنا صاحب الرحمة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه كان لم يرحم قط انسانا وان أصيب عبد شمت به أمرنى ربى ان لا أدع عمله يتجاوزنى الى غيرى وتصعد الحفظة بعمل العبد بنفقة كثيرة وصوم وصلاة وجهاد وورع له صوت كصوت الرعد وضوء كضوء البرق فاذا انتهوا به الى السماء السابعة يقول الملك الموكل بالسماء أنا صاحب الذكر يعنى السمعة والصيت فى الناس ان صاحب هذا العمل أراد به الذكر فى المجالس والرفعة عند القرناء والجاه عند الكبراء أمرنى ربى ان لا أدع عمله يتجاوزنى الى غيرى وكل عمل لم يكن لله تعالى خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عز وجل عمل المرائى وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات السبع حتى تقطع الحجب كلها الى الله سبحانه فيقفون بين يدى الرب جل جلاله ويشهدون له بالعمل الصالح الخالص لله تعالى فيقول الله تعالى أنتم الحفظة على عمل عبدى وأنا الرقيب على ما فى نفسه انه لم يردنى بهذا العمل وأراد به غيرى ولا أخلصه لى وأنا أعلم بما أراد من عمله عليه لعنتى غر الآدميين وغرتكم ولم يغرنى وأنا علام الغيوب المطلع على ما فى القلوب لا تخفى على خافية ولا تعزب عنى عازبة علمى بما كان كعلمى بما يكون وعلمى بما مضى كعلمى بما بقى وعلمى بالاولين كعلمى بالآخرين أعلم السر وأخفى فكيف يغرنى عبدى بعمله انما يغر المخلوقين الذين لا يعلمون وأنا علام الغيوب عليه لعنتى وتقول الملائكة السبعة والثلاثة الآلاف المشيعون يارب انا عليه لعنتك ولعنتنا فتقول أهل السموات عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين ثم بكى معاذ رحمه الله وانتحب انتحابا شديدا وقال يارسول الله كيف النجاة مما ذكرت قال يامعاذ لقد نبئت فى اليقين قلت أنت رسول الله وأنا معاذ بن جبل كيف لى النجاة والخلاص قال نعم يامعاذ ان كان فى عملك تقصير فاقطع لسانك عن الوقيعة فى الناس وعن اخوانك من حملة القرآن خاصة وليردك عن الوقيعة فى الناس ما تعلمه من عيب نفسك ولا تزل نفسك بذم اخوانك ولا ترفع نفسك بوضع اخوانك ولا ترائى بعملك كى تعرف فى الناس ولا تدخل فى الدنيا دخولا ينسيك أمر الآخرة ولا تناج رجلا وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فتقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة ولا تفحش فى مجلسك حتى يحذر الناس من سوء خلقك ولا تمن على الناس ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاليب جهنم وهو قوله تعالى والناشطات نشطا يقول تنزع اللحم عن العظام (قلت) يارسول الله ومن يطيق هذه الخصال قال يامعاذ ان الذى وصفت لك ليسير على من يسره الله تعالى عليه انما يكفيك من ذلك ان تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك فاذن أنت قد سلمت ونجوت قال خالد بن معدان وكان معاذ لا يكثر من تلاوة القرآن كما يكثر من تلاوة هذا الحديث وذكره فى مجلسه فلما سمعت أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل بهذا الحديث العظيم نبؤه

لكن العبد قد يبتلى به وهو الذى لا أنس فيه ولا نفع فتجيب مداراته الى الخلاص منه وفى مشاهدته فائدة عظيمة ان وفقت لها وهو ان تشاهد من خبائث أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجتنبه فالسعيد من وعظ بغيره والمؤمن مرآة المؤمن وقيل لعيسى عليه السلام من أدبك قال ما أدبنى أحد ولكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته ولقد قال صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم فاو اجتنب الناس ما يكرهونه من غيرهم لكملت آدابهم واستغنوا عن المؤدبين (الوظيفة الثانية عشرة حقوق الصحبة) فهما وانعقدت الشركة وانتظمت بينك وشريكك الصحبة فعليك حقوق يوجبها عقد الصحبة وفى القيام بها آداب وقد قال صلى الله عليه وسلم مثل الاخوين مثل اليدين تغسل احداهما الاخرى ودخل صلى الله عليه وسلم أجمة فاجتنى منها سواكين أحدهما معوج والآخر

الكبير خطره الاليم أثره الذى تطير له القلوب وتحسر له العقول وتضيق عن حمله الصدور وتجزع
لهوله النفوس فاعتصم بمولاك اله العالمين والزم الباب بالتضرع والابتهال والبكاء آناء الليل
وأطراف النهار مع المتضرعين المبتهلين فانه لا نجاة من هذا الامر الابرحمته ولا سلامة من هذا
البحر الا بنظره وتوفيقه وعنايته فتنبه من رقدة الغافلين واعط الامر حقه وجاهد نفسك فى
هذه العقبة المخوفة لعلك لا تهلك مع الهالكين والمستعان بالله على كل حال فانه خير معين وهو
تعالى أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

(فصـــــل)

وجملة الامر انك اذا أحسنت النظر فرأيت قدر طاعة الله تعالى ورأيت عجز الخلق وضعفهم
وجهلهم فلا تلتفت اليهم بقلبك وكن زاهدا فى ثنائهم ومدحهم وتعظيمهم الذى لا فائدة تحته فلا
ترد بطاعتك شيأ من ذلك واذا رأيت خسة الدنيا وحقارتها وسرعة زوالها فلا ترد بها أيضا
بطاعتك من الله وقل يا نفس ثناء رب العالمين وشكره خير من ثناء المخلوقين العاجزين الجاهلين
الذين لا يعرفون قدر عملك بالحقيقة ومانحمت فيه وما يلزمون حقك فيما عملت وتحملت بل ربما
يتمنون عليك من هو أدون منك حالا بألف درجة ويضعونك فى أحوج الاوقات وينسونك
وان لم يفعلوا ذلك فاذا عسى ان يكون بأيديهم والى ماذا تبلغ قدرتهم ثم هم فى قبضة الله تعالى
يصرفهم كيف يشاء والى ما يشاء فاعقل أيتها النفس فلا تضيعى طاعتك العزيز قبولها ولا يفوتك
ثناء من ثناؤه كل فخر وعطاء من عطاؤه كل ذخر وقد صدق القائل

سهر العيون لغير وجهك باطل * وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

وقل يا نفس أجنة الخلد خير أم لطخة من حرام الدنيا وحطامها التكدد الفانى وأنت متمكنة من
ان يحصل لك بطاعتك هذا النعيم المقيم فلا تكونى خسيسة الهمة رديئة الارادة دنيئة الافعال
اما ترين الهمام اذا كان سماويا كيف تعلو قيمته ويزداد قدره فارفعى همتك كلها الى السماء
وجردى قلبك لله تعالى الواحد الذى بيده الامر كله ولا تضيعى ما ظفرت به من طاعتك بلا شئ
وكذلك اذا أحسنت التأمل فرأيت أيادى الله تعالى ومننه العظام عليك فى هذه الطاعة بأن
أمكنك منها واعطاك الآلة أولا ثم أزاح عنك العوائق حتى تفرغت لهذه الطاعة ثانيا ثم حصل
بالتوفيق والتأييد ويسرها عليك وزينها فى قلبك حتى عملتها ثالثا ثم مع جلاله وعظمته واستغنائه
عنك وعن طاعتك وكثرة نعمته عليك أعانك على هذا العمل اليسير الشناء الجزيل والثواب
العظيم الذى لا تستحقينه بوجه ثم شكرك على ذلك وأثنى عليك على هذا العمل اليسير الشناء
الجزيل وأحبك بذلك فاسمعى فهذه كلها بفضله العظيم لا غير والا فأى استحقاق لك وأى قدر
لعملك الحقير المعيب فاذكرى ايتها النفس منة ربك الكريم الرحيم سبحانه فيما أحسن اليك
فى هذه الطاعة واستحيى من ان تلتفتى الى عمل بل الفضل والمنة لله تعالى علينا بكل حال ولا يكون
لك شغل بعد حصول هذه الطاعة الا التضرع والابتهال الى الله سبحانه بان يتقبلها اما تسمعين
قول خليله ابراهيم عليه السلام لما فرغ من خدمته فى بناء بيته كيف ابتهل الى الله فى ان يتفضل
عليه بالقبول فقال ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ولما فرغ من دعائه قال ربنا تقبل
دعاء فأين من عملك بقبول هذه البضاعة المزجاة فاقدأ كمل النعمة وأعظم المنة فيما لها من سعادة

مستقيم وكان معه بعض
أصحابه فاعطاه المستقيم
وأمسك لنفسه الهويج فقال
يا رسول الله انك أحق منى
بالمستقيم فقال صلى الله عليه
وسلم ما من صاحب يصحب
صاحبا ولو ساعة من نهار
الا سئل عن صحبته هل أقام
فيها حق الله تعالى أو اضاعه
وقال صلى الله عليه وسلم
ما اصطحب اثنان قط الا وكان
أحبهما الى الله تعالى
أرفقهما بصاحبه *(وآداب
الصحبة) الايثار بالمال فان
لم يكن هذا فبذل الفضل
من المال عند الحاجة
والاعانة بالنفس فى الحاجات
على سبيل المبادرة من غير
احواج الى التماس وكتمان
السر وستر العيوب
والسكوت عن تبليغ
ما يسوء من سذقة الناس
اياه وابلاغ ما يسره من ثناء
الناس عليه وحسن الاصغاء
عند الحديث وترك المماراة
فيه وان يدعوه باحب

ودولة وعز ورفعة وكم تزين اذذاك من خلعة ونعمة وذخر وكرامة وان تكن الاخرى فياله
من خسران وغبن وحرمان فاهتم واشتغل بهذا الشان فاذا واظبت على مثل ذلك وكررته على
قلبك عند الفراغ من طاعتك واستعنت بالله عزوجل صرفك عن الالتفات الى الخلق والنفس
وشغلك عن مراآت واعجاب وبعثك على محض الاخلاص لله تعالى فى الطاعات والتمسك بذكر
منة الله تعالى عليك فى جميع الحالات ويحصل لك أربح طاعات ظاهرة لاعيب فيها وخيرات
خالصة لاشوب فيها وعبادات مقبولة لانقص فيها بل مثل هذه الطاعة وان حصلت فى العمر مثلا
مرة واحدة تلاغير فانها بالحقيقة لكثيرة ولعمرى انها وان قل عددها لقد كثر معناها وعظم
قدرها وكثر نفعها وطابت عقباها وان التوفيق لمثله العزيز والفضل به لله تعالى على العبد لكثير
فأى هدية أجل من هدية يقبلها رب العالمين وأى سعى أكرم من سعى يشكره مجيب المضطرين
ويثنى عليه رب العالمين وأى بضاعة أعز من بضاعة اختارها ورضيها رب العالمين فتأمل أيها
المسكين وايالك ان تكون من المغبونين واذا جرى الامر على هذه الجملة كنت من الخلصين لله
سبحانه الخالقين الذاكرين لنعمته المرضيين وكنت قد خلصت هذه العقبة المخوفة وراءك وسلمت
من آفاتها وسبقت بخيراتها وغراتها فائزا على الابد بكرامتها وسعادتها والله سبحانه ولى
التوفيق والعصمة بمنه وكرمه ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم

(العقبة السابعة وهى عقبة الحمد والشكر)

ثم عليك وفقك الله وايانا بحسن توفيقه بعد قطع هذه العقبات والظفر بالمقصود من هذه
العبادة السالمة من الآفات بالحمد والشكر لله سبحانه على هذه النعمة العظيمة والمنة الكريمة
وانما يلزمك ذلك لامرين احدهما الدوام النعمة العظيمة والثانى لحصول الزيادة فاما دوام
النعمة فلان الشكر قيد النعم به تدوم وتبقى وبتركه تزول وتحول قال الله سبحانه ان الله لايغير
مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم وقال عز من قائل فكفرت بأنعم الله فاذاقها الله لباس الجوع
والخوف بما كانوا يصنعون وقال سبحانه مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقال النبى
صلى الله عليه وسلم ان للنعم أوابدكأوابد الوحش فقيدوها بالشكر واما حصول الزيادة فلما كان
الشكر هو قيد النعمة فهو يثمر الزيادة وقال الله سبحانه لئن شكرتم لأزيدنكم والذين اهتدوا
زادهم هدى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا قال السيد الحكيم اذا رأى العبد قد قام بحق
نعمة عين عليه بأخرى ويراد أهلالها والا فتقطع ذلك عنه ثم النعم قسمان دنيوية ودينية فالدنيوية
ضربان نعمة نفع ونعمة دفع فنعمة النفع أن أعطاك المصالح والمنافع فالمنافع ضربان الخلقة
السوية فى سلامتها وعافيتها والملاذ الشهية من المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها من
فوائدها ونعمة الدفع أن صرف عنك المفاسد والمضار وهى ضربان أحدهما فى النفس بان
سلك من زمانتها وسائر آفاتها وعللها والثانى دفع مايلحقك به ضرر من أنواع العوائق أو يقصدك
بشر من انس أو جن أو سباع أو هوام ونحوها (واما) النعم الدينية فضربان نعمة التوفيق
ونعمة العصمة فنعمة التوفيق أن وفقك الله أولا للاسلام ثم للسنة ثم للطاعة ونعمة العصمة
أن عصمك أولا عن الكفر والشرك ثم عن البدعة والضلالة ثم عن سائر المعاصى وتفصيل ذلك
لايحصيه الا السيد العالم الذى أنعم عليك كما قال جل وعلا وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها وان

اسمائه اليه وان يثنى عليه
بما يعرف من محاسنه وان
يشكره على صنيعه فى وجهه
وان يذب عنه فى غيبته اذا
تعرض لعرضه كما يذب عن
نفسه وان ينصحه باللطف
والتعريض اذا احتاج اليه
وان يعفو عن زلته وهفوته
فلا يعتب عليه وان يدعو له
فى خلوته فى حياته وبعد مماته
وان يحسن الوفاء مع أهله
واقاربه بعد موته وان يؤثر
التخفيف عنه فلا يكلفه شيأ
من حاجته ويروح قلبه
من مهماته وان يظهر الفرح
بجميع ما يباح له من
مسارته والحزن بما يناله
من مكارهه وان يضمر مثل
ما يظهره فيكون صادقا فى
وتد سرا وعلانية وان يبدأه
بالسلام عند اقباله وان
يوسع له فى المجلس ويخرج له
من مكانه وان يشيعه عند
قيامه وان يصمت عند
كلامه حتى يفرغ من خطابه
وترك المداخلة فى كلامه
وعلى الجملة فيعامل بما يحب
أن يعامل به ممن لايحب

دوام هذه النعم كلها بعد دمامن عليك بها والزيادة عليها من كل باب منها مما لا يحصيه ولا يبلغه وهمك وكلها تتعلق بشيء واحد وهو الشكر والحمد لله وان خصلة تكون لها هذه القيمة وتكون فيها كل هذه الفائدة لحقيق بأن تمسك بها من غير اغفال بحال فانه جوهر ثمين وكيمياء عزيزة والله ولي التوفيق بفضله ورحمته (فان قيل) فما حقيقة الحمد والشكر وما معناهما وحكمهما فاعلم ان العلماء فرقوا بين الحمد والشكر عند التحصيل بأن الحمد من أشكال التسبيح والتهليل فيكون من المساعي الظاهرة والشكر من أشكال الصبر والتفويض فيكون من المساعي الباطنة لان الشكر يقابل الكفران والحمد يقابل اللوم ولان الحمد أعم وأكثر والشكر أقل وأخص قال الله تعالى وقليل من عبادي الشكور فبين انهما معنيان متميزان ثم الحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن هذا مقتضى كلام شيخنا رحمه الله وأما الشكر فتكلموا في معناه وأكثروا فعن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق في السر والعلانية والى نحوه ذهب بعض مشايخنا فقال الشكر هو أداء الطاعات في الظاهر والباطن ثم رجع الى أنه اجتناب المعاصي ظاهرا وباطنا وقال غيره الشكر الاحتراس عن اختيار معاصي الله تحترس على قلبك ولسانك وأركانك حتى لا تعصي الله عز وجل بشيء من هذه الثلاثة بوجه من الوجوه والفرق بين قوله وبين قول الشيخ الاول انه رحمه الله تعالى جعل الاحتراس معنى مثبتا زائدا على الاجتناب عن المعاصي وأما الاجتناب عن المعصية ما هو الا أن لا يفعل المعصية عند داعيها ولا يكون في نفسه معنى محصل يكون العبد به مشتغلا وعن الكفران معتصما وقال شيخنا رحمه الله تعالى ان الشكر تعظيم المنعم على مقابلة نعمته على حد يمنعه عن جفاء المنعم وكفرانه ولو قلت تعظيم المحسن على مقابلة احسانه ليصح أن يكون من الله الشكر للعبد فحسن وفيه تفاصيل قد شرحناها في كتاب احياء علوم الدين وغيره ولكن التحصيل ان الشكر من العبد تعظيم ينبع من جفاء من أحسن اليه وذلك بتذكر احسانه وحسن حال الشاكر في شكره وقبح حال الكافر في كفرانه (فان قلت) ان أقل ما يستوجبه المنعم بنعمته أن لا يتوصل بها الى معصية وما أقبح حال من جعل نعمة المنعم سلاحا على عصيانه فعلى العبد اذن من فرض الشكر في حقيقته أن يكون له من تعظيم الله سبحانه ما يحول بينه وبين معاصيه على حسب تذكر نعمه فاذا أتى بذلك فقد أتى بما هو الاصل فيه ثم يقابل ذلك بجد في الطاعة وجد في القيام بخدمة اذ هو من حقوق النعمة فلا بد من الاحتراس عن المعصية وبالله التوفيق (فان قلت) فما موضع الشكر فاعلم أن موضعه النعم الدينية والدنيوية على اقدارها وأما الشدائد والمصائب في الدنيا في نفس أو أهل أو مال فتكلموا في ذلك هل يلزم العبد الشكر عليها فقال بعضهم لا يلزم العبد الشكر عليها من حيث هي وانما يجب فيها الصبر وأما الشكر فهو على النعمة لا غير قالوا ولا شدة الا وفي جنبها نعم لله تعالى فلزم الشكر على تلك النعم المقترنة بها دون نفس الشدة وتلك النعم ما قاله ابن عمر رضي الله عنهما ما ابتليت ببلية الا كان لله تعالى علي فيها أربع نعم اذ لم تكن في ديني واذ لم تكن أعظم منها واذ لم أحرم الرضا بها واذ رجوت الثواب عليها وقد قيل أيضا من تلك النعم ان تلك الشدة زائلة غير دائمة وانها من الله تعالى دون غيره وان كانت بسبب مخلوق فانها لله عليك لا له عليك فاذن يلزم العبد الشكر على النعم المقترنة بالشدة وقال آخرون وهو الاولى عند شيخنا رحمه الله تعالى ان شدائد الدنيا

لاخيه مثل ما يحب لنفسه فأخوته نفاق وهي عليه في الدنيا والآخرة وبال فهذا أدبك في حق العوام المجهولين وفي حق الاصدقاء المؤاخين * وأما القسم الثالث وهم المعارف فاحذر منهم فانك لا ترى الشر الا ممن تعرفه أما الصديق فيهنئك وأما المجهول فلا يتعرض لك وانما الشر كله من المعارف الذين يظهرون الصداقة بألسنتهم فأقلل من المعارف ما قدرت فاذا بليت بهم في مدرسة أو جامع أو مسجد أو بلد أو سوق فيجب أن لا تحتقر منهم أحدا فانك لا تدري لعله خير منك ولا تنظر اليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم فتهلك لان الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها وهم ما عظم أهل الدنيا في قلبك فقد سقطت من عين

عما يلزم العبد الشكر عليها لان تلك الشدائد نعم بالحقيقة بدليل انها تعرض العبد لمنافع عظيمة ومقربات جزيلة وأعواض كريمة فى العاقبة يتلاشى فى جنبها مشقة هذه الشدائد رأيته نعمة تكون أكبر من هذه ومثال ذلك من يسقيك دواء كريها موتا الداء شديدا ويفصدك او يحجمك لعلة عظيمة مخوفة ان لم تطبر فيؤدى ذلك الى صحة النفس وسلامة البدن وصفوة العيش فيكون ايلامه اياك بمرارة الدواء أو بجراحة الفصد والحجامة نعمة بالغة بالحقيقة ومنة ظاهرة وان كان فى صورته مكروها تنفر عنه الطبع وتستوحش منه النفس وأنت تحمد الذى تولى منك هذا بل تحسن اليه بما أمكنك فكذلك حكم هذه الشدائد أما ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم كيف حمد الله وشكره على الشدائد كشكره على المسار حيث قال الحمد لله على ما ساء ومر أما ترى كيف يقول جل جلاله فعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وما ساءه الله شيأ فهو أكثر مما يلفه وهمك وعابؤ كدهذا القول ان النعمة ليست خيرا عن اللذة وما تشتهيه النفس بمقتضى الطبع وانما هو ما يزيد فى رفعة الدرجات ولذلك تسمى نعمة بمعنى الزيادة واذا كانت الشدة مما تصير سببا فى زيادة شرف العبد ورفعة درجته فتكون نعما بالحقيقة فان كانت تعد فى الشدائد والمحن بظاهرها فاعلم ذلك موفقا (فان قلت) فالشاكر أفضل أم الصابر فاعلم انه قيل ان الشاكر أفضل بدليل قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور فجعلهم أخص الخواص وقال فى مدح نوح عليه السلام انه كان عبدا شكورا وقال فى ابراهيم عليه السلام شاكرا لانعمه ولانه فى منزلة الانعام والعافية ولذلك قيل لان أنعم فأشكر أحب الى من أن ابتلى فأصبر وقيل بل الصابر أفضل لانه أعظم مشقة فيكون أعظم ثوابا وأرفع منزلة قال الله تعالى انا وجدناه صابرا نعم العبد وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وقال تعالى والله يحب الصابرين (قلت أنا) الشاكر بالحقيقة لا يكون الا صابرا والصابر بالحقيقة لا يكون الا شاكرا لان الشاكر فى دار المحنة لا يخلو من محنة يصبر عليها لا محالة ولا يجزع فان الشكر تعظيم المنعم على حد يمنع من عصيانه والجزع عصيان والصابر لا يخلو من نعمة كما ذكرنا أن الشدائد نعم بالحقيقة على المعنى المتقدم فانه شكر بالحقيقة اذا صبر عليها لانه حبس نفسه عن الجزع تعظيما لله تعالى وهذا هو الشكر بعينه اذ هو تعظيم يمنع عن العصيان ولان الشاكر يمنع نفسه عن الكفران فصبر عن المعصية وحمل نفسه على الشكر وصبر على الطاعة فصار صابرا بالحقيقة والصابر عظم الله تعالى حتى منعه تعظيمه عن الجزع فيما أصابه وحمله على الصبر فقد شكر الله تعالى فصار شاكرا بالحقيقة ولان حبس النفس عن الكفران مع قصد النفس له شدة يصبر عليها الشاكر وتوفيق الصابر والعصمة نعمة يشكر عليها الصابر فأحدهما لا ينفك عن الآخر ولان البصيرة الباعثة عليهما واحدة وهى بصيرة الاستقامة فى قول بعض علمائنا فمن هذه الوجوه قلنا ان أحدهما لا ينفك عن الآخر فاعرف هذه الجملة والله التوفيق

(فصل)

فعليك أيها الرجل ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة اليسيرة المؤنة الكثيرة الجدوى العزيزة العنصر العظيمة القدر وتأمل أصلين أحدهما ان النعمة انما تعطى من يعرف قدرها وانما يعرف قدرها الشاكر ودليل ما قلناه قوله سبحانه فى الحكاية عن الكفار والرد عليهم أهؤلاء من

الله تعالى وايالك ان تبذل لهم دينك تنال به من دنياهم فلم ينل ذلك أحد الاصغر فى أعينهم ثم حرم ما عندهم وان عادوك فلا تقابلهم بالعداوة فانك لا تطيق الصبر على مكافأتهم فيذهب دينك فى عداوتهم فتطول عنائك معهم ولا تكن اليهم فى حال اكرامهم اياك وثنائهم عليك فى وجهك واظهارهم المودة لك فانك ان طلبت حقيقة ذلك لم تجد فى المائة واحدا ولا تطمع أن يكون لك فى العلن والسر واحد ولا تعجب ان ثابوك فى غيبتك ولا تغضب منه فانك ان أنصفت وجدت فى نفسك مثل ذلك حتى أصدقائك وأقاربك بل فى استاذك ووالديك فانك تذكرهم فى الغيبة بما لا تشافههم به فاقطع طمعك عن مالهم وجاههم

الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين فان أولئك الجهال ان النعمة العظيمة والمنة الكريمة انما تعطى من يكون أكثرهم مالا وأشرفهم حسبا ونسبا فقالوا ما بال هؤلاء الفقراء بزعمهم من العبيد والاحرار أعطوا هذه النعمة العظيمة بزعمكم دوننا فقالوا على طريق الاستكبار ومجرى الاستهزاء أهؤلاء من الله عليهم من بيننا فأجابهم الله تعالى بهذه النكتة الزاهرة فقال أليس الله بأعلم بالشاكرين تقدير الكلام ان السيد الكريم انما يعطى نعمته من يعرف قدرها وانما يعرف قدرها من اقبل عليها بنفسه وقلبه فاختارها على غيرها ولا يعبأ بما تحمل من أعباء المؤنة فى تحصيلها ثم لا يزال قائما بالباب يؤدى شكرها وكان فى علمنا السابق ان هؤلاء الضعفاء يعرفون قدر هذه النعمة ويقومون بشكرها فكانوا أولى بهذه النعمة منكم فلا اعتبار بغناكم وثروتكم ولا جاهكم فى الدنيا وحشمتكم ولا نسبكم فى الانساب ولا حسبكم انما تحسبون النعمة كلها الدنيا وحطامها والحسب والنسب وعلو الدين والعلم والحق ومعرفته وانما تعظمون ذلك وتتفاخرون به أما ترون أنكم لا تكادون تقبلون هذا الدين والعلم والحق الا بعنة على سر أنا كم به وذلك لاستحقاركم ذلك وقلة مبالاتكم به وأن هؤلاء الضعفاء يقتلون أنفسهم على ذلك ويبذلون فيه مهجتهم ولا يبالون بما فاتهم وبمن عاداهم مع ذلك لتعلموا أنهم هم الذين عرفوا قدر هذه النعمة ووضع فى قلوبهم تعظيمها وهان عليهم فوت كل شئ دونها وطاب لهم احتمال كل شدة فيها فيستغرقون جميع العمر فى شكرها فلذلك استأهلوا هذه المنة الكريمة والنعمة العظيمة فى سابق علمنا وخصصناهم بمرادنكم فهذه هذه ثم أقول وكذلك كل فريق من الناس خصهم الله تعالى بنعمة من نعم الدين من علم أو عمل فانك تجدهم بالحقيقة أعرف الناس بقدرها وأشدهم تعظيما لها وأبذلهم فى تحصيلها وأعظمهم فى اكرامها وأقومهم بشكرها والذين حرمهم الله ذلك فانما احتقارهم وتعظيمهم لفقدها بعد القدر السابق فلو كان تعظيم العلم والعبادة فى قلوب العامة والسوقة مثل ما فى قلوب العلماء والمتعبدين لما آثروا سوقهم عليه وهان عليهم تركه الا ترى أن فقيها اذا ظفر بتعليم مسئلة كانت ملتبسة عليه ثم ظفر بها كيف يرتاح قلبه وبعظم سروره ويجل موقعها من قلبه حتى انه ربما لو وجد ألف دينار ما كان يعدل ذلك وربما جاء مسئلة فى باب الدين فيتفكر فيها سنة بل عشرا بل عشرين وأكثر لا يستكثر ذلك ولا يمل حتى ربما رزقه الله تعالى فهم ذلك فيعده أعظم منة وأكبر نعمة ويرى نفسه بذلك أغنى كل غنى وأشرف كل شريف بل ربما يتبين مثل هذه المسئلة لسوقى أو لتلعم كسلان يرى من نفسه انه مثله فى الرغبة فى العلم والمحبة له فلا يستمع اليه حتى ربما ان طال عليه الكلام يميل أو ينام وان تبين ذلك له فلا يعده كبير أمر وكذلك المنيب الى الله تعالى كم يجتهد ويدأب بالرياضة وصيانة النفس عن الشهوات واللذات وايلام الاركان فى الحركات والسكنات عسى أن يتم الله له ركعتين فى آداب وطهارة وكم يتضرع الى الله تعالى عسى أن يرزقه ساعة مناجاة بصفوة وحلاوة فلئن ظفر بذلك فى شهر مرة بل فى سنة مرة بل فى عمره كله مرة عد ذلك أكبر منة وأعظم نعمة وكم يسر وكم يشكر الله تعالى ولا يكترث بما فاته من الشهوات وكابد من اللذائذ وهجر من اللذات فيها ثم ترى الذى يزعم انه راغب فى العبادات يحب أن يحصل منها شيأ لو احتاج أحدهم فى تحصيل مثل هذه العبادة الصافية الى نقصان اللقمة من عشائهم أو ترك كلمة لا تغنيهم أو دفع نوم

ومعونتهم فان الطامع فى الاكثر غائب فى المال وهو ذاهل لاحالة فى المال فاذا سألت واحدا حاجة فقضاها فاشكر الله تعالى واشكره وان قصر فلا تعاتبه ولا تشكه فتصير عدوا وكن كالمؤمن يطلب المعاذير ولا تكن كالمنافق يطلب العيوب وقل لعله قصر لعذر لم أطلع عليه ولا تظن فى أحد منهم ما لم تتوسم فيه أو لا مخايل القبول والا لم يستمع منك وصار خصما عليك فاذا أخطؤا فى مسئلة وكانوا يأنفون من التعليم من كل أحد فلا تعلمهم فانهم يستفيدون منك علما ويصيرون لك أعدادا الا اذا تعلق ذلك بمصلحة يقارفونها من جهل منهم فاذكر الحق بلطف من غير عنف واذا رأيت منهم كرامة وخيرا فاشكر الله الذى حببك اليهم واذكر

ساعة عن أعينهم فلا تسمح أنفسهم بذلك ولا تطيب قلوبهم وان اتفق لهم فى النادر حصول عبادة
فى صفوة فلا يعدونه خطيرا مرولا يقدمون فيه كثير سكر وانما يعظم سرورهم ويكثر بالظاهر حمدهم
اذا حصل لهم درهم أو استقامت لهم كسرة أو طابت لهم مرقة أو طالت لهم فى سلامة البدن رقدة
فيقولون عند ذلك الحمد لله هذا من فضل الله فانى يساوى هؤلاء الغافلون العاجزون مع أولئك
السعداء المجتهدين الجاهدين ولذلك صار هؤلاء المساكين عن هذا الخير محرومين وأولئك المؤيدون
بالظافرين فائزين وكذلك قسم الامر احكم الحاكمين سبحانه وهو أعلم العالمين فهذا تفصيل
قوله تعالى أليس الله بأعلم بالشاكرين فتفهم وراعه حقه واعلم أنك لم تحرم قط خيرا أنت تتمناه
الا من قبل نفسك فابذل مجهودك لتعرف قدر نعمة الله تعالى وتعظمها حق تعظيمها فتكون
أهلا لها ولاعطائها ثم يمن عليك بابقائها كما من عليك بابتدائها على ما نذكره فى الاصل الثانى ان
الرؤف الرحيم (الاصل الثانى) أن النعمة انما تسلب ممن لا يعرف قدرها والذى لا يعرف قدرها
الكفور الذى كفرها ولا يؤدى شكرها ودليل ذلك قوله تعالى واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا
فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها الآية تقدير الكلام انا
أنعمنا على هذا العبد بالنعم العظام والايادى الجسام فى باب الدين بما مكناه فى ذلك من تحصيل الرتبة
الكبيرة والمنزلة الرفيعة على بابه البصير فيها عندنا عظيم القدر كبير الجاه ولكنه جهل قدر نعمتنا
فمال الى الدنيا الخسيسة الحقيرة وآثرها وقدمها على نفسه الدنية الرديئة ولم يعلم أن الدنيا كلها لا تزن عند
الله أدنى نعمة من نعم الدين ولا تساوى عنده جناح بعوضة فكان فى ذلك بمنزلة الكلب الذى
لا يعرف الاكرام والراحة من الاهانة والمشقة ولا الرفعة والشرف من الحقارة والخسة فهو فى
الحالتين يلهث وانما الكرامة كلها عنده فى كسرة يطعمها أو عراق مائدة يرمى اليه سواء قعده
على سرير معلى أو نحاه فى التراب والقذر بين يديك فهمته وكرامته ونعمته كلها فى ذلك فهذا العبد
السوء اذا جهل قدر نعمتنا ولم يعرف حق ما آتيناه من كرامتنا فكلت بصيرته وساء فى مقام
القربة أدبه بالالتفات الى غيرنا والاشتغال عن ذكر نعمتنا بنيا حقيرة ولذة خسيسة فنظرنا اليه
نظر السياسة وأحضرناه ميدان العدل وأمرنا فيه بحكم الجبروت فسلبناه جميع خلعنا وكراماتنا
ونزعنا من قلبه معرفتنا فانسلخ عاريا من جميع ما آتيناه من فضلنا فصار كالكلب طريدا وشيطانا رجيما
مريدا نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه انه بنا رؤف رحيم ثم اقتضى بمثال ملك يكرم
عبده له فيخلع عليه خاصة ثيابه ويقربه منه ويجعله فوق سائر خدامه وحجابه وأمره بلازمة
بابه ثم أمر أن يبنى له فى موضع آخر القصور وترفع له الاسرة وتنصب له الموائد وتزين له الجوارى
وتقام له الغلمان حتى اذا رجع من الخدمة أجلس هناك ملكا مخدوما مكرما وما بين حال خدمته
الى ملكه وولايته الا ساعة من نهار أو اقل فان أبصر هذا العبد بجانب باب هذا الملك سائسا
للدواب يأكل رغيفا أو كلبا يضع عظما فيشتغل عن خدمة الملك بنظره اليه واقباله عليه ولا
يلتفت الى ماله من الخلع والكرامة فيسعى الى ذلك السائس ويتيده ويسأله كسرة من رغيف أو
يزاحم الكلب على عظمة ويغبطهما ويعظم ما هما فيه أليس الملك اذا نظر اليه فى مثل هذه الحالة
يقول هذا نفسه خسيس الهمة لم يعرف حق كرامتنا ولم ير قدر اعزازنا اياه بخلعنا والتقريب
الى حضرتنا مع ما صرفنا اليه من عنايتنا وأمر ناله من الذخائر وضروب الايادى ما هذا

رأيتهم شمر افكلهم الى
الله تعالى واستعذ بالله من
شرهم ولا تعاتبهم ولا تقل
لهم لم تعرفوا حقى وأنا
فلان بن فلان وانا الفاضل
فى العلوم فان ذلك من كلام
المفتى وأشقى الناس حماقة
من يزكى نفسه ويثنى عليها
واعلم أن الله تعالى لا يسلطهم
عليك الا لذنب سبق منك
فاستغفر الله من ذنبك واعلم
أن ذلك عقوبة من الله
تعالى لك وكن فيما بينهم
جسما لقتلهم أصم عن
باطلهم نطوقا بجلسهم
صموتا عن مساوئهم *
واحذر مخالطة متفقهة
الزمان لاسيما المشتغلين
بالخلاف والجدال واحذر
منهم فانهم يتربصون بك
بجسدهم ريب المنون
ويقطعون عليك بالظنون
ويتغامزون وراءك بالعيون
يحصون عليك عثراتك فى
هفيرتهم حتى يجهولوك بها

الاساقط الهمة عظيم الجهل قليل التمييز اسلموه الخلع واطردوه عن بابها فهذا حال العالم اذا مال الى الدنيا والعابد اذا اتبع الهوى بعدما أكرمه الله بعبادته ومعرفة آياته وشريعته واحكامه ثم انه لم يعرف قدر ذلك فيصير الى أحقر شئ عند الله عز وجل وأهونه عنده فيرغب فيه ويحرص عليه ويكون أعظم في قلبه وأحب اليه من جميع ما أعطى من تلك النعم العزيزة من العلم والعبادة والحكم والحقائق وكذلك من خصه الله تعالى بأنواع توفيقه وعصمته وزينه بأنوار خدمته وعبادته ويديم النظر اليه بالرحمة في أكثر أوقاته ويباهي به ملائكته وأعطاه على بابه القيادة والوجاهة وأحله محل الشفاعة وأنزله منزلة الاعزة حتى اذا سارع بحيث لو دعاه لاجابه ولباه ولو سأله أعطاه وأغناه ولو شفع في عالم لشفعه فيهم وأرضاه ولو أقسم عليه لابره وأوفاه ولو خطر بباله شئ لاعطاه قبل أن يسأله بلسانه فمن كانت هذه حاله ثم لم يعرف قدر هذه النعم ولم ينظر الى قدر هذه المنزلة فيعدل عن ذلك الى شهوة نفس رديئة لاحياء لها أو لعقة من الدنيا الدنيئة التي لا بقاء لها ولم ينظر الى تلك الكرامات والخلع والهدايا والمنن والعطايا ثم ما وعد وما أعد له في الآخرة من الثواب العظيم والنعيم السابغ المقيم فما أحقرها اذن من نفس وما أسوأه من عبد وما أعظم خطره لو علم وما أفحش صنعه لو فهم نسأل الله البر الرحيم أن يصطنا بعظيم فضله وسعة رحمته انه أرحم الراحمين فعاملك أيها الرجل يبذل الجهد وحتى تعرف قدر نعم الله تعالى عليك واذا انعم عليك بنعمة الدين فايالك أن تلتفت الى الدنيا وحطامها فان ذلك منك لا يكون الا بضرب من التهاون بما أولاك ربك من نعم الدين أما تسمع قوله تعالى لسيد المرسلين ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم الآية تقديره ان كل من أوتي القرآن العظيم حق له أن لا ينظر الى الدنيا الحقيرة نظر استحلاء واستحسان قط فضلا عن أن يكون له فيها رغبة فليدم الشكر لله على ذلك فانها الكرامة التي حرص خليله ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يعم بها على أبيه فلم يفعل وحرص حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يمن بها على عمه أبي طالب فلم يفعل وأما حطام الدنيا فانه الذي يصبه على كل كافر وفرعون وملحد وزنديق وجاهل وفاسق الذين هم أهون خلقه عليه حتى يغرقوا فيه ويصرفه عن كل نبي وصفي وصديق وعالم وعابد الذين هم أعز خلقه عليه حتى انهم لا يكادون يصيبون كسرة وخرقة وعين عليهم بأن لا يلطخهم بقذرها حتى قال عز من قائل لموسى وهرون عليهما السلام ولو أشاء ان ازيكما بزينة لاعلم فرعون حين يراها ان مقدرته تعجز عنها لفعلت ولكني أزوي عنكما الدنيا وارغب بكما عنها وكذلك افعل بأوليائي رأني لاذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق ابله عن مبارك العرة واني لأجنبهم سكونها وعيشها وليس ذلك لهوانهم علي ولكن ليستكملوا عظيم كرامتي وقال تعالى ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة الآيتين فانظر الفرق بين الامرين ان كنت مبصرا وقل الحمد لله الذي من علينا بمن أولانه وما سقيانه وصرف عنا فتنة اعدائه لنحظى ونختص بالشكر الاوفر والحمد الاكبر للمنة الكبرى والنعمة العظمى التي هي الاسلام فانها الاولى والاخرى بأن لا تفتر لسانك ولا ينهار لك عن شكرها فان كنت عاجزا عن عرفان قدرها فاعلم بالحقيقة انك لو خلقت من اول الدنيا وأخذت في شكر نعمة الاسلام من اول الوقت الى الابد ما كنت تقوم بذلك وما قضيت بعض الحق لما هنالك من الفضل العظيم (قلت) واعلم ان

في غفلتهم ومناظراتهم لا يقيلون لك عثرة ولا يغفرون لك زلة ولا يسترون عليك عورة يحاسبونك على النقير والقطمير ويحصلونك على القليل والكثير ويحرضون عليك الاخوان بالتهمة والآباء بالاغتياب والبهتان ان رضوا فظاهرهم الملق وان سخطوا فباطنهم الحنق ظاهرهم شباب وباطنهم ذئاب هذا حكم ما قطعت به الشاهدة على أكثرهم الا من عصمه الله تعالى فصحبتهم خسران ومعاشرتهم خذلان هذا حكم من يظهر لك الصداقة فكيف من يجاهرك بالعداوة قال الشافعي ابن معروف رحمه الله تعالى

فاحذر عدوك مرة
واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق
فكان أعرف بالمضرة

وكذلك قيل في المعنى

الموضع لايحتمل ذكر ما يليق علمي من قدر هذه النعمة ولو املیت فيه الف الف ورقة لكان مبلغ
علمي فوق ذلك مع اعترافي بأن ما أعلمه في جنب مالا اعلمه كنقطة في بحار الدنيا بأسرها اما تسمع
ويحك قوله تعالى لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان الى ان
قال له وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما وقال تعالى اقوم بل الله يمن عليكم أن
هداكم للايمان الآية اما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم وقد سمع رجلا يقول الحمد لله على الاسلام
فقال انك لتحمد الله على نعمة عظيمة ولما قدم البشير على يعقوب عليه السلام قال على أي دين
تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة وقيل ما من كلمة أحب الى الله تعالى ولا أبلغ
عنده في الشكر من أن يقول العبد الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا الى دين الاسلام وايالك ان تغفل
الشكر للاسلام وتغتر بما أنت عليه في الحال من الاسلام والمعرفة والتوفيق والعصمة فان مع
ذلك لا موضع للامن والغفلة فان الامور بالعواقب وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول
ما أمن أحد على دينه الا سلب وكان شيخنا رحمه الله تعالى يقول اذا سمعت بحال الكفار وخلودهم
في النار فلا تأمن على نفسك فان الامر على الخطر ولا تدري ماذا يكون من العاقبة وماذا سبق لك
في حكم الغيب فلا تغتر بصفاء الاوقات فان تحتها غوامض الآفات وقال بعضهم يا معشر المغترين
بالعصم ان تحتها أنواع النقم زين الله ابليس بأنواع عصمته وهو عنده في حقائق لعنته وزين
بلعام بأنوار ولايته وهو عنده في حقائق عداوته وعن علي رضي الله عنه انه قال كم من مستدرج
بالاحسان اليه وكم من مفتون بحسن القول فيه وكم من مغرور بالستر عليه وقيل لذي النون ما
أقصى ما يخدع به العبد قال بالالطاف والكرامات ولذلك قال سبحانه سنستدرجهم من حيث
لا يعلمون قال أهل المعرفة نسبغ عليهم النعم وتنسيهم الشكر كما قال الشاعر

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وساءتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم انك كلما صرت أقرب فاعرف أن خوفك وأصعب والمعاملة أشد وادق والخطر عليك أعظم فان
الشيء كلما كان أبلغ علوا اذا انقلب كان أصعب وقوعا كما قيل ما طار طير فارتفع الا كما طار وقع
فاذن لا سبيل الى الامن واغفال الشكر وترك الابتهال في الحفظ بحال وكان ابراهيم بن أدهم
يقول كيف نأمن وابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه يقول واجنبني وبني أن نعبد
الاصنام ويوسف الصديق عليه السلام يقول توفني مسلما وكان سفيان الثوري لا يزال يقول
اللهم سلم سلم كأنه في سفينة يخشى الغرق وبلغنا عن محمد بن يوسف رحمه الله أنه قال تأملت سفيان
الثوري ليلة فبكى الليل أجمع فقلت له أبكاؤك هذا على الذنوب قال فحمل تبنة وقال الذنب أهون
على الله من هذا وانما أخشى ان يسلبني الله الاسلام والعياذ بالله وسمعت أنا بعض العارفين
يقول ان بعض الانبياء عليهم السلام سأل الله تعالى عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات
والكرامات فقال الله تعالى لم يشكرني يوما من الايام على ما أعطيته ولو شكرني على ذلك مرة
واحدة لما سلبته فتيقظ أيها الرجل واحتفظ بركن الشكر جدا واحمد الله على نعمه في الدين
اعلاها الاسلام والمعرفة وادناها مثلا توفيق تسبيح أو عصمة عن كلمة لا تعنيك عسى أن يتم
نعمه عليك ولا يبتليك بمرارة الزوال فان أمر الامور وأصعبها الاهانة بعد الاكرام والطرد بعد

عدو لك من صديق مستفاد
فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه
يكون من الطعام أو الشراب
وكن كما قال هلال بن العلاء
لما عفوت ولم أحقد على أحد
أريحت نفسي من هم العداوات
اني أسيء عدوي عند رؤيته
لادفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضه
كأنه قد ملا قلبي مسرات
ولست أسلم من لست أعرفه
فكيف أسلم من أهل المودات
الناس داء ودواء المحض تركهم
وفي الجفاء لهم قطع الاخوات
فسالم الناس تسلم من غوائلهم
وكن حريصا على كسب المودات
وخالق الناس واصبر ما بليت بهم
أصم أبكم أعمى ذا تقيات
وكن أيضا كما قال بعض
الحكماء الق صديقك
وعدو لك بوجه الرضا من غير
مذلة ولا هيبة منهما وتوقر
من غير كبر وتواضع من غير
مذلة وكن في جميع أمورك

التقريب والفراق بعد الوصال والله تعالى الماجد الكريم الرؤف الرحيم

(فصل)

وجملة الامر انك اذا أحسنت النظر فى منن الله تعالى العظام عليك وأياديه الجسام الكرام لديك التى لايحصيها قلبك ولايحيط بها وهمك حتى خلقت هذه القلوب الصعاب فوجدت العلوم والبصائر وطهرتك من الاوزار والكبائر وسبقت العوائق ودفعت العوارض وظفرت بالبواعث وسلمت من القوادح فكم حصل لك فيها من خصلة شريفة ورتبة عالية منيفة أولها التبصير والتعريف وآخرها التقريب والتشريف فتأملت فيها بعقد ارعقلك وتوفيقك وشكرت الله تعالى على قدر طوقك بان تشغل لسانك بحمده وثنائه وبملأ قلبك بعظمته وبهائه وبلغك مبلغا يحول بينك وبين عصيانه ويعينك على الخدمة له بما أمكنك أو بسعة طاقتك معترفا بالقصور عن حق انعامه واحسانه وكلما أغفلت شكره أو فترت أو زللت عاودت واجتهدت وتضرعت اليه وابتهلت وتوسلت وقلت يا الهى ومولاى كما بدأت بالاحسان بفضلك من غير استحقاق فأتمه بفضلك أيضا من غير استحقاق وتناديه بنداء أوليائه الذين وجدوا نائح هدايته وذاقوا حلاوة معرفته فخافوا على أنفسهم حرقة الطرد والاهانة ووحشة البعد والضلالة ومرارة العزل والازالة فتضرعوا بالباب مستغيثين ومدوا اليه الاكف مبتهلين ونادوا فى الخلوات مستصرخين ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب (قلت أنا) تقديره والله أعلم انا وجدنا منك نعمة نظمعنا فى أخرى فانك أنت الجواد الوهاب فكما وهبت لنا مزية الانعام فى الابتداء فهب لنا رجاء الانعام فى الانتهاء أما تسمع ويحك ان أول دعاء علمه رب العالمين عباده المسلمين الذين اصطفاهم من بين خلقه هذا الدعاء قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم أى ثبتنا عليه وأدمه لنا هكذا تتضرع اليه فان الخطب عظيم (وقيل) ان الحكماء نظروا فرددوا مصائب العالم وهمومهم كلها الى خمس المرض فى الغربة والفقر فى الشيب والموت فى الشباب والعمى بعد البصر والنكرة بعد المعرفة وأحسن من ذلك قول من قال

لكل شئ اذا فارقته عوض * وليس لله ان فارقت من عوض

واغره اذا أبقت الدنيا على المرء نفسه * فما فاته منها فليس بضائر

وكذلك فى كل نعمة أنعم بها عليك وتأييد ايده به فى قطع عقبة من العقبات ليثبت عليك ما أعطى ويزيدك فوق ما تريد وتتمنى فاذا فعلت ذلك كنت قد خلقت هذه العقبة الخطيرة وكنت قد ظفرت بالكنزين الكريمين العزيزين اللذين هما الاستقامة والاستزادة فقد دوم لك النعم الموجودة التى أعطاكها فلا تخشى زوالها ويزيدك من النعم المفقودة التى لم تعط بعد ما لا تحسن ان تسألها وتتمناها فلا تخشى فواتها وكنت حينئذ من العارفين العلماء العاملين بالدين التائبين الظاهرين الزاهدين فى الدنيا المتجردين للخدمة القاهرين للشيطان المتقين حق التقوى بالقلب والاركان القاصرين للامل الناصحين الخاشعين المتواضعين المتوكلين المفوضين الراضين الصابرين الخائفين الراجين المخلصين الذاكرين المنة الشاكرين لانعم سيدهم رب العالمين ثم تصير بعد ذلك من المستقيمين المكرمين الصديقين فتأمل هذا الكلام والله تعالى ولى التوفيق (فان قلت) اذا كان الامر كذلك لقد قل من الناس العابد لهذا المعبود والواصل الى هذا المقصود ومن الذى يقوى

فى أواسطها فكلا طرفى الامور ذميم كما قيل عليك باوساط الامور فانها طريق الى نهج الصراط قويم ولاتك فيها مفرطا أو مفرطا فان كلا حال الامور ذميم ولاتنظر فى عطفك ولاتكثر الالتفات ولاتقف على الجماعات واذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل اسنانك وادخال اصبعك فى أنفك وكثرة بصاقك وتنخمك وطرد الذباب عن وجهك وكثرة التمطى والتثاؤب فى وجوه الناس وفى الصلاة وغيرها ولكن مجلسك هادئا وهيئتك منظوما مرتبا وارجع الى الكلام الحسن من حديثك من غير اظهار تعجب مفرط ولاتسأله اعادته واسكت عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن عجائب بوادك

على هذه المؤن وتحصيل هذه الشرائط والسنن فاعلم ان الله تعالى كذلك يقول وقليل من عبادى الشكور ولكن أكثر الناس لا يشكرون لا يعقلون لا يعلمون ثم ان ذلك يسير على من يسره الله تعالى عليه وعلى العبد الاجتهاد وعلى الله سبحانه الهداية قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا واذا كان العبد الضعيف يقوم بما عليه فاظنك بالرب القدير الغنى الكريم الرحيم (فان قلت) فالعمر قصير وهذه عقبات طويلة شديدة فكيف يفى العمر حتى تكمل هذه الشرائط وتقطع هذه العقبات فاعلم ان هذه العقبات طويلة والشرائط فيها شديدة ولكن اذا أراد الله تعالى ان يجتبى عبده قصر عليه طويلها وهون عليه شديدها حتى يقول بعد قطعها اما أقرب هذه الطريق وأقصرها وما أهون هذا الامر وأيسره وفى مثل ذلك (قلت انا) عند وقوفى على هذه الغاية

علم المحجة واضح لمريده * وأرى القلوب عن المحجة فى عمى
ولقد عجبت لها الك ونجاته * موجودة ولقد عجبت لمن نجا

حتى ان منهم من يقطع هذه العقبات فى سبعين سنة ومنهم من يقطعها فى عشرين سنة ومنهم من يقطعها فى عشر سنين ومنهم من يحصل له فى سنة ومنهم من يقطعها فى شهر بل فى جمعة بل فى ساعة حتى ان منهم من يحصل له فى لحظة بتوفيق خاص وعناية سابقة من الله سبحانه اما تذكر أصحاب الكهف كيف كانت مدتهم خطرة حيث رأوا والتغير فى رجعه ملكهم دقيانوس فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها الآية حصلت لهم المعرفة وأبصروا ما فى هذه الطريق من الحقائق وقطعوا هذه الطريق فصاروا مفوضين متوكلين مستقيمين اذ قالوا فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته الآية وكل ذلك انما حصل لهم فى مقدار ساعة أو لحظة أما تذكر سحرة فرعون ما كانت مدتهم الا لحظة حيث رأوا معجزة موسى عليه السلام قالوا آمنا برب هرون وموسى فابصروا الطريق وقطعوه فصاروا من ساعة الى ساعة بل أقل من العارفين بالله تعالى الراضين بقضاء الله تعالى الصابرين على بلائه الشاكرين لآلائه المشتاقين الى لقائه فنادوا لا ضيرانا الى ربنا منقلبون ولقد حكينا ان ابراهيم ابن أدهم رحمه الله كان على ما كان عليه من أمر الدنيا فعدل عن ذلك وقصد هذه الطريق فلم يكن الا مقدار سيره من بلخ الى مرو روذ حتى صار بحيث أشار الى رجل سقط من القنطرة فى الماء الكثير هنالك ان قف فوقف الرجل مكانه فى الهواء فتخلص وان رابعة البصرية كانت أمة كبيرة السن يطاف بها فى سوق البصرة لا يرغب فيها أحد لكبر سنها فرجها بعض التجار فاشتراها بنحو مائة درهم وأعتقها فاختارت هذه الطريق وأقبلت على العبادة فماتت لها سنة حتى زارها زهاد البصرة وقرأوها وعلموها العظم منزلتها وأما الذى لم تسبق له العناية ولم يعامل بالفضل والهداية فيوكل الى نفسه فربما يبقى فى شعب من عقبة واحدة سبعين سنة ولا يقطعها وكم يصيح ربه سرخ ما أطول هذا الطريق وأشكله وأعسر هذا الامر وأعضله فان الشأن كله الى أصل واحد وذلك تقدير العزيز العليم العدل الحكيم (فان قلت) لم اختص هذا بالتوفيق الخاص وحرم هذا وكلاهما مشتركان فى ربقة العبودية فعند هذا السؤال ينادى من سرادق الجلال أن الزم الادب واعرف سر الربوبية وحقيقة العبودية فانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (قلت انا)

ومثال

وشمرك وكمك لا مما وتصنيفك وسائر ما يخصك ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين ولا تتذلل اتذلل العبد وثوق كثرة الكحل والاسراف فى الدهن ولا تلح فى الحاجات ولا تشجع أحدا على ظلم ولا تعلم احدا من أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار مالك فانهم ان رأوه قليلا هنت عليهم وان رأوه كثيرا لم تبلغ رضاهم قطوا حقهم من غير عنف وان لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيقطر وقارك واذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وعجلتك وتفكر فى عجلتك ولا تكثر الاشارة بيدك ولا تكثر الالتفات الى ورائك ولا بحث على ركبتيك واذا هد أغضبك فتكلم واذا قربك السلطان فكن على حذر السنان واياك وصديق العافية فانه أعدى

ومثال هذا الطريق فى الدنيا الصراط فى الآخرة فى عقباتها ومسافاتها ومقاطعها واختلاف أحوال الخلق فيها فمنهم من يمر عليه كالبرق الخاطف ومنهم من يمر عليه كالريح العاصف وآخر كالفرس الجواد وآخر كالطائر وآخر يمشى وآخر يحبو حبوا وآخر يسعى سعيا وآخر يوخذ بكلاليب فيطرح فى جهنم فكذلك حال هذا الطريق مع سالكيه فى الدنيا فهما صراطان صراط الدنيا وصراط الآخرة فصراط الآخرة للانفس يرى أهوالها أهل الابصار وصراط الدنيا للقلوب يرى أهوالها ذوو البصائر والالباب وانما اختلفت الاحوال للسالكين فى الآخرة لاختلاف أحوالهم فى الدنيا فتأمل ذلك حقه فهذه هذه وبالله التوفيق

(فصـــــل)

ثم اعلم ما هو التحقيق فى هذا الباب وهو انه ليس هذا الطريق فى طوله وقصره مثل المسافات الكائنة التى تسلكها الانفس فتقطعها بالاقدام فيقع قطعها على حسب قوة الانفس وضعفها انما هو طريق روحانى تسلكه القلوب فتقطعه بالافكار على حسب العقائد والبصائر وأصله نور سماوى ونظر الهى يقع فى قلب العبد فينظر به نظرة فيرى بها أمر الدارين بالحقيقة ثم هذا النور ربما يطلبه العبد مائة سنة فلا يجده ولا أثر امنه وذلك لخطئه فى الطلب وتقصيره فى الاجتهاد وجهله بطريق ذلك وآخر يجده فى خمس سنة وآخر يجده فى عشر وآخر فى يوم وآخر فى ساعة ولحظة بعناية رب العزة وهو تعالى ولى الهداية لكن العبد مامور بالاجتهاد فعليه بما أمر والامر مقسوم مقدور والرب حكم عدل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (فان قلت) فما اعظم هذا الخطر وأشد هذا الامر وما أكثر ما يحتاج اليه هذا العبد الضعيف فكل هذا العمل والجهد وتحصيل هذه الشرائط لماذا فأقول لعمرى انك لصادق فى قولك ان الامر شديد والخطر عظيم ولذلك قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى كبد وقال تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ولذلك قال سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا وما درى ان المنادى ينادى من قبل السماء ليست الخلق لم يخلقوا ولم تم اذ خلقوا اعلموا لماذا خلقوا ولم تم اذ علموا اعملوا بما علموا ولذلك يقول السلف رضى الله عنهم فعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه انه قال وددت انى كنت خضرا تأكلنى الدواب مخافة العذاب وعن عمر رضى الله عنه انه سمع انسانا يقرأ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا قال ليتنى لم أكن وقال أبو عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه وددت انى كبش لاهلى فيتخذ قومى لحمى ويحسو مرقى ولم أخلق وعن وهب ابن منبه انه قال خلق ابن آدم أحمق ولو لا حمقه ما هنأه عيش وعن الفضيل بن عياض رحمه الله قال انى لا أغبط ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يبعثون يوم القيامة انما أغبط من لم يخلق وعن عطاء السلمى رحمه الله انه قال لو ان نارا أوقدت وقيل من ألقى نفسه فيها صار لا شئ لخشيت أن أموت من الفرح قبل أن أصل النار فالامر اذن أيها الرجل شديد كما تقول بل هو أشد وأعظم مما تظن وتتوهم ولكنه أمر سبق فى العلم القديم وتدبير أجراه العزيز العليم فلا حيلة للعبد الا بذل المجهود فى العبودية والاعتصام بحبل الله والابتهال دائما الى الله سبحانه عسى أن يرحمه فيسلم بفضله وأما قولك كل هذا لماذا فهذا كلام يدل منك على غفلة عظيمة بل الصواب

الاعداد ولا تجعل مالك أكرم من عرضك وهذا القدر يا فتى يكفيك من بداية الهداية فجرب بها نفسك فانها ثلاثة أقسام قسم فى آداب الطاعات وقسم فى ترك المعاصى وقسم فى مخالطة الخلق وهى جامعة لجميع معاملة العبد مع الخالق والخلق فان رأيتها مناسبة

أن تقول كل هذا في جنب مايطلبه العبد الضعيف ماذا أدري مايطلب العبد الضعيف أقل مايطلبه على الجملة شيئان أحدهما السلامة في الدارين والثاني الملك في الدارين اما السلامة في الدنيا فان الدنيا وآفاتها وفتنها وغوائلها بحيث لم يسلم منها الملائكة المقربون وقد سمعت حديث هاروت وماروت حتى روي انه اذا عرج بروح العبد الى السماء تقول ملائكة السموات متعجبين كيف نجا هذا من دار فسد فيها خيارنا وان الآخرة في أهوالها وشدائدها بحيث تصرخ فيها الانبياء والرسل عليهم السلام نفسي نفسي لا أسألك اليوم الا نفسي حتى انه روي لو كان للرجل عمل سبعين نبيا الظن انه لا ينجو فمن أراد أن يسلم من فتن هذه فليخرج منها بالاسلام سالما لا تصيبه بلية ومن أهوال هذه فليدخل الجنة سالما لا تصيبه نكبة أيكون هذا أمرا هينا وأما الملك والكرامة فان الملك نفاذ التصرف والمشيئة وان ذلك بالحقيقة في الدنيا الاولياء الله عز وجل وأصفياؤه الراضين بقضائه البر والبحر والارض لهم قدم واحد والحجر والمدر لهم ذهب وفضة والجن والانس والبهائم والطير لهم مسخرون لا يشاؤن شيأ الا وهو كائن لهم لانهم لا يشاؤن الا ماشاء الله وماشاء الله كان ولا يهابون أحدا من الخلق ويهابهم كل الخلق ولا يخدمون أحدا الا الله عز وجل ويخدمهم كل من دون الله واين لملوك الدنيا بعشر معشار هذه الرتبة بل هم أقل وأذل وأما ملك الآخرة فيقول الله تعالى واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا وأعظم بما يقول فيه رب العزة انه ملك كبير وأنت تعلم ان الدنيا بأسرها قليلة وان بقاءها من أولها الى آخرها القليل ونصيب أحدنا من هذا القليل قليل ثم الواحد منا قد يذل ماله وروحه حتى ربما يظفر بقدر قليل من هذا القليل في بقاء قليل وان حصل له ذلك فيعذر بل يغبط ولا يستكثر ما بذل فيه من المال والنفس فحق ماذكر عن امرئ القيس حيث يقول

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه * وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما * نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

فكيف حال من يطلب الملك الكبير في دار النعيم الخالد المقيم أيستكثر مع ذلك أن يصلي ركعتين لله تعالى أو ينفق درهمين أو يسهر ليلتين كلا بل لو كان له ألف ألف نفس وألف ألف روح وألف ألف عمر كل عمر مثل عمر الدنيا وأكبر وأكثر فبذل ذلك كله في هذا المطلوب العزيز لكان ذلك قليلا ولئن ظفر بعده بما طلب لكان ذلك غنما عظيما وفضلا من الذي أعطاه كثيرا فتنبه أيها المسكين من رقدة الغافلين ثم انى تأملت ما يعطيه الله سبحانه العبد اذا أطاعه ولزم خدمته وسلك هذه الطريق عمره فوجدتها على الجملة أربعين كرامة وخلعة عشرين منها في الدنيا وعشرين منها في العقبى اما التي في الدنيا فالاولى أن يذكره الله سبحانه ويثني عليه واكرم بعبد يكون الله رب العالمين هو الذي يثني عليه في ذكره وثنائه والثانية ان يشكره جل جلاله ويعظمه ولو شكر له مخلوق ضعيف مثلك وعظمك لشرفت به فكيف بالله الاولين والآخرين والثالثة ان يحبه ولو أحبك رئيس محلة أو أمير بلدة لافتخرت بذلك وانتفعت به في مواطن عزيزة فكيف بمحبة رب العالمين والرابعة أن يكون له وكيلا يدبر أموره والخامسة ان يكون له يرزقه كفيلا يوجهه اليه من حال الى حال من غير تعب أو وبال والسادسة أن يكون له نصيرا يكفيه كل عدو

لنفسك وديت قلبك ما تلا
اليها راغبا في العمل بها
فاعلم انك عبد تقي لله قلبك
بالايمان ونشرح به صدرك
وتحقق ان لهذه البداية
نهاية ووراءها أسرارا
وأغوارا وعلوما ومكاشفات
وقد أودعناها في كتاب
احياء علوم الدين فاشتغل
بتحصيله فان رأيت نفسك

ويدفع عنه كل قاصد بسوء والسابعة أن يكون له أنيسا لا يستوحش بحال ولا يخاف التغير والاستبدال والثامنة عز النفس فلا يلحقه ذل خدمة الدنيا وأهلها بل لا يرضى أن تخدمه ملوك الدنيا وجبابرتها والتاسعة رفع الهمة فيترفع عن التلطخ بأقذار الدنيا وأهلها ولا يلتفت الى زخارفها ولا هيها ترفع الرجال الالباء عن ملاعب الصبيان والنسوان والعاشرة غنى القلب فيكون أغنى من كل غنى في الدنيا لا يزال طيب النفس فسيح الصدر لا يفزعه حدث ولا يهمه عدم والاحدى عشرة نور القلب فيهتدي بنوره قلبه الى علوم وأسرار وحكم لا يهتدي الى بعضها غيره الا بجهد جهيد وعمر مديد والثانية عشرة شرح الصدر فلا يضيق ذرعا بشئ من محن الدنيا ومصائبها وهوان الناس ومكايدهم والثالثة عشرة المهابة والموقع في نفوس الناس يحترمه الاخيار والاشرار ويهابه كل فرعون وجبار والرابعة عشرة المحبة في القلوب يجعل له الرحمن ودا فترى القلوب كلها مجبولة على حبه والنفوس كلها بأجمعها مطبوعة على تعظيمه واكرامه والخامسة عشرة البركة العامة في كل شئ من كلام أو نفس أو فعل أو ثوب أو مكان حتى يتبرك بتراب وطئه ومكان جلس فيه يوما وبانسان صحبه ورآه حينا والسادسة عشرة تسخير الارض من البر والبحر حتى ان شاء سار في الهواء أو مشى على الماء أو قطع وجه الارض بأقل من ساعة والسابعة عشرة تسخير الحيوان من السباع والوحوش والهوام وغيرها فتحبه الوحوش وتصبح له الاسود والثامنة عشرة ملك مفاتيح الارض فيشما يضرب بيده فله كنزان أراد وحيثما يضرب برجله فله عين ماء ان استاج وأينما نزل فله مائدة تحضره ان قصد والتاسعة عشرة القيادة والوجاهة على باب رب العزة فيبتغي الخلق الوسيلة الى الله تعالى بخدمته وتستنجح الحاجات من الله تعالى بوجاهته وبركته والعشرون اجابة الدعوة من الله تعالى فلا يسأل الله تعالى شيأ الا أعطاه ولا يشفع لاحد الا شفع ولو أقسم على الله تعالى لا بر يمينه حتى ان منهم من لو أشار الى جبل لزال فلا يحتاج الى السؤال باللسان ولو خطر بباله شئ لحضر ولا يحتاج الى الاشارة باليد فهذه كرامات في الدنيا وأما التي في العقبى فالحادية والعشرون أن يهون الله عليه أهوال سكرات الموت وهي التي وجلت قلوب الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيها حتى سألوا الله أن يهون عليهم حتى ان منهم من يكون الموت عنده مثل شربة الماء الزلال للظمآن قال الله عز وجل الذين تتوفاهم الملائكة طيبين والثانية والعشرون الثبات على المعرفة والايمان وهو الذي منه كل الخوف والفزع وعليه كل البكاء والجزع قال الله عز من قائل يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة والثالثة والعشرون ارسال الروح والريحان والبشرى والرضوان والامان قوله سبحانه وتعالى ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون فلا يخاف مما يقدم عليه في العقبى ولا يحزن على ما خلفه في الدنيا والرابعة والعشرون الخلود في الجنان ومجاورة الرحمن والخامسة والعشرون الجلوة في السر لوجه فيعرج على ملائكة السموات والارض بالاكرام والالطاف والانعام ولبدنه في العلانية بتعظيم جنانه والمزاحمة على الصلاة عليه والمبادرة الى تجهيزه يرجون بذلك أكثر ثواب ويعدونه أعظم غنم والسادسة والعشرون الامان من فتنة سؤال القبر وتلقين الجواب فيأمن من ذلك الهول والسابعة والعشرون توسيع القبر وتنويره فيكون في روضة من رياض الجنة

تستقل العمل بهذه الوظائف وتترك هذا الفن من العلم وتقول لك نفسك أني يتفق لك هذا الفن في محافل العلماء ومتى يقدمك هذا على الاقران والنظراء وكيف يرفع منصبك في مجالس الامراء والوزراء ليوصلك الى السلطة والارزاق وولاية الاوقاف

الى يوم القيامة والثامنة والعشرون ايناس روحه ونسمته واكرامها فتجعل فى أجواف طير خضر مع الاخوان الصالحين فرحين مستبشرين بما آتاهم الله من فضله والتاسعة والعشرون الحشر فى العز والكرامة من حلل وتاج وبراق والثلاثون بياض الوجه ونوره قال الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة وقال وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة والحادية والثلاثون الامن من أهوال يوم القيامة قال الله تعالى أمن يأتى آمنا يوم القيامة والثانية والثلاثون الكتاب باليمين ومنهم من كتب الكتاب رأسا والثالثة والثلاثون تيسير الحساب ومنهم من لا يحاسب أصلا والرابعة والثلاثون ثقل الميزان ومنهم من لا يوقف للوزن أصلا والخامسة والثلاثون ورود الحوض على النبى صلى الله عليه وسلم فيشرب شربة لا يظمأ بعدها أبدا والسادسة والثلاثون جواز الصراط والنجاة من النار حتى ان منهم من لا يسمع حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون وتخمد له النار والسابعة والثلاثون الشفاعة فى عرصات القيامة نحوا من شفاعة الانبياء والرسل والثامنة والثلاثون ملك الابد فى الجنة والتاسعة والثلاثون الرضوان الاكبر والاربعون لقاء رب العالمين اله الاولين والآخرين بلا كيف جل جلاله

(ثم أقول) وانما عددت ذلك على حسب فهمى وبلغ علمى فى قصوره ونقصه ومع ذلك فقد اجملت وأوجزت وذكرت الاصول والجمل ولو فصلت بعض ذلك لما احتمله الكتاب ألا ترى انى جعلت ملك الابد خلعة واحدة ولو فصلتها لارتفعت على أربعين خلعة من نوع الحرير والقصب والديباج وغير ذلك ثم كل نوع يشتمل على تفاصيل لا يحيط بها الا عالم الغيب والشهادة الذى هو خالقها ومالكها وأى مطمع لنا فى معرفة ذلك وربنا سبحانه يقول فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وان المفسرين يقولون فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ان هذه هى الكلمات التى يقولها الله تعالى لاهل الجنة فى الجنة باللطف والاكرام وما تكون حالة هذه فأنى نبلغ جزأ من ألف جزء منه ونحن بشر أو كيف يحيط به علم مخلوق كلا بل تقاعدت الهمم وتقاصرت دونه العقول وحق أن يكون ذلك كذلك وهو عطاء العزيز العليم على مقتضى الفضل العظيم وحسب الجود القديم ألا فليعمل العاملون وليبذل المجتهدون جهدهم لهذا المطلوب العظيم وليعلموا ان ذلك كله أقل قليل فى جنب ما هم اليه محتاجون واياه يطلبون وله يتعرضون وليعلموا ان العبد لا بد له فى الجملة من أربعة العلم والعمل والاخلاص والخوف فيعلم أولا الطريق والآفة وأعمى ثم يعمل بالعلم والآفة محجوب ثم يخلص العمل والآفة مغبون ثم لا يزال يخاف ويحذر من الآفات الى أن يجد الامان والآفة مغرور ولقد صدق ذو النون حيث قال الخلق كلهم موتى الا العلماء والعلماء كلهم نيام الا العاملين والعاملون كلهم مغرورون الا المخلصين والمخلصون كلهم على خطر عظيم (قلت انا) والعجب كل العجب من أربعة أحدهما من عاقل غير عالم اما يهتم بمعرفة ما بين يديه اما يتعرف ما هو مطلع بعد الموت عليه بالنظر فى هذه الدلائل والعبر والاستماع الى هذه الآيات والنذر والانزعاج بهذه الخواطر والهواجس فى النفس قال الله تعالى أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ وقال تعالى ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم والثانى من عالم غير عامل بالعلم اما يتفكر ما بعلم يقينا مما بين يديه من الاهوال العظام

والفضاء فاعلم أن الشيطان قد أغواك وأنساك منقلبك ومثواك فطلب لك شيطانا مثل أعمالك ما تظن أنه ينفعك ويوصلك الى بغيتك ثم اعلم أنه قط لا يصفو لك الملك فى مملكتك فضلا عن قربك وبالك ثم يفوتك الملك المقيم والنعيم الدائم فى جوار رب العالمين

والعقبات

والعقبات الصعاب وهذا هو النبأ العظيم الذي أنتم عنه معرضون والثالث من عامل غير مخلص اما تأمل قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا والرابع من مخلص غير خائف اما ينظر الى معاملة الله جل جلاله مع أصفيائه وأوليائه وخدمه الدالة منه وبين خلقه حتى يقول لاكرم الخلق عليه ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك الآيات ونحوها حتى حكي انه كان عليه السلام يقول شيبتني هود واخواتها ثم جملة الامر وتفصيلها قاله رب العالمين في أربع آيات من الكتاب العزيز قوله عز وجل أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ثم قال جل اسمه ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون ثم قال جل من قائل والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ثم أجمل الكل فقال وهو أصدق القائلين ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازل به القدم أو طغا به القلم ونستغفره من كل أقاويلنا التي لا توافق أعمالنا ونستغفره من كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل خطرة دعتنا الى تصنع وتزين في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه ونسأله أن يجعلنا واياكم يا معشر الاخوان عاملين ولوجهه مريدين وأن لا يجعله وبالا علينا وأن يضعه في ميزان الصالحات اذا وردت أعمالنا اليه انه جواد كريم قال الشيخ رضي الله عنه فهذا ما أردنا أن نذكره في شرح كيفية سلوك طريق الآخرة وقد وفينا بالمقصود والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله تنزل البركات وصلى الله على خير مولود داعا الى فضل معبود محمد النبي وآله وسلم تسليما كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

{ بعد حمد الله على نعمائه والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه يقول }
{ المتوسل الى الله بالجناب الصديقي ابراهيم عبد الغفار الدسوقي }

تم بعون الله الملك المعين طبع منهاج العابدين الذي طار في الآفاق طائر صيته وعرف الاوجاء عرف عبيره موذي الهوامش من المبدا الى الغاية بالكتاب المسمى بداية الهداية المنسوب كلاهما الى الامام الهمام العارف بالله تعالى حجة الاسلام صاحب المصنفات النفيسة الغوالي أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ونور ضريحه وأعاد علينا واخواننا من بركاته ونفعنا بنفحة من نفحاته على ذمة المكرم الافضل الكامل المبجل الساعي في مرضاة مولاه الغني الحاج أبي طالب بن عبد الله المعيني بدار الطباعة الباهرة المزهرة بماسوراها من مطابع القاهرة في ظل من تعطرت بثنائه الافواه وبلغ من العز والتمكن منتهاه وارث الولاة الاماجد وسلالة السراة الصناديد الجامع بين تالد المجد وطارفه والمسند أحاديث الكرم عن أبيه وسالفه ذي الحلم الذي تستخف لديه الاطواد والمآثر التي لا ينبغي بعضها تعداد من قلائد جيده الرقاب. وذلل بهمته الصعاب صاحب المناقب الشهيرة والمواهب الغزيرة والعطاء الجميل الجزيل جناب عزيز مصر الخديوي اسمعيل متع الله الوجود بحفظ وجوده ولا زالت منهلة على رعاياه سحائب كرمه وجوده ولا برح باقي الذكر في عقبه على مر الدهر وحقبه خصوصا بأكبر اشباله وأنجب اشباله الوزير الجليل

النيل الاصيل رب المعارف المشهورة والعوارف المشكورة من زادت به روح الحكومة
انتعاشا سعادة محمد توفيق باشا لازالت الايام مضيئة بشمس علاه والليالي منيرة بدر سناه
وكانت هذه الطبعة الرائقة ذات المحاسن الفائقة مشمولة بادارة من عليه
اخلاقه تثني مدير المطبعة والكاغدخانة حسين بك حسني وتطر
وكيله السالك جادة سبيله من لم يزل لغرة ذكائه يجني حضرة
محمد أفندي حسني في أواسط الشهر المعظم شهر شعبان
المكرم من شهور سنة سبع وثمانين ومائتين وألف
من هجرة من كان كما يرى من الامام يرى من
الخلاف صلى الله وسلم عليه وكل
منتسب اليه مالاح بدر
تمام وفاح مسك
مختام
تم